

عُلب الرَغْبَة

عُلب الرَغْبَة

رواية

عبّاس نبضون

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ.د. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/ ٢٦٧٣٢

I. S. B. N 978 - 977 - 490 - 571 - 1

عُلب الرَغْبَة

رواية

عبّاس بيضون

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

بيضون، عباس.

عُلب الرَغَبَة: رواية/ عباس بيضون.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ١ ٥٧١ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٦٧٣٢ / ٢٠١٩

هذه الرواية، وحكايتها وشخصياتها وظروفها، من نسج الخيال، وإن
استعيرت لها أحياناً، لحاجات فنيّة، ظروف وأماكن معروفة. وكلّ
ما يُشعر فيها بشبه أو قرب من واقعة أو شخص أو ظرف ليس إلّا من
غريب المصادفات.

الحساب

تُركت وحدي تحت الشجرة. ليس مطلوبًا إلا أن أقف هكذا: أن أوجد فقط. أنا الصديق الأقرب، تسليّة الشقيقة والحبيبة. لست أخًا ولا أبا. الأصدقاء لا يرثون. الموتى لأهلهم وحدهم. ما إن يختفوا حتى تنعدم آثارهم إلا في بيوت ذويهم، حتى ذكرياتهم تعود إلى هناك. ضجة، صراخ. لا أعرف من وقف على الصندوق. أحسبه أخاه أرخى نفسه فوقه لكن الذين حوله صاحوا جميعًا وبكى بعضهم. كان أخ مسن عاشر أباه أكثر مما عاشر شقيقه. بينهما خمس شقيقات. كبراهنٌ كأنها أمُّ له. نشأ الكبير في الفلاحة، رغم أنه من أسرة قلما تزرع. أسرة ملائمة صغار يقرأون على القبور ويحفظون الميتَ الشهادة، ويتلقون الحسنات والندور وربما قرأ بعضهم مجالس التعزية في الجوار، إذ إن القراءة في «الميدان» وقف على أسرة توارثتها. كانت له مع ذلك هيئة عقلاء الضيعة. الوجه المبسوط القليل الملامح السيئ الحلاقة، الوعر في مناطق من الخد والجمجمة الكبيرة التي تختفي تحت العقال، والجسد الكبير الذي تجعله الثياب الواسعة ذات اللون الترابي يبدو قليل الشكل كأنه ليس حاضراً. مرّ الأخ الكبير ولم يقم تجاهي بحركة كما توقعت. مرّ مسرعاً ضيقاً، كما شعرت، بالتزامات

المأتم. وربما أسرع في النهوض عن الصندوق. ظل طيلة الوقت بطيئاً في لعب الأخ الفاقد، ورغم أنني لا أغترّ بهذه المظاهر فقد بدا لي بعده جدياً. طالما حيرتني صلة عزيز بأهله وكثيراً ما شعرت أن فسوخاً غائرة قريبة من الضغينة تلابس هذه الصلة.

أعرف أن الأمر سيختلف حين يحضر ابن الأخ الأكبر بوجهه الغامق كثير العظام الذي يبدو ناشزاً في مواضع عن هيئته، فيما عُرة الشعر المرتبة المستوية في أعلاه أقرب إلى نبت غريب، وفيما يحاول بصورة يتقبلها جسده لا لونه أن يبدو تامّ اللباس.

أبناء الأخ يحسّون بقرب من عمّهم لا يشعرونه تجاه أبيهم. فهو أقرب إليهم عمراً وتعليماً ومحيطاً، لكنهم صعبو التعبير. ليسوا صامتين فقط، لكنهم لا يعبرون كثيراً والذي يحضرهم مجتمعين بعضهم مع بعض لا يخمّن بينهم علاقة. يجلسون ساعة وأكثر. يحضر الطعام دون صوت، ودون طلب. تعمر المائدة صحناً صحناً، وحين تتم ينتقلون إليها. يأكلون، ليس بسرعة لكن دون لذة كبيرة. يفتشون في الراديو، أو ينصرفون إلى تصفّح ملول في الجريدة. لا ينظرون كثيراً بعضهم إلى بعض. بل لا ينظرون إلى أي مكان، ولا يتملعلون أيضاً أو يقلّلون من استقامتهم في مقاعدهم. لا يحركون أيديهم ولا رؤوسهم بخفة. يشربون الشاي والكؤوس راكزة في أيديهم، وهي تأتي بدون طلب. تحملها ابنة الأخ التي وحدها وبوجهها قليل الزينة، وربما عديم الزينة، بالحاجبين السميكين الموصولين والشففتين

الغليظتين، تنظر إلى العمّ بخضوع هو ترجمة صامتة للولع. لا ينتبه لألفتهم إلا من يعرف مثلي أنهم يجتمعون كل يوم، وربما أكثر من مرة في اليوم، وأن الصمت الذي يزداد غالبًا في حضور العمّ هو مجرى هذه الألفة. هؤلاء يتكلمون فقط حين يستدعي أمر أن يتكلموا. لا تحتاج علاقتهم إلى كلام. يقررون أشياء بالكلام لكنهم لا يصنعونها به، كأنه ليس موجودًا بكثرة في داخلهم. في دواخلهم أصوات احتدامات، برطبات، صرير، وكزّات أسنان أكثر مما يوجد كلام. يكون كلام ابن الأخ خشنًا، إنه احتدام وبرطمة. يكون كلام العمّ تهكمًا خفيًا كأنها هو فسخ رقيق في الداخل. أما ابنة الأخ، التي تبدو بلا أمل كليًا، فتكتفي بأن تنظر من رموشها السميكة إلى العمّ وكأنها تضع نفسها عند قدميه.



الصمت أكثر من النسيان. تأتي الذكريات مُصمّمة دون الكلام، صورًا أكثر منها أخبارًا. نلتقي على درج الوزارة اللولبي. هو صاعد وأنا نازل من حيث رأيت اسمي على اللائحة معيّنًا في بلدة القبيّات، واسمه، بعد اسمي أو قبله، في البلدة نفسها. يُفترض أنني أخبرته. ويُفترض أننا نزلنا معًا. لا أذكر شيئًا مما حدث بعدها. سافرنا معًا إلى القبيّات. مشوار طويل. من بيروت إلى طرابلس ومن طرابلس إلى عكار. لا أذكر أيضًا أنه حصل. أذكر فقط صخور عكار السوداء، طبيعة من أسود وترايب، مثل

صورة فوتوغرافية غير ملوّنة، كأنني رأيت ذلك وحدي. أفترض أنه كان يضع نظّارات من وقت قريب ولم يعتدها وجهه بعدُ. أخبرني بعدها أن الطبيب أعلمه أن عينه (اليمنى أو اليسرى؟) ترى بنسبة 40% وأعطاه نظّارات قد تنفع. هذه حالي أيضًا لكنّ طبيبي لم ينصحني بنظّارات. من حينها وهو يلزم نظّارته وكأنما يحتاج إليها لوجهه أكثر مما لعينه. كان لا يزال يرتدي في الغالب البنطلون الضيّق الثنية (الراف) فقد تأخر في أن يلحق بموضة الثنية العريضة.

أجدنا الاثنين عند مدير المدرسة، وهو رجل يعطي يده حركات تناسب صوته الموزون المقطّع العبارات، كما يعطي عينيه نظرة تناسب حافة وجهه، ويعطي مشيته ما يناسب نحوه وغُرته المتباهية. كان اللباقة عينها، بعض وسامة اختير لها صوت وحركة وكلمات تجعلها مضاعفة.

استقبلنا في مكتبه، والأرجح أنني تصدّيت وحدي للكلام. فلم يكن عزيز ليبادر إليه، وكان عليّ -إلا في القليل- أن أتكلم عنا معًا.

وسامة عزيز جعلت منه شريكًا ولو لم يتكلم. ليس بحاجة إلى أن يتكلم ففي نظراته وليونة قسماته وابتسامته وهدوئه كفاية. كنت بدأت أتعب من الأثر الضعيف لكلامي. انتبهت أن المرء ليس دائمًا بكلامه. وبدائي هذا مُربك بل غير مُنصف لكنني تابعت وكأنني غير متنبه.

دخلنا إلى البيت الذي وجدناه جاهزًا لاستئجارنا. عندما جئنا مع حقائبنا في المرّة الثانية لم يهتم عزيز كثيرًا بتوزيع الغرف. غرفة النوم،

والحمام على طريق الرواق الطويل الذي يؤدي إلى المطبخ. لاحظ السريرين والخزانة، اقترب من إحدهما يتأمل الشرف ويتحسّسه، فيما لا أزال أنا مفتوناً بحجر البيت الأبيض من الخارج، أتحسّر على فقدان أي أثر له داخل الحجرة. عند خروجنا من الغرفة وجدنا بينها وبين غرفة المطبخ البعيدة ممشى طويلاً بدا طوله مستغرباً لي، فيما دخل عزيز إلى غرفة الحمام وتأكد من الحنفيات وتفحص المرحاض. تفحص في المطبخ كل شيء تقريباً: الغاز، المجلى، الصحون. لاحظ قلة الكؤوس والملاعق لكنه لم يقل شيئاً. استأجرنا بمبلغ كافٍ، لكن البيت قُدّم لنا وكأنه منحة. حين عدنا إلى غرفة النوم، أسرعت إلى السرير، وتمددت بحذائي عليه. وضعت رأسي على ظهر السرير ورفعت عينيّ، دون أن أرى شيئاً، إلى سقف الغرفة. بينما كان عزيز يُخرج ثيابه من الحقيبة ويرتبها على السرير، قبل أن ينقلها إلى الخزانة. وما إن فرغ من ذلك حتى وقف لحظة وسط الغرفة، ثم تأخّر إلى مدخلها حيث تركتُ حقبتي وسحبها لتركها دون أي كلمة أمامي. نهضتُ وأخرجتُ ما فيها وتركتها. فيما بدأ هو يخلع ثيابه، وينفض ما في جيب بنطاله من نقود معدنية على السرير. كمشها وألقاها بإهمال في جارور. وسيفعل هذا كل يوم. كما لو كان يدّخر في حصّالة. ارتدى بيجامته وجلس على كرسي. بقيت ممدّداً. انتظرت أن ينشأ بيننا حديث لكنه حافظ على جلسته. فهمت أنّ من العبث انتظار أن يبدأ الكلام. قلت من على سريرى ودون أن التفت فليس من عادتي الالتفات إلى محدثي.

- الكوريدور طويل.

التفت بوجهه لا بجسده. في الحقيقة أعطاني أجمل ما فيه: رقة وجهه، ثنية أسفل خده التي تظهر في الإصغاء وكأنها علامة فهم وتعاطف. أصغى دون أن يتبدل شيء في وجهه، كأنها يزداد سكوناً كلما ازداد إصغاء.

- الكوريدور طويل، طويل على الأوضة والمطبخ.

لم يقل كلمة. واصلت:

- طويل كأنو دهليز. مستغرب إنو مستقوف. لمن فتننا فيه قلت لوين رايح. بزغري كنا نعيش بأوضتين وقدّا من خلا مكشوف والحّمّام بآخر الخلا جنب الحاكورة. كان فيه ممشى مكشوف بس معتم. كنا نروح فيه لنوصل الحّمّام.

من زمن لم أتذكّر القرية التي غادرتها في التاسعة. نسيتهما تماماً ولم يبق منها سوى صور جامدة. حمّام آخر الخلاء، بركة، ممرات بين حوائط حجرية وصبار. حاولت تحريك الصور دون جدوى. لم أتوقف مع ذلك عن الكلام. كان صمت عزيز مضمناً. ليس في استطاعتي -على الأقل- أن أواجهه بالصمت، هذا أشبه بمحو العلامات. ظلّت حافة وجهه نحوي ووجهه يزداد ارتياحاً ونعومة من الإصغاء، وفي لحظة سريعة، ابتسامة خفيفة تشي ذقنه وآخر شفته السفلى. ابتسامة فاتنة. هكذا تجد كلامك مكافئاً.

أمضينا معًا وقتًا طويلاً للغاية. أكاد أقول كل الوقت. ففي تلك الآونة كنا لا نعمل شيئاً تقريباً، التدريس وحده ثم التجوال في المقاهي والطرق والبيوت. كنا بصورة غامضة في فترة تهيؤ طويلة، نُعدّ أنفسنا لما لا نعرفه. نُعدّ أنفسنا، وأثناء ذلك نتصرف وكأن الوقت ليس لنا، نفقه كما يبدد المرء عملة لا قيمة لها في البلد الذي سيتقل إليه. فقط الكسل إلى حد يؤلم الجسد، إلى حد التعب، وإلى حد فقدان كل ثمين في الداخل، والعيش كبضاعة رخيصة، كشيء لا ثمن له. الغريب أننا كنا نسهر كثيراً ونتجول كثيراً ونأكل ونشرب كثيراً، كما لو أننا نطيل أمد الإقامة في حياة ليست لنا، ولا ندين لها بشيء. نأكل ونشرب، وبالكاد نرى، وبالكاد نفكر أو ننفعل، فمن شأن هذه الحياة تخفيف ذلك إلى أدنى درجة، إلى درجة لا نعود فيها نتوقف لشيء. الحياة هكذا سيولة وسيولة إلى حد نكون معه غرقى فيها، محمولين على سطحها، وهي تمرّ تقريباً بلا معالم. نبتعد ونبتعد ثم لا نعود نعرف النقطة التي بدأنا منها (هل بدأنا حقاً من شيء؟).

معاً طيلة الوقت إلى حد لا يسمح بتبيين ما بيننا - موجودين في جريان إلى بعضنا البعض، يحملنا إليه الوقت والزمن. ما الذي كان بيننا، صداقة، حباً، أم تكديس زمن. كان مفترضاً أن لا يغيب عزيز عن عيني، حين يغيب أسأله حكماً فيقول: «كنت عند طعان قاسم». يقو لها مغلوباً على أمره كأنه يفضل أن لا يقول. يعتذر عن قبول دعوتي ويقول مضطراً: «معزوم عند طعان قاسم».

عرفت طَعَان قاسم من مراهقتي. لم أعرفه كثيرًا. أذكره كما يذكر الفتيان شبَّانًا كثيري الشباب: جفونًا كثَّة وعيونًا غائرة وصغيرة مروسَّة وشديدة اللمعان، تنزوي بحزمة تجاعيد في انسجام مع كثافة شاربيه وكثرة القسَمات في وجهه، الذي صُنِع من جلد صلب وعظم ومعدن. كنت أرى طَعَان قاسم كلما زرت بيت الصولي في البرندة الأرضية خلف المنزل أو غرفة الجلوس الداخلية، حيث يستريح أهل الدار، يخرج ويدخل مثلهم من هناك. ثم كانت خطبته لابتهم، وحديث عن ممانعتها وتعب أهلها في إقناعها إلى أن رضيت. حديث عن تعلُّقها بواحد من زملائها في الصف. حكَّت لي جارة عن لقاءاتهما في مدخل العمارة إلى جنب المصعد حيث شعرا بها. كان هذا الزميل نكرة بالنسبة إليّ، أما بعد أن أحبته الشقراء التي حسبنا في المدرسة دائمًا أنها لا تُنال، فقد احترت فيه. فكَّرت أن فيه جاذبًا فاتني من قبل، لعله في عينيه الخضر اوين الضيقتين اللتين شعرت بأنَّ لهما حدَّة شفرة زجاجية. أما طَعَان قاسم فنسيت أمره تقريبًا. ضاع بين الموظفين والأزواج وكلما التقيته شعرت أن كرشه وسماكة وجهه حصلًا تقريبًا في الحين الذي رفضته فيه ندى، أو تزوجته دون رضاها.

كأن في زواج امرأة من رجل لا يستحقها، أو رجل لا تريده شيئًا من الإثارة، فهذه تُمتَّهن دائمًا في فراش زوجها، ما يجعلنا لا نمتنع عن التفكير فيها وهي في المخدع تعيش تحت رغبة زوجها التي تجعلها في الوحل، وحل الاستيهام والجنس المظلم. رغبة زوجها القاصرة التي لا تملكها

ولا تكفيها، فتشترك فيها رغباتنا، أو تغدو مثلها عمياء لها ذات أهومة الغضب والفجور والزنا.

ندى الصولي شقراء. لا أعرف كلمة أفضل لوصفها. الشقرة التي تجعل صاحبها ملونة ذهبية إلى حدّ. لا أعرف إذا كانت قسماؤها جميلة، لكنّ لون وجهها ونظراتها الطرفية ونتعة عنقها من هذه الشقرة. لندى الصولي طلة أكبر من هيئتها، طلة أعلى من قامتها القصيرة وليس هذا دائماً متناسقاً، لكنه دائماً مشرق. ثم هناك فتحة الفم المضمومة كقُبلة، والنظرة الشهلاء الغضبي التي فيها من ذلك طرف دعوة. مدّة العُنق إلى أعلى وبقدر من مبالغة. في هذا شيء من السينما، من فاتن حمامة وماجدة، ومن هند رستم هذه الغنة والغنج في الصوت. نظرنا إليها في المدرسة دائماً كصورة. وهي تصرّفت كما لو أن طول نظرانا يُهينها ويجعلها ترفع وجهها أكثر إلى أعلى، أو تقفله في وجوهنا.



أدخلوني إلى الطابق السفلي حيث وجدت نساء لابسات السواد يقعدن على الكراسي، وآخريات لابسات السواد أيضاً ينغلن واقفات حولها. أجلسوني جنبها. أطلقت صيحة باتجاهي، وصيحة ثانية، وفي الثالثة كانت جاهزة لتقع على صدري. هنا هدأت تماماً بل خف نفسها كأنها ماتت برهة، لتتقلب إلى بكاء مرتجع داخلي ترتجف معه، ويصلني دوران

رجفانها في الداخل قبل أن يصل إلى الجلد، ثم أخرجت صيحتها مبحوحة غليظة كأنها من حنجرة مجروحة أو متخشبة. قضت الليل في الغالب وهي تصيح فاستحال صوتها وحشياً متفسخاً. انغمر جسدها ورأسها ويدها في حركات غير متلائمة. اليدان مرفوعتان مبسوطتان إلى أعلى، تهبطان وتعلوان. بكف مقبوضة حيناً مبسوفة حيناً، في إيهاءات توشك أن تتوقع (من الإيقاع) ولا تتوقع. الرأس يروح في لفات عنيفة وصعود ونزول سريعين. الجسد يميل بكليته ويرتد بسرعة. حركات غير متناسبة كأنها من رقصات مختلفة. بل هي في عنفها وسرعتها توتير صعب وإرادي للجسد. هكذا بدت ندى هذا الصباح أرملة فاقدة. ارتدت السواد عندما علمت بالخبر، وبدت في ثياب الأرملة، ورقصة الأرملة كأنها مسكونة بهذا الدور من الأول. لم تبال بكونها متزوجة وأنها تترمل من غير رجلها، أعلنت ذلك على رؤوس الناس.

جلست جنبها. كان عليّ أن أجاب ولم أستطع طيلة الطريق. بقيت ساهماً بين الاثنين اللذين أحضراني، خالي الرأي من أي شيء تقريباً. العلم بوفاة عزيز ظل مجرد خبر. سعت إرادياً لتلقين نفسي معنى ما جرى، واحتاج هذا لإرادة كبيرة ومعاندة. أحسست في داخلي بسلام فظيع إلى حد التخشب. كأنها وفاة إنسان بل وصديق، حقيقة غريبة عن النفس. غريبة تماماً. إنها كلمة لا عمق لها أكثر من رسمها وصوتها. كنت في حالة من اختفاء الذات هناك. فقط العياء الذي يمنعني من متابعة المعاني.

ندى جنبي. كلما اندفعت في تشنجهما ونواحها شعرت أن ذلك غير حقيقي، ولا يناسب أي صورة أعرفها لها. نوع من فقدان أي صورة، محاكاة شيء غير إنساني. شيء يتعدى الإنسان. شيء يرتد إلى لغة أولى: العواء الحيواني والتقلص الجسدي. يفترض تقليص الجسد ليكون بؤرة للإحساس، ليكون وترًا للألم. كنت أرى هياجها ولا أستطيع أن أجاريها. حاولت أن أخرج صوتًا، فخرج جافًا. حاولت أن أحرك جسدي لكنني وصلت لحركات منفصلة. أخجلني سلامي الداخلي. أحسست أن دور الحبيبة يفترض في مقابله دور الصديق ولم أكن معدًا له. وجدت أسهل أن أحتضنها، أمسك بيدها، أتلقي انتفاض جسدها، أحيط كتفيها، أمسد شعرها، أريجه على كتفي. أنا أفضل في دور المعزي، وأعرف أن اخترع فيه.

الطريق مألوفة لكنها لا تعود كذلك. حبل سيارات يتوقف كل بضع دقائق ليُعاد رصّه وميكروفون في المقدمة يصبّ كلامًا في المدى، لكن نبراته لا تبدو مضخمة هذارة إلا في آذان الجالسين في السيارات. أشعر بالصوت القوي دون أن أسمع. التقط نُتف عبارات (أمينًا للشعب، أيديهم الملوثة، البسطاء). أكثر ما التقط أخطاء القراءة وأخطاء النحو. الأرجح أنني لا أسمع سواها. على كل حال ليس المأتم سوى حفل نشاز. الحركات والأصوات ومجالس العزاء والقبضات والأيدي المرفوعة والرقص المستيري، كل هذا ضائع بين التهديد والانتصار والانسحاق.

ارتجال عنيف يتم غالباً بعُسر، بحركات غير ليّنة وكأنها تُنتزع من الجسد انتزاعاً، كأنها ضد طبيعته وفوق قدرته. حفل نشاز وأنا أسمع الأخطاء النحوية وحدها وهي تحطّم الكلام. جالساً في مقعدي الخلفي بين اثنين: رجل نحيل وامرأة ممتلئة، مندساً في خاصرة المرأة وتحت إبط الرجل. كانا يقظين لأقل حركة مني ليسارعا إلى التخفيف عني، لكن شعوري بحصارهما الجسدي قوي، لدرجة أنني لم أعد أحس بشيء آخر.

توقفت السيارات أمام «مركز الطوارئ». طلعة زُرعت في مواقع منها دُشم بيضاء متقابلة التفتّ بينها طريق ضيقة ملتوية، تؤدي إلى ساحة نظيفة في أعلاها منزل أبيض من طراز غير مألوف. خرج جنود الطوارئ. وقفوا بشورتاتهم يشرفون على الموابك، فيما تفرّق آخرون حول الدشم في وضع شبه نظامي. كان هذا سينمائياً إلى حدّ. راحت السيارات تنفذ من بين الدشم وتسرّب إلى الشارع، إلى أن انتبهت أننا بتنا على ظهر الهضبة، وانفتح الشارع وسيعاً أمامنا، أغبر واطئاً عن حوائط قصيرة وبيوت متقرّمة، تطل من سياجات حجرية، معطية جنبها للطريق أو مشيخة عنها. الأبنية ممصوفة تالفة كأن فيها شيئاً من الهشيم والشوك المهوشلين في البلدة، أما الشارع الذي صبغ حاشيته تراب أصفر فهو أيضاً ناشف كطريق صحراوي. لا أحب هذه القرية، لا دروبها الملائى بالعقد التي لم تنعمها الأقدام ولا الأظلاف والحوافر التي لم تترك فيها أثراً للزراع أو حصاد. دروب مستقيمة مسدودة خانقة كالأنابيب. حيطان مشققة كأنها أسمال. بيوت ملطخة بالإسمنت. قبور متروكة دون حرمة في الحقول. الأشجار، حتى الأشجار

القليلة وراء البيوت، وسخة وبابسة. لا أحب هذه القرية التي ليس بعدها شيء، فهي جرد مفاجئ بعد البساتين وكأنها منبوذة. من الواضح أن كل شيء هنا صُنع بصعوبة وبقسوة كبيرة. حتى أن قدرًا من الحجر بقي في لهجات الناس ووجوههم.

صَمَتَ البوق وزحفت السيارات دون صوت في عرض الشارع. لم يوافنا أحد إلى براح القرية كما هي العادة. لم نصادف أحدًا على الطريق، بل لم يظهر مخلوق على شرفة أو وراء سياج. اختفوا جميعًا في بيوتهم. لم نجد أمانًا سوى البيوت والحيطان المكشّرة في وجوهنا، وليس في وسع الكتل الجلمدة المقشورة أن تقول عداء أكثر. «قتلوه» قال صاحبي ونحن ننعطف إلى طلعة ترابية، صعدت بنا إلى بسطة من الأرض غير مزروعة. هشيم وبيتان أو ثلاثة متباعدة، وأمام الكل هذا البيت الذي لم تنسّد الحيطان بين أعمدة طابقه السفلي، لم يتسع الوقت لإقامتها كما لم يتسع لرصف السقف المخروطي بالقرميد. وجدنا هنا عددًا من ذويه ينتظروننا. علا صياح مشوش ثم امتد فجأة وانفجر متقطعًا كأنه محصور. لم أميّز الموجودين. انفرط الصف قبل أن نصل. أما ندى فاندفعت إلى أخته الكبرى وتلاشت بين يديها. وقف الأخ في عباته وشملتته، ظلّت ابنة الأخت تنظر من بعيد بعينين أكلتا وجهها. تلاشت ندى ثانية بصيحة عالية. حين خطوت إلى البيت قبلتني الأخت على كتفي وبكت دون صوت. انتشرنا حول البيت وحلّت عمة رمادية ثم أخذت الأشياء تُظلم من حولنا، وبقي وسط السماء مسكونًا بنور غير معلن. رقدتُ وحدي على بطني أنظر أمامي خلل الظلمة، وأسمع من

حولي يتحدثون عن تهديد وإنذارات أكدتها طلقة ضائعة في الليل. بدا الجمع ضئيلاً أمام الخطر. كنت لا أزال إلى هذه اللحظة أحسّ في داخلي ثقلاً ويابساً وأكاد أصطدم بمواضع متكلسة مرضوضة. أما وقد انفردت فقد بدأت أول الأمر أتنفس. كنت كالحارج من زحام شديد. استرخيت في الظلمة أحاول إرادياً أن ألين داخلي. كان هذا أشبه بتدليك، بدأت خلاله أفكر. سعت إلى أن أجمع صورة عزيز فلم أستطع. لم أنزعج فقد كان هذا حالي كلما فقدت أحداً، أرتاب في كل ما يخصه: هيئته، صفاته، صلتني به. أفقد آثاره كأنني أحمو عمداً الأدلة. لم أستطع أن أستدعي عزيز إليّ. فكّرت في أخته، في ابنة أخته، في ندى. كان افتقادهنّ الأكيد إيّاه يتسرّب إلى داخلي. هكذا بدأ حزني. جاءني في لحظة دمع حقيقية كدت معها أغفو. لقد جاء على كل حال كالحلم.

أحمد السيّد وحده يتكلم، يرطّن عاميّة مكسّرة بفصحى من عنده، يُشقلب الألفاظ ويجرّش الضحك في فمه. وحده يملأ السهرة. عزيز وأنا صامتان تقريباً. صمته معتاد أما أنا فلا يطيعني الكلام في العادة حين أطلبه. عندما أتعمّد أن أكون مسلّياً أنجح ولا أنجح. أشبه بهؤلاء الذين يصلون إلى بُعد شعرة عن الهدف لكنهم لا يصييون، ولا ينتبه سواي أنها ليست إخفاقات كاملة. كنت أقول هذه طبيعتي، طبيعة الأعر، شيء ما يُفسد مهارتي. كسر حسابي صغير يطيح بها. ندى صامته لكنها هكذا في

محلّها. عندما بدأ أحمد السيّد يرنح على طريقته موشّحاً، انطلق فجأة منها صوت «بلاش تبوسني في عينيّ، دي البوسة في العين تفرّق» وسكتت. صوت جميل محبوس أطاعها مرّة، وافاها مرّة واختفى. لم تستطع أن تكمل رغم إلحاحنا. صاح أحمد السيّد «الله الله» وكذلك فعلت أنا، لكنها، سعيدة برغبتنا، طلبت صوتها فلم تجده. انجرح ونشز فلم تكمل. قلت في نفسي إنها تقريباً عثراء مثلي.

لم تجلس ندى إلا أخيراً. في البدء أكثرت من الرواح إلى المطبخ. حضرت أمامنا مراراً. كانت في عباءة منزلية تصل إلى ما فوق ربله الساق. عباءة منزلية، لكنّ ندى تملك دائماً ما يميّز أشياءها: خطّاً الأحمر البطيخي على جانبيها، فتحة الصدر التي تنتهي بشقّ مثلث، هدلة القماش على الصدر التي مرّت بطبعتين خفيفتين فوق الحلماتين. وكانت هناك أيضاً الشقرة. شقرة الشعر وغير الشعر. الشقرة التي تجعل وجودها كلّ فاتحاً عسلياً مشمساً، خصلات مهملة، شعر امرأة مشغولة ستدخل به إلى المطبخ، لكنه يوحي بأنه جُمع من على الوسادة، وبقي فيه شيء من النوم، ارتفع قليلاً ورُبط على عجل، وبقيت منه أهلة محمومة فوق الجبين والعنق: تعرف ندى أن تكون مشغولة كملكة، أن تجعل قدرًا من المشاقة وربما الجلال لحركات المضيفه وربّة البيت. ربّما صنعت ذلك وتخيّلته من قبل بالدقة التي تتخيّل بها قطعة القماش ثوباً مفصّلاً عليها.

لم أنتبه لغياب طعان قاسم، ولم أعرف حتى هذه اللحظة أنه سافر للعمل

في الكويت. حين انفتح الباب رأيت ندى واقفة بعباءتها أطول مما هي في العادة. مدّت يدًا طريّة وتمتمت بلهجة من لا ينعجق بأحد «أهلاً وسهلاً». وجدتُ الغرفة معدّة لسهرة أليفة. طرّاحات على الأرض، وسائد وطاولة قصيرة القوائم، والكنبات أبعدت إلى الخلف كما يحصل حين تعدّ الغرفة لتكون مرقصًا. وجدتُ عزيز هناك مستريحًا في جلسته. وربما جلس هكذا لكي لا يظهر بوضوح أنه المضيف.

لا تزال ندى تروح وتجيء جنب عزيز دون أن تلتفت إليه. ترفع صحنًا بيد واحدة تلوّح بها أعلى من كتفها، وتضعه بحركة شبه راقصة على الطاولة. تنتقل عائدة إلى المطبخ، وبهزّة سريعة من ثوبها ووسطها، تنظر إليّ وإلى أحمد السيد بضم مضموم.



طال سهرنا حول الدار. بدأ الناس يتفرّقون ومات الشيوخ تقريبًا. كنت أتشرب العتمة ونعومة الليل ببطء ممّا رطبّ نفسي. ثمّة قطع يقظة وصعبة في ذاتي بدأت تغرق تحت التعب والنداوة. تلك أخريات الليل، حيث تتمّ تحلية العتمة كأنها خُفّفت بالماء. غدا الليل ضحلًا، بل غدا إلى حدّ ما ضوءًا. خفّت الظلمة إلى حدّ النسيم، بل غدا في كل شيء قدر من النسيم. عمّ الجريان والتراسل والإصغاء والتنفس. كان النعاس يبدأ من أطراف، يخفّ نبضي وتتسرّب قوّتي فيما عيناوي وحدهما صاحيتان

كنورين. نُقلت بعد ذلك، لا أعرف كيف، إلى فراش استيقظت فيه عند الفجر، لا أُميّز جهتي ولا مكاني. الشجرة المرئية من الشباك انكشفت أكثر، أضواءت وحدها ورهجت بلمعان زهري. كان الفجر تقريباً هذه الشجرة وليس غير ذلك سوى الزلال الرخو الفاتر الذي تسبح فيه. نمت حجرًا واستيقظت كحجر، صعبًا وقاسيًا كأنما نزت كل شيء: الصداقة والنفس والإصغاء. بقيت في هذه المادة الثقيلة الكثيفة، هذا الشيء - الحزن الذي هو في الأكثر ثقل قلب وانسداد نفس، وربما بلا رغبة، سوى نزوع إلى الارتطام أو التصدّع، وربما الدمار الذاتي.

انتظرنا وقتًا طويلًا تحت الشجيرات والنهار يعتكر قليلًا قليلًا. التوتّر ينتعش ببطء ممل يبدأ برؤوس صيحات تنطلق وتختنق هنا وهناك، ومعها يتململ الشعور بالضيق وانعدام الجدوى والوقوف العمودي في الشمس. تنعقد هنا وهناك عُرى عُزلة، ثم يتصلّب الجو ويغدو شيئًا فشيئًا مسطحًا ومشدودًا من التشنّج. تتكاثر النساء حول النعش. يدخلن بملاءات سوداء كبيرة. تُستحضر أكوام من أغصان الريحان والأزهار. أمّا الرجال فيقفون دون انفعال في الخارج بجذوع مائلة إلى الالتواء وعيون غائبة. وكلّما ارتفع النهار توافد عدد أكبر من النسوة اللابسات جونلات سوداء ضيّقة وسترات مشدودة آتيات من طوران المدينة ومعهنّ رجال في ثياب مفصّلة، وصبايا وشبان صغار بالجينز. امتلأ المكان بهدوء وعلت فجأة ولولة وولولتان عظيمتان. لقد رُفِع النعش. نزلنا وراءه إلى المنحدر. كان علينا كالعادة أن نطوف بالنعش حول القرية، قبل أن نعيده لدفنه (حسب

طلب غريب من ندى) وسط داره غير المكتملة. تجمّعنا في أسفل الطلعة
وسرنا عرضاً مبعثرين إلى الطريق العام. كنت أسير، معي خطيبتى وأمامي
تقريباً قرية ندى محاسن وشبان من طوران. أهل عزيز الأقربون يجرون
معه صبيّتهم، وأحدهم يحمل طفلاً بين ذراعيه، يسرون في الناحية
القرية من السفح. الرجال بياقاتهم المجدّدة المزوّرة عند العنق، النساء
بأغطيتهنّ المطوية مرتين على الرؤوس، الفتيات بقمصانهنّ ذات الأزهار
الكبيرة. وحدهم حضروا من البلدة. غاب حتى الشيوخ والنسوة الذين
لا يتخلفون عن ماتم. هذا أمر لم يحدث من قبل. لم يحصل أن غاب أحد
عن جنازة خصمه، أو قوطعت جنازة، حتى وإن كان صاحبها مدمناً أو
لصاً.

نزلنا متثاقلين إلى الطريق، وعبرنا بجهد الحدين الطلعة والشارع، ومن
وصل وقف ينتظر أن يلتّم الجمع. مرقت أصوات سريعة ثابتة. ارتميت
في موضعي. ولما انتهت وجدت خطيبتى على بعد أمتار مني. الجميع على
الأرض تقريباً. رشق آخر لنبقى حيث نحن.

ظلّوا راقيدين في الهشيم على مسافات متقاربة والرؤوس في الأرض
ولا يرى سوى ألواح الظهور وخسفة الأكتاف. كانوا متعلّقين بالحفر
والصخور منشورين، من أوساط الهضبة نزولاً إلى سفحها، في شبه ترتيب.
بدوا سطوراً على الهضبة، وما إن أنظر إلى أحدهم حتى يتملّل كتفاه
وينهض رأسه، ويستوي كلّ واقفاً في لحظة واحدة، ثم يعجل راکضاً في

أي اتجاه، ودائمًا صوب البيوت القريبة.

اختفوا بين البيوت القريبة وصاروا ينغلون أمامها وداخلها. جمهرة قلقة دائمة الحركة مشرورة من المداخل إلى السطوحات تتجمع وتفرط بلا انقطاع.

يتنقلون بعصبية ولكن دون هياج جسدي أو كلامي، ودائمًا يتطلعون إلى التلّة. يفحصون بأعينهم تفاصيلها كأنهم يريدون أن يعيّنوا أمكنتهم وهيئاتهم عند الحادثة. أن يروا الآن ما لم ينتبهوا له في حينه، تعايرهم لدى سماع الرصاص، ردودهم الأولى، سقطاتهم على الأرض. يمعنون النظر كأنهم يرون ذلك مجددًا بالتصوير البطيء، يرون أنفسهم في الناحية الثانية ويعيدون المشهد مرات كما يعيدون شريطًا. لا احتجاج ولا صراخ كأن هناك من لعبوا معهم، ولا يزالون يسقطون وينهضون واللعب مستمر. فهؤلاء الخفيّون الذين يحيطونهم في الغالب ويملكون كل لحظة أن يزرعوا الأرض رصاصًا يعاملونهم كلعب.

لم أكن أفكر. كنت خفيًا وفارغًا تقريبًا. أنظر إلى الخلاء بعدم الفهم هذا، كأنني أبحث عما يعيدني إلى معلّم مفقود، ورأسي يردّد أوتوماتيكياً حركة السقوط والنهوض. لم أبحث عن ندى ولا عن أحد. لكنني، وأنا في تنقلي العقيم بين المدخل والسطوح، وجدتها واقفة متخشة تنظر بوجه يابس إلى التلّة. نظرت إلى حيث تعلّق وجهها. كان الخلاء، وفجأة وسطه، كما لو نبت هذه اللحظة، النعش مهجورًا ومتروكًا على الأرض. ما عاد

ممكنًا ردّ اعتباره. صار الاستخفاف والتجاهل الجريح أليق به. مشينا بدون احتفال فقد بات المأتم إجرائيًا إلى حدّ بعيد. لا أذكر ماذا حصل عند الدفن، تخلصنا سريعًا من النعش، لحدناه وسط الدار وعدنا.

تمّ هذا بقدر من الصمت. لم يكن للرصاص نفسه ضجة. بعد سقوطنا ونهوضنا شعرنا أننا نتحرك ونتكلم بلا صوت تقريبًا. نتصرّف بأليّة. نتأمل قلّة حركاتنا وبساطتها ونتفرج على أنفسنا ونسمع باستغراب أصواتنا.

اختفت الحادثة بقوة كما حصلت بقوة، شعرنا بأن السكون المديد الذي يشمل القرية يزداد، بل يغدو حديدًا. لم يقصدنا أحد للسؤال. لم يغادر أحد عتبة البيت. اختفت القرية أو خلت تقريبًا كأنها لم تشعر ولم تسمع. ما كان ممكنًا ضبط القرية هكذا لولا أن الذين قاموا بالجريمة جرّوا الجميع وراءهم فيها.

نهش رصاص ذراع محاسن قريبة ندى وقتل طفلًا على ذراع أبيه، ابن عم عزيز. زرته في المستشفى الحكومي فوجدته في نهاية المناطة الواسعة ممددًا بالبنطلون البني الغامق الذي أقدر أنه أصيب به. تكلم بهدوء وأكد أقول برضا.

- لحق ابن عمو. اشي كان يبيّن، كان يضحكلو ويزقفلو. سبحان الله شو كان يحبو، يللا لحقو.

يتكلم دون حسرة وكأن مقتل الابن هو الدليل الذي ينقصه.

- ما في شي بيروح. لسبّد نتقابل بيوم.

كان نحيلاً في السرير وصغيراً ومليئاً بالضهادات ويتكلم بلا تهديد.

- الأيام جايي.

يقولها وكأنه يقرر أمراً لا شك فيه، أمراً لا يقاس بالأيام. فهو موجود تقريباً في دمه. مقتل الابن الصغير صحّح أمراً، فعزیز الذي قتله أبناء عمّه أعيد الآن إلى دمه. كان مقتل الابن الصغير توقيعاً بالدم.

كان مقتل عزيز شبه معلن، بعد مقتل حسن وحسين في الثانوية منذ ستة أشهر.

لدى وصول خبرهما قال قائد التنظيم: «هالمرّة بكبيرن». لم يكن عزيز كبيرهم لكنه كبير في ضيعته وهذا أهمّ. مدير ثانوية محسود معتبر. لذا سمّوه وبدأوا يطوّقونه بأخبار شبه يومية، لا تقال همساً بل علناً وبتبجّج دون أن تجد من يصدّها. يقولون إن عزيز دعا الفلسطينيين إلى توجيه مدافعهم إلى القرى: «عمرن ما يعيشو شعب طرش»، بل وصف أهل قريته بأنهم «خنازير بدن دعس». كل صباح يحمل جديداً عن عزيز. إنه رئيس الجهاز السري للمجلس الوطني. مسؤول في الحزب الشيوعي أو منظمة العمل الشيوعي، لا فرق. وأخيراً ضيقوا الدائرة عليه. كان يوم

مقتل الاثنين في الثانوية: «شافوه في الإدارة سيارتو كانت برّا». وإذا صحَّ ذلك كان بدون شك من الذين أمروا بإطلاق النار، بل من الذين نقلوا السلاح إلى الثانوية. قِصَّة غير محكمة. لكن لا يمكن الإفلات منها. لم يصدِّقها أحد في البدء، ولم يرَ أحد حاجة إلى تكذيبها، وبقيت هكذا ثياب قِصَّة تنتظر اليوم الذي تجد فيه من ينزلها عن المشجب.

كلّ هذا تحوّل في الأسابيع الأخيرة إلى ما يشبه النفير. غدت روّحات عزيز وغدواته إلى القرية أمرًا لا يحتمل. إقامته وزياراته، ناهيك عن إدارته للثانوية، اعتُبرت جميعها تحدّيًا. كان محكومًا بوضوح، وكل خطوة من خطواته جرم حقيقي. ثم طُوّيت القِصَّة السياسية، كما أُحضرت. نُشرت فقط كشبكة لتصطاد وقد اصطادت. ضيّعت صورة عزيز، جعلتها فجأة مجهولة. كانت سهامًا تقترب منه وتكاد تطوّقه، وهو ينكشف أكثر لها. كانت الأخبار تطارده إلى أن يمكن حصره في مكان. لم يصدّق الكثيرون هذه القصص. لم يجدوا حاجة إلى تكذيبها، لكونها ببساطة عصيّة على التصديق، لكنها جعلت من عزيز شيئًا مثلها عصيًا على التصديق أيضًا. أصابت كل مرة واحدًا من معالم وجوده وحقيقته، وفي النهاية بات بلا معالم، وكأنه لم يوجد هنا من قبل. لم تعد له حقيقة في القرية. أصدقاؤه أيضًا لم يكذبوها. وجدوها صحيحة أكثر مما يتمنّون. بهرّتهم فكرة التآمر السري والاعتقال أكثر مما أخافتهم فباتوا يردّدون بينهم وبين أنفسهم: «شعب طرش، خنازير».

بعد تلك السهام الخاطئة التي حصرت الفريسة، بات ممكناً رميها بسهم صائب. هكذا بدأ اللغظ حول صلته بندى. لم تكن هذه الصلة مجهولة من أهل الميدان، فندى دائماً في القرية، بأثوابها التي ترتديها، والتي لا ترسم سحبة الجسد وتكويناته فحسب بل ترفعه أيضاً، ونظاراتها التي تتلأأ على وجهها وتجعله بمعنى ما أجنبياً نائياً. نتعة عنقها والطريقة التي ترمي بها شعرها خلف جبينها. شقرتها ومشيتها التي تشيل قامتها إلى الأعلى وترفعها بطولها كله دون انكسار. كانت تمشي في قلبها، بقامتها المنصوبة أكثر من طولها. وكأنها موجودة باستمرار في مرآتها. شيء من سيّدة مجتمع وسائحة، منفردة بذلك لا عن نساء الضيعة فحسب بل وعن بيوتها وأشجارها. وجدت لثرى وثرى حركاتها، وما كانت تحسن أن تخفي أو تستعير سلوكاً يخفيها، إذ لا تستطيع أن تكون إلا هي في مشيتها وثيابها وتسريحتها ونظاراتها. لم ترد أن تلعب لعبة اللامبالية تجاه عزيز، ولا أن تتخلّى عن شيء من اكسسوارها. هي المهتمة بأن تكون الفريدة لا تستطيع أن تتسرّر، كما لا تستطيع ملكة أن تلعب دور واحدة من جواربها. مولعة بأن تعلن دائماً بطاقتها. أن تلعب نفسها التي رَسَمَتْ أدق تفاصيلها. رسمت دورها كاملاً لذا يصعب عليها أن تكون إلا في العلن. قد تنزع بزوجة أخي عزيز لتزوره، لكنها تنصرف في حضور أي كان كالمكة لحياته، ولا تبالي بأن تثور أمام الجميع.

- ليش تطلّعت فيها هيك. مفكّر إنو ما حدا منتبه. على كل حال هي من توبك. بدك واحدة مثله.

تتصرّف دائماً كمهتمة، وتُلزم عزيز بأن يلعب اللامبالي، أن يتجنّب تكليمها أو الجلوس قربها أو البقاء عندها بعد خروج الزوّار. لم تكن صِلتهما سرّاً. نشأ حولهما لغط علا إلى أن بلغ حدّه، ثم سافر طعان قاسم فقلّ احتياطهما وتلازما تلازم الزوجين تقريباً. حين باشر عزيز البناء كانت تكلم بنفسها النجار والحديد والبناء والحجار وترسم لكل منهم، إذ كان لكلّ من الحجر وحديد السياج وأباجور النافذة شكله عندها، وهي التي صمّمت كل شيء. كانا يتصرّفان كزوجين، فبدت الغيبة عديمة المخيلة، ولم تعد مادّتها خفيفة سيّارة تدفعها أي نسمة، بل باتت كثيفة راكدة، وربما صلبة. لقد انتقلت إلى محلّ أعمق هو المحلّ نفسه الذي للحقائق الثقيلة التي لا يحسن إقلاقها. في منطقة لم تحصل فيها جريمة شرف منذ أجيال لا يمكن ترك هذه الأخبار حرّة طليقة، بل يجب حبسها والإغلاق عليها وتحاشيها في أسوأ تقدير. إنها تقود إلى إرباك أخلاقي وتذكّر بعجز الناس والتقاليد والحيرة التي يفضّلون نسيانها، وهي على كل حال مصدر قلق لا يحسن تركه معلناً.

حرّك تنظيم «الإصلاح» هذه القصّة التي باتت بعد زوال الحرج والحيرة عادة أو كالعادة السيئة. حرّك حجراً ثقيلاً يتجنّب الجميع إقلاقه. بدأ التذكير بالحساب. كان هذا مفحماً وليس مقنعاً. فالحساب الفائق ثقيل على الجميع. هكذا أجاب الحاج محمد الأستاذ مصطفى الذي أخذ يحرّضه.

- صفّي النية يا ابني . الله أدري فينا كلنا . اتركها للمولى .

- هذا مُنكر يا حاج . فساد في الأرض . ما فينا نشوف ونغصّ النظر .

- يا ابني هذه آخر الأيام . شو بدّك تشيل وتقيم . حبل ما إلو آخر . اتركها للمولى .

- هذا مش حكي مؤمنين . ترنّختو وارنّخت قلوبكم . سايقينها على عماها .

الحاج محمد ضيّل نحيل . جعلته شقرته التي بلون القش ، وقد خالطها شيب باهت ، يبدو بلون خشب الدكان وقشرة الجدار . وطالما داهمه ، كما هو الحال الآن ، شعور بارد . والأستاذ الذي لم يعد يرى يزداد استرسالاً .

- المؤمن يا حاج ما بيكذب عينيه ويترك بناته ع خاطرن

شعر كعاداته بالحشرة ، بدأ يقلب عينيه دون إرادته . كانتا عينين زرقاوين متباعدين للغاية وعلى شيء من العوج وكأنهما حولان . الحساب ثقيل شيئاً ما عليه . توقف عن السعي وراء ابنته الكبرى ، وتفوته عن قصد إخبار ابنته الصغرى التي تعمل ممرضة في مستشفى الجنوب في طوران ، لكنه يشعر دون علم أنها محرّجة . الإهمال السعيد دأب الجميع . خرج الأبناء دون شقاق كبير لكنهم خرجوا ، وما حدث بسهولة كأنه لعب ، بات واقعاً لا يعرف أحد كيف يمكن تبديله . لم يرض عن ذلك . لكن أراحه أنه وقع بلا ثمن ، ولم يضطره للعنف أو العدا . كان شيطانياً أن

يقف الأستاذ بلحيته الخفيفة ليذكره بحساب فاتة برغبته. ليخرج ثانية أبوته المجروحة أساسًا. شعر فجأة بملل، فقال بلهجة أفلت منها حدة بدون قصد.

- يا ابني أنا مش قد الحمل شوفو شغلکم

لم يكن المختار قابل الأستاذ مصطفى منذ كلمه الأستاذ بخفة في الساحة وقال له

- عشت عمرک يا أبو کاید، بيکفي، ارتاح، الضيعة بتدبر حالًا.

من يومها والمختار يقضي أكثر وقته في طوران. كان شعره المفروق من الوسط يلائم وجهًا أكثر بسطة ثم جعلته الأيام مزموماً كثير الأحافير، كما كان قميصه المدلوع الياقه يلائم كتفين عريضتين تهدلتا فجأة، فبدا حتى حزامه أكثر من جسده. تكلم الأستاذ عن الحساب باختصار وكأنه يعطي أمراً. المختار بالطبع أقل ترحيباً بالحساب فالجميع هنا يحسبون له تعاونه مع الفلسطينيين وبعضهم يحسب له تحرشه بالمحصات وامرأة فضحها من عشرين عاماً. كانت ابنة عمه تزوجها مضطراً وطلقها بعد أشهر. لم يفكر المختار قال بسرعة.

- اعملوا المناسب. اعتبروني معكم.

لم يكن الشيخ محمد أنهى صلاته حين دخل الأستاذ. سبق الأستاذ الشيخ إلى الصلاة وأداها في موعدها، ولم يكن في هذا حرج، فالناس

حتى الشيخ يتأخرون ما دام للصلاة وقتها، إلا أن الشبان أكثر حرجاً. لذا دخل الشيخ وفي وجهه اعتذار.

كانت ذقنه طويلة ناعمة ووجهه لطيفاً طفولياً، خاصة إذا ابتسم. لم ينفع الصوت العريض في تخفيف الإحساس بأنه غارق في لحيته، كما هو لقصره غارق في ثوبه. كانت لحيته حريرية ووجهه أملس بلا غضون مما جعله قريباً من لعبة. أصغى الشيخ بهدوء ثم بهدوء.

- فيه بيّنه، عندك بيّنه، هذا دين ما بيقيم بالكيل والقال.

- بدك دليل أكثر من إنو انشافوا وحدثن ميت مرة، هيدي مرا لا بتمشي متلنا ولا بتلبس متلنا. بتجي ع آخر طرز وبتدور على مراقها، ما بتحترم حدا. هذي مفسده يا مولانا. مبارح بنت أبو قاسم ردت المحبس لابن علي محسن بعد ما شرقو وغربو سنه ونص. قولك ه الشي كان يصير من قبل.

أصغى الشيخ بدون حس

- رجال بيقول عن المشايخ خفافس، وبقول عن المصلين راحو يطوبزو. شيوعي يا شيخنا شيوعي.

أصغى الشيخ بهذا الوجه الجبسي وأعطى لمحدثه لحيته الحريرية أكثر مما منحه عينيه. لم يكن بينهما ود. الأستاذ لا يعجبه دين الشيخ اللين، دين تعزية وجبر خواطر، ومنذ بدأ يخطب مع الشيخ في كل مناسبة كسفه تماماً.

- يا أستاذ هذا دين فيه حدود وإذا نسيناها بنضيع. بيفلت الحبل على غاربه. عندك عشرين شيوعي بالضبعة. ابن أختك واحد ممن. شو بنعمل فيهن، إذ زعبناهن منكون خلّصنا الإسلام؟ شو صفتنا نحن لنحكم عليهن. ربك تواب رحيم، وعزيز ييجي يوم بيرجع لربو. وسع قلبك.

- بدنا نضل نبعد عن الشر ونغنيه يا شيخنا. إذا الشر قدامي بحط أصابعي العشرة بعينه. الدين مش حرقه وجبر خواطر. الدين كمان حساب. إذا أيدي غلطت بقطعها من العرق. قضيتها مسايه يا مولانا ما عاد فينا نساير.

- أنا يا صاحبي بساير وبحاسن. الشر بعيد من هون. هولي مسلمين متلنا واجبنا نردن بالكلمة والموعظة. عزيز يا أستاذ يبطل عليي. شاب مربى ومتعلم وحيطو واطي أكثر من غيره. عندك بينه جيها. ما بيتحاسب عد الحكي والنميمة.

خرج الأستاذ دفعة واحدة والشيخ ينهي عبارته، وسار عجولا والشيخ يستدير للحاق به، وما أن عاد إلى طراحته والتفت إلى الشاي الذي لا يزال على الأريكة غير ممسوس تقريباً، حتى بدأ يصب شاردًا. كانت هذه المرات القليلة التي يحس فيها بغضب ثقيل قابض. شيء متحجر في الصدر وشيء آخر أكثر لوعة وإهامًا. ربما كان خوفًا.

هذا كله لم يصل إلى عزيز. لم يكن خبر هذه اللقاءات خافياً، واشتغلت به القرية كلها، لكن عزيز وأصحابه فقدوا الحس من زمن بما يحصل في البلدة. لا لأنهم يلتصون بعضهم على بعض دائماً، بل لأنهم ما عادوا يشتمون ويحسون ما يجري. أول من شعر بذلك هو ابن أخت الأستاذ، سمع حديثاً بين أمه وشقيقته نقله معدلاً إلى عزيز. بعد ذلك أبلغ عزيز صهره بأنهم ينوون له شيئاً، قال له أصحابه إن الضيعة في سيرته. لكن أحداً لم يصدق أن الرسالة رسالة إعدام. ربما لأن الضيعة المنقطعة عن آخر الخط لا تقدر على معاداة الساحل. خافوا بالتأكيد لكن أناس ذلك الوقت كانوا يدارون خوفهم الفطيع بتركه للأيام. يظنون أنه يتحكم فيهم إذا فكروا فيه طويلاً، والأفضل تركه وحيداً ليختفي من حاله. خاف عزيز بعد مقتل حسن وحسين وهجر الضيعة. لكنه عاد بعد 5 أيام وأمضى ساعة في بيته وترك مجدداً. عاد في اليوم التالي وقضى سحابة النهار ثم لما تجرأ على مبيت ليلة في بيته، رجع نهائياً. لآعب الخطر إلى أن شعر أنه غلبه بل بدأ يتصرف كالعالمين. لزع تنظيم «الإصلاح» علناً ولم يتورع عن الاستخفاف بجماعته: «خفافس.. أرانب ما بيطلع ممن شي». كان في حاجة إلى هذا الشعور.

لم يعتد عزيز المواجهة، ففي طفولته لم يكن يطيق الاشتباك الجسدي بل حتى القرب الجسدي ويتحاشى الشجار بهذه الكبرياء التي تجنبه المواجهة. كان غالباً ما يضع حداً لخصمه بالنظرة والابتعاد، وإذا ألح عليه الخصم

جمع نفسه في كلمة واحدة يريد منها أن تكون قاضية: «خنزير». وإذا حاصره ولد بالضرب لا يتحرك لكنه يبصق في وجهه ويفلت منه. كانت عباراته وألفاظه مبرّية مروّسة كأنها مصنوعة فقط لتجرح أو تقتل. إذا كره إنساناً قتله في نفسه، ولا يتكلم عنه إلا كمسخ أو بهيمة: «معاق، دابة». لا يكره أشخاصاً آذوه فقط لكن بالدرجة نفسها يكره أشخاصاً لم يكلمهم أبداً. كانت الضغينة دائماً جاهزة بديلاً من الإعدام. حين توفي والد أحدهم، حاجّ سبعيني متعصّب لابنه وللتنظيم قال أمام جمع: «نفق». كذلك امتنع عن حضور أعراسهم ومآتمهم وإذا التقى أخوتهم وأخواتهم أدار وجهه ولم يتكلّف مصافحتهم، بل امتنع عن الشراء من الدكان القريب لأن صاحبه مشايخ للتنظيم، وأوصى أبناء أخيه: «اتركوه نفسو عاطل». لم يكن يترك مناسبة للليل من أبناء عمّه العاملين في التنظيم ومنهم الأستاذ مصطفى الذي طالما قال عنه إن «مجهولاته واسعة»، فقد كانت والدته ترسله إليه في صغره وفي يده كتابه ليفهمه درساً في الفرنسية أو الحساب. لم يكن الطفل غيباً ولا كسولاً لكنه يعنّد فجأة ويفقد الفهم والمخيّلة، عندئذ ينفر منه عزيز، فهذا العناد والبلادة المفاجئة من طبع أبيه الذي لا يحبه عزيز بل هو طبع في السلالة كلّها. يقول له: «فرخ البط عوام بترّد لأهلك». يروون كيف صادف عزيز الأستاذ مصطفى مع فتيانه أمام الدكان وهو يتكلم بصوت مرفوع، ويشبع ألفاظه. قال عزيز لابن أخته بصوت مسموع: «ماخذ مجدو». شعر الأستاذ مصطفى بعزيز فقال له: «أستاذ عزيز شرف». وقف عزيز يتطلع بعينين جامدتين إليه ولم يجب

حتى حين كرّر مصطفى «شرف» ثم استدار فجأة وتابع السير دون أن يردّ بكلمة.

درى أهل البلدة بالحكاية لكن عزيز أجاب: «ما شفتو ما كان قدّامي شي». كان يقول عن مريم أخت مصطفى النشطة في التنظيم: «حيّة». هكذا بدا كرهه للتنظيم وكأنه خلاف عائلي. ليس بين عزيز وعمّه وأولاد عمّه في الحقيقة كُره. كان أبوه معدماً يقضي كل وقته في قرى الجوار يقرأ على القبور أو يتلو مجالس التعزية. أما عمّه فأفضل حالا لكنه لا يكاد يكفي أولاده وبناته الكثيرين، وحين توفي والد عزيز وتركه في السابعة لم يخطر لأحد أن على العمّ أن يفعل شيئاً لابن أخيه. حملته أمّه ونزلت به إلى أقارب لها في المدينة وتربّى وتعلّم هناك إلى مطلع شبابه. يعود إلى الضيعة في العُطل فيلزم بيته. انعدمت صلته بأولاد عمّه صغارهم وكبارهم، لم يكرههم لكنه نسيهم ونسوه حتى أنه يصادفهم في الطريق فلا يكلمهم ولا يعيرونه التفاتاً. كان خرج منهم بصورة ما. تملّص من رعاية أقاربه البعيدين وعاد إلى الضيعة ولم يتبدّل شيء بينه وبين أولاد عمّه. كبر وكبروا. كانوا ضخاماً وهو نحيل، في طباعهم وعورة وليس هو كذلك. بدأوا السياسة بالتعصّب للبيك وبدأها في حركة للوحدة والتحرّر. سبقهم في العلم بأشواط، وتقرب منه الجميع إلا هم. كانوا مثله ذوي طبع صامت. ربما خافوه حين وجدوه لا يختلط بأحد ويحمي نفسه بنظراته الصمّاء. كان بينه وبين أبناء عمّه النسيان والتجنّب. نسيان صلد أجوف، هو هذا السياج المتين الذي أحاط به نفسه. ثم شعر أكثر أن هذا الشيء القاسي اللامبالي

الذي يحوطه ينتظر أي سبب لينقلب إلى كراهية، بل إلى ضغينة لا يدري أين منبتها وكأنها شيء عثر عليه فجأة في دمه. كره أولاد عمّه وعن طريقهم كره الضيعة أو، من يدري، كره نفسه.

(ما بتحرز) قال لصهره الذي عرض عليه أن يصحبه في طلعاته ونزلاته وعندما قلت له:

- اترك الضيعة. بيتي فاضي. بلاه المخاطر ما تعمل هالضرب الوسخ معنا.

لم يجب. فقط ابتسامة خفيفة علّمت في صفحة خده وفي أسفل وجهه وبعناده طلع إلى السيارة فأدارها.

لم يكن التصدي من طبعه وهو يفضل بالتأكيد أن لا يكون في الواجهة. لكنها إرادة ندى وإشارة ندى. كان يصارع لها ويعمر لها. تلك طبيعتها تريده في الصدارة. تريده مقاتلاً هي التي لا تطيق الظل. نجح عزيز كثيرًا. فاز في امتحانه أمام ندى وأمام نفسه. فاز بسهولة لكنه أثناء ذلك فقد حذره وسياجاته الصلبة. كان سعيدًا في الخارج فلم يسمع جيدًا الإنذار. لم يلتجئ مجددًا إلى صدفته. عز عليه أن يعود إلى خطوط الخوف. أثبت شجاعته لندى فصعب عليه أن يخسرها. كان متشياً فلم يقبل التراجع. لذلك سمع ما قاله أصحابه بكسل داخلي. كان يؤجل. كما لو أنه يقول

دعوا لي هذا اليوم على الأقل: هم أيضًا داووا الخطر بالتجاهل. أو أنهم شعروا أنه، لأمر ما، مصمم على أن يكون الضحية فافتدوا أنفسهم به.

ابتعد الصوت فارتاحوا. ظنوا أنه خطر آخر يزول. الحقيقة أنهم باتوا في غفلة تامة عما يجري. بعد جواب الشيخ توقفت الجولات والمشاورات. حلت محلها اتصالات كثيرة سريعة ووشوشة وإبلاغات، رصد وانتظار. كانت هذه خطوات المؤامرة. صارت المسألة حديث كل اثنين لكنها أيضًا سر كل اثنين. كان الناس يتوجهون من أنفسهم إلى الأستاذ ويقولون له بدون تسميه (ما يسوى نتأخر) (اضرب حديدًا يا أستاذ) (والله براسو) (إجا الحساب) والمقصود لا يحتاج إلى ذكر. جاء الشبان ليقولوا لفتيان التنظيم (إياكم أن تتراجعوا). رضوان البنا حضر ليقول ذلك، وهو الذي كان يقضي في السجن سنوات بتهمة مخدرات. حيدر عمار أوصاهم (ابطشوا) وهو المشبوه بجريمة قتل. حسين عطوان قال الكلام نفسه وهو الذي شاع أنه يؤجر الفتيات في بيروت. تحمسوا جميعًا للدعوة. الحساب عن كل شيء مرة واحدة. كثيرون لم يفكروا بالتهمة، لكن للعداوة هنا جاذبيتها بل الكره عصب القوة. لم يكونوا يدققون كثيرًا فهذه أشبه بأحداث طبيعية لا تحتاج إلى نقاش. لم يفكروا كثيرًا في التهمة. لكنهم يعيشون في الصخر والجفاف وطرف المنطقة، وقد جف دم كثير على صخور البلدة، واقتتل كثيرون على البشر وعلى لا شيء أحيانًا، وهناك عدم الرضا المزمّن والغضب المخنوق ضد النفس وضد الجار والحياة في خيانة مستمرة، في تجاهل واستخفاء. كان الحساب حقًا هو الكلمة.

حصلت في أسبوعين متلاحقين جنازات كثيرة في البلد. أكثر من المعتاد، توفي أربع شبان من القرية في عز قوتهم وبعلل مختلفة. جنازة كل يوم تقريباً وأحياناً جنازتان كانا أسبوعي حداد. أسبوعي اختناق صامت. وقف الأستاذ مصطفى خطيباً كالعادة في كل أسبوع، فاختر لخطبته موضوع العقوبة في الإسلام. توسع في ذكر تصفية بني قريضة، وهو موضوع لم يكن معتاداً على المنبر.

- حساب الدنيا يسبق حساب الآخرة فلا تتركوا مفسداً في الأرض بغير حساب.

كانت الضيعة ملاءى بالشارات السوداء المرفوعة تقريباً فوق كل بوابة. تستقبل النوبة بالجناز بالطل والكلارينت مكررة لحناً واحداً حزيناً وبلا نهاية. ينشد الشاعر لطميته وهو يستقبل بوجهه الجمع الصاعد إلى المقبرة. كانت جناز الشبان أعياداً يرفعون على الأيدي ونعوشهم مغطاة بالريحان والزهر كأنها تتفجر نباتاً وخصباً. يعود الميت الشاب عريساً وتتفجر في القرية حيويته وشبابه.

ينقل شبان التنظيم الشيوخ، يعدّون القبور، يجلبون الزهر. يتذكرون القارئ. يعدّون الحسينية للاحتفال. يقدّمون الشاي والدخان. يستقبلون ويدلّون الأغراب إلى مقاعدهم. هم دائماً في الساحة وأمام الدكاكين والمنازل. حضر أيضاً كثيرون من شبان التنظيم في القرى المجاورة. توزعوا على الساحة في جمعات قلقة تتداخل وتفترق وتحف وتكبر في حركة

لا تهدأ. يملأون الساحة في الصباح الباكر وكأنهم جاؤوا على الوقت ليأخذوا مواقعهم. يتخاطبون بصوت عال ويبرمون من جمعة إلى جمعة ويتزاركون ويلكزون بعضهم بعضاً في الخصر والذراع والكتف، وربما وصل ذلك إلى حد من العنف. شبابهم كان في كثرة حركاتهم وتعابير الاستخفاف والخبرة والنباهة التي يجتهدون لإظهارها. الملاحظ أن الآتين من خارج القرية أكثر اعتداداً من غيرهم بذلك وإلى حد الصلافة. بعضهم كان يلبس برنيطة وجينزاً مبالغاً في ضيقه مقشراً غالباً. هؤلاء كانوا يتباهون بخبرة ما، وكأنهم تعلموا شيئاً ليس لغيرهم. لكن أهل الساحة لم ينزعجوا، وامتلاء القرية دائماً مناسبة سعيدة، رغم أن البيارة من أهل الضيعة يطلعون دائماً بأمور غير مألوفة.

لكن بقاء هؤلاء أياماً لفت أهل الضيعة، لاحظوا أن الأغراب ينفذون إلى الضيعة من محل قريب، هو غالباً الوادي، حيث أقام التنظيم معسكراً من أشهر ولم يكن وجوده خافياً. طالما وقف بعضهم في دكاكين التنظيم يتمنون له. لكن مجيئهم بهذه الكثرة، وبقاءهم في الساحة أوقاتاً طويلة في تملل وحركة لا تستقر أشعر الجميع أنهم هنا في مهمة. مهمة غير محدودة لكن أساسها الحركة والتجمع. هنا نصف سحر العمل الحزبي على كل حال. لفت ذلك فتيان القرية ولم يطل الوقت حتى أخذوا يجارونه. بدأوا يجتمعون في الساحة مع الأغراب وكأنهم يختلسون منهم بعض مهمتهم. يجتمعون في دروب الضيعة ومداخل زواربها. زاد صياحهم وزادت

حدة ألفاظهم، ولم ينفر الكبار من ذلك بل نظروا إليه بقدر من الاعتداد. كان التجمع والحركة يتكرران كل يوم ويزدادان هياجًا، وكأنهما يبحثان عن غرض. وأخيرًا وجدوه. وضعوا مسؤولًا لكل شلة، ولكل زاروب، بات الشبان بسهولة في تنظيم بل في التنظيم.

كانت تسمع في الساحة والزوارب بين الحين والآخر صيحة (قف) مشروخة جارحة، وكأنها أكبر من صاحبها، وأكبر من مدى الضيعة. تتبعها في الغالب حركة مرتبكة، إذ المار في الغالب قريب مسن أو امرأة من الضيعة. ويظهر فورًا عبث هذه الصيحة إلى أن اختفت تقريبًا هذه الشعائر. لكن الفتیان صاروا ذوي علاقات شبكية بالتنظيم لم تكن أيضًا مفهومة لكنها تغويهم. كانوا يلعبون والكبار يتطلعون إليهم بتفهم كأنهم يدفعونهم إلى النضج. ربما هو الإحساس بالحاجة إلى دفاع للضيعة، جعلهم ينتظرون بصبر أن ينقلب اللعب إلى حقيقة. كان هذا مربوطًا بالتنظيم، ولم يشك الجميع، حتى الشيخ محمد والمختار، أن مصير الضيعة مربوط بالتنظيم. لم يعد أحد يتململ إذا أكثر الأستاذ من الشرح. بات يتوسع ولا يقاطعه أحد، في قرية قلما يصبر فيها الواحد على جملة، وزادت الفصحى في كلامه. لم يعد ينتظر أن يبدأ الشيخ بالكلام، أما الشيخ فحاول أن يحشر الأستاذ في موضوعات فقهية، لكنه لم يجد إصغاء كافيًا فلم يستمر، خاصة حين وجد أقرب جماعته إليه، الحاج البعلبكي يستمع باهتمام للأستاذ.

بات لكل واحد ابن في التنظيم فصار يتصرف وكأنه أيضًا فيه، بل

بدأ كل يتحدث عن أعمال ابنه في التنظيم، كما يتحدث الآباء عادة عن نجاحات أبنائهم في المدرسة. لم يعد سهلاً الفصل بين الضيعة والتنظيم، سلم الشيخ بذلك حين بات الحاج البعلبكي مستشار التنظيم المالي يجمع التبرعات ويشرف على ترميم الحسينية، أما المختار فألين من أن يواجه التنظيم وسره ضمناً أن ابنه مشى فيه. والابن على كل حال نقيض أبيه.

تكوّن من بعض حجاج البلدة وكهولها ما يشبه مشيخة للتنظيم، تسلمت أشغال البلدة: ترميم الحسينية، شعائر الموتى، الطريق الزراعي. كان معظم هؤلاء متسلماً لها. لكنهم الآن في رعاية التنظيم، وفي رعايته حلوا مشاكل مزمنة. صالحوا عائلتين بينهما دم وحضر الصلح أحد قادة التنظيم، الذي قدم من بيروت لهذا الغرض. حلوا مشكلة خلاف على الحدود بين عائلتين. كانت هذه مشاكل ميتة أحيّاها التنظيم واحتفل بحلّها. لكن التنظيم حل أيضاً مشاكل إرث أعيت رجال الدين، وضبط الحاج البعلبكي بمساعدته النفقات بحيث أمكن له، فضلاً عن ترميم الحسينية، مساعدة يتيم وأرملة صديق مع أنهما من أقربائه.

كل ليل يطوف الأستاذ مصطفى وأبو غانم وحسين عوض وسمير بو علي على الفتيان الذين يحرسون مداخل القرية وزواربها.

يصحبهم في العادة فتیان آخرون يوسعون لهم الطريق بمصايح قوية. يتفقد أبو غانم نقاط الحراسة ثم يتنحى آلياً للأستاذ الذي يتقدم بشوشاً فيصافح الحارس بيد حاره (الله معك ييلزمك شيء كيف الحاج صحتو

منيحة. سلم لي عليه) يمط جملة وكذلك حركات يديه يوسّع حضوره الضئيل. جنبه حسين عوض، ضخم متجههم ودائماً مكبوس من داخله يجيب بنفره وكأنه يطرد محدثه. وغير بعيد سمير بو علي مسبول الشعر بقميص معرق حريري يتكلم ويتصرف بطراوة ويحرك أصابعه الطويلة، كان مختلفاً بوضوح، لكن فتنته تؤثر حتى في حسين عوض، الذي يخصه وحده بنظرة راضية.

ظهرت الأسلحة. عصر يوم قديم واحد من الوادي وفي ظهره كلاشنكوف. وقف في الساحة وتوجّه إلى دكان وطلب قنينة بيبسي كولا. أدار ظهره للجميع وأخذ يشربها تاركا لهم أن يتأملوا سلاحه. وقف بالفعل خمسة أو ستة وظلّ العدد يتزايد وراء المسلّح، وهو لا يزال يدير ظهره وينشغل بزجاجته، وكأنه يحصّيه من وراء ظهره، ثم لما صاروا كوماً استدار ونظر إليهم بدون اكتراث، وهو لا يزال يمسك بالزجاجة. ليس الكلاشنكوف غريباً عن الضيعة، لكنها المرة الأولى التي يظهر فيها معلّقاً في كتف واحد من التنظيم. طار الخبر في ساعة واحدة كان المسلّح خلالها قد عاد إلى الوادي.

تكرّر بعد ذلك ظهور مسلّحين بالكلاشنكوفات، وكان صاحب الدكان هو أول من رفع علم التنظيم على باب دكانه. تبعته في ذلك بقية الدكاكين ثم زرع العلم تقريباً على كل البلكنونات، أما لدى الأطفال فقد

بات درسًا في الرسم يتنافسون على صناعته من الورق الملون.

وأخيرًا حانت الساعة. دخل شاب من التنظيم أشقر على ضخامة وعلى دسامة وعلى خشونة إلى الحسينية، حاملاً علم التنظيم. كان الشيخ محمد قد صعد المنبر وما زال يسبح ويسمل بصوت منخفض، قبل أن يرفع صوته بالخطبة. شاهده يتقدم من المنبر وحيداً يرقص علم التنظيم بيده ويرفعه إلى أعلى فأعلى، ويرفع نفسه معه. يفعل ذلك بفرح شيطاني ويكاد يرقص خلاله. رآه الشيخ بشقوته، بالأحمر والأصفر في رايته فخاف. تلك ألوان الشيطان، ألوان قتلة الحسين، كان ذلك انتهاكاً. الرقص والراية الحزبية اللعينة في البيت الذي جُعل للبكاء والضحك فيه، مجرد الضحك، انتهاك، والدخول إليه بثوب فاقع غير مستحب. قال له:

- شو جاي تعمل هون ارجع. وأعاد: «يا بني ارجع ما تغلط».

دوّى الميكرفون بكلام الشيخ لكن الشاب لم يسمع، كان كله في رقصه ورايته ومشيه نحو المنبر. لم يسمع إلى أن وصل فصعد، وثبت الراية على المنبر. كانت هذه كبيرة عالية فبدأ الشيخ جنبها ضئيلاً. جفل إلى آخر المنبر ليباعد عنها، لكنها بقيت مع ذلك تغطي عليه. سعى إلى أن يجد منفذاً فلم يجد. شعر أن الراية الفاجرة تلحس جسده. لقد جعلوه فجأة هُزأة لرايتهم. ألوانها تمرّغه وتكاد تحاصر وجهه. أحس أنه ثقيل جداً بغضبه، مخنوق به تقريباً. بات صلباً إلى حد لم يعد يستطيع معه أن يتحرك. لم يتكلم، فقد صوته، وحين تكلم كان هذا العلم لا يزال على وجهه، وخرج كلامه صياحاً.

- ابعده.. ابعده

مدّ يده على طولها وحركها مرارًا ليبعد العلم عن وجهه. لم يتحرك أحد في القاعة واختفت فجأة ضجة الكراسي والأقدام المتنتقلة، أما الشيخ فكان لا يزال يتّقي الراية بكفه دون أن يفكر في إزاحتها عن المنبر. هذه الحركة المتكرّرة نوّمت غضبه شيئًا فشيئًا، فالشعور المتزايد بسلبيته وموت إرادته في كل مرة فكر فيها بقلب الراية، جعل غضبه يرتدّ إلى نفسه. جمع نفسه أخيرًا وقال:

- هذا بيت الحسين جابين نبكي على الحسين الشهيد. على عذاب الدنيا وعلى غربتنا. راية الحداد السودا راية الحسين. الأصفر والأحمر ألوان يزيد الملعون. شيلها يا ابني. هون ما حدا إلو راية. جينا نعزي ونتعزّي. نحنا إلي إمامنا مقتول وبنضلّ بالغبّة حتى يجي المهدي عليه السلام.

قال هذا وشعر أنه استنفد كلامه وأن إرادته كلها فرغت فاندفع يتغنّى بأشعار حسينية:

ارتفع صوته بالبكاء. تعالى بكأؤه حتى غدا نحيبًا عاليًا، وهو يكمل إنشاده والناس في الصالة يصغون صامتين، ثم تجاوز من هنا وهناك صوت وزادت الأصوات الباكية إلى أن شملت الصالة. انخرط فيه الشيوخ وبعدهم الشبان والفتيان، والشيخ مع ذلك مسموع الصوت وكأنه يقود ببكائه الجمع. وحده الأستاذ مصطفى ومن حوله وقفوا محتارين. تركوا

البكاء لحاله والشيخ لا يتوقف وإنشاده يزداد قرارًا. انتظر الأستاذ أن يهدأ الناس إلى أن نفذ صبره، فتحرك وتحرك معه أصحابه بسرعة، ووقفوا جميعًا كتلة واحدة تحت المنبر، أمام الشيخ الذي أحس بهم فعاد له قصوره وغاض فجأة حماسه، وكان شعر به يقوده. أحس تعاسة من نفسه وبقي في مكانه ينظر إلى الأستاذ وصحبه، يبذل جهدًا ليقى ويحس أنه يبذل من قوته الخاصة، وأنه أقرب إلى أن يتزعزع كلما ثبتت نفسه. قال الأستاذ وهو يشار من تحت المنبر:

- رَوْق يا شيخ محمد. كتو تنصبوا رايات البيك بشبايك الحسينية وما حدا خاف من غضب الإمام. وين كنت يا شيخ محمد؟ شايفك بعيني بتضحك للبيك والناس بتبوس إيده بنص المجلس.

كان الشيخ يحس أنه نجح أخيرًا بجمع نفسه، لكنه بذل في جمعها إرادته كلها، وها هو ثابت تقريبًا بدون إرادة. كان عليه أن لا يقوم بأي حركة لكي لا يهتز. بل شعر بثقل نظارته فخلعها. أما عمامته فكانت أثقل من أن يخلعها. قال بصوت هادئ بدون انفعال:

- بتتشبه بالبيك يا أستاذ مصطفى. هياك نصبت رايتك على منبر الأمام! لكن الأستاذ لم يكن على استعداد للأخذ والرد. صعد الدرجات المؤدية إلى المنبر وهو يزعم كالمهان:

- هذي مش راية البيك يا شيخ محمد، هذي راية جهاد.

نظر في عيني الشيخ واستمر يصرخ ظافراً:

- هذي راية حسينية. ما بتمشي وراها بيتك أسترلك.

كان صار جنب الشيخ على المنبر وتابع:

- بيتك أسترلك يا شيخ محمد.

جماعته صاروا حوله على المنصة، والشيخ يتضاءل. صرخ الأستاذ مصطفى بأحدهم:

- يا فريد شيل الراية عن المنبر. اسندها للحيط.

ورفعت الراية من أمام الشيخ، وكأنها أفسحت له طريقاً للخروج فعجّل إلى الباب واختفى فيه وبقي الأستاذ وجماعته يشرفون على الجميع. سقطت الضيعة في يد التنظيم. لم يتواضع التنظيم في إعلان ذلك، ففي الإعلان قوة يحتاج إليها في الضيعة وغيرها. ضربوا أحمد الصايغ، فتى في الثامنة عشرة، لأنه في خفته استهزأ بالتنظيم. نادوا عليه من بيته وضربوه على الباب. داهموا بيوت الحزبيين وصادروا السلاح منها وساقوهم إلى الحسينية حيث قال لهم الأستاذ:

- ما حدا يلعب بذيله. ما في بعد نزلة ع طوران إلا بعلمنا.

أيام حُبلى، كل ساعة تحمل جديداً. حوّلوا أزقة البلدة وسطوحها إلى نقاط عسكرية. وانتشروا على التلال التي باتت حدوداً. أصبحت الضيعة

عاصمة لهم وهذه رايتهم كبيرة في أولها على بعد أمتار من البوليس الدولي. بات للضيعة رايتها وجيشها وحدودها، وبسرعة بدأ الحديث بهياج عن هجوم عليها.

كانت ندى في الغرفة تغير ثيابها. الباب مردود نصف ردّة وصوت حركتها في الغرفة مسموع.

كان جسدها يتسرّب إلينا من ردّة الباب والصوت المسموع.

لا أدري إذا كانت وعت ذلك، لكنّ صوتها الذي ينادينا: «دقيقتين جايي»، ربما وهي تخلع ثوبها، كان ينقل عُريها من ردّة الباب. لطالما فعلت ذلك وهي في الحمام: «اقعد، مش رح طوّل»، بسوقيّة كانت الأقلّ اعتداداً منها بأنفسهنّ يتحاشينها. لم يكن في صوتها المباشر الاستفزازي ليونة قامتها وإيقاع مشيتها التي دخلت بهما، وهي لا تزال تمسّط شعرها وتتطلّع إلّيّ بعينها ومشطها وهي تكلمّ عزيز.

- جبتو معك لتنفذ بجلدك. يا عيب الشوم متخبي بخيالك.

ورفعت صوتها.

- يا عيب الشوم.

لكنّ عينيها كانتا تكذبّان ذلك. فيها بعض تهكّم من صوتها الذي يروح

ينفعل تدريجًا بقوة شبه آليّة. عزيز مضغوط في مقعده كأنه لا يسمع. لا
ينفعل وقلما يتطلّع إليها، ليس صامتًا فحسب، ولكنه شبه غائب. رَقَّت
صوتها أكثر:

- تمسكن. وين راحوا فهما تك. قصدك تمرّقها عليي. لا أنت ولا غيرك.
لم يجب عزيز. التفتت إليّ:

- أهلا وسهلاً. منيح الي خطرنا على بالك أكيد جابك بالغضب. شو
شاغللك.

كان وجه آخر هو الذي أعطتني إياه، لكن الصوت بقي ذاته تقريبًا،
عاليًا ومباشرًا ومعاركًا. كانت لعبة صغيرة، لكنها تقال بصوت أعلى
منها. بدأت أستحضر جملاً معتادة.

- العفو. هيك عم تصائب.

لكنها بدون أن تسمع عادت إلى عزيز وتابعت لومها. لم يكن الموضوع
واضحًا. مجرد تلميحات تشعر أنها ليست ذات موضوع. المفروض حينها
أنني أجهل ما بينهما. لكنّ كلامها ليس فيه إلا هذه الصلة، ليس فيه سوى
امتلاك شخص لآخر. اندفعت ندى في عبارات يصعب جمعها.

- الي نفسه بالتراب بيضلّ بالتراب. مش معوّد على البخور يا روجي.
طبعاً ندى الصولي، تمخض بالمسك. نحنا الما عرفنا قيمة حالنا.

ترفع رأسها إلى أعلى ما تستطيع وكأنها ترفع كيائها كله: «بستاهل». تلميحات إلى خداع، إلى سوء ما، لكنها في الغالب لا تعني أيًا منهما. تقولها وكأنها تدللّ عزيز. تجعل له خطرًا ليس له، لتردّه بعد قليل مملوكًا لديها. تتهمه ولا تصدّق نفسها. تتهم نفسها أيضًا.

- نحنا وطينا حالنا.

لا تطيل دعواها التمثيلية، تنساها فورًا وتسترسل في اعتدادها.

- ليش البيصحّلو يشوفني، بيضلّ براسو حدا، نحنا البيطلّع فينا بيصرلو قيمة.

ترفع قامتها ورأسها إلى أعلى ما تستطيع، تحلق باعتدادها إلى حيث لا نسمع بعد سوى لهجة تباهيها. الصوت مع ذلك ليس صلبًا. إنه أجوف وناشز قليلًا. لم يردّ عزيز ولم يبدُ عليه أنه سمع، ولم تنتظر منه جوابًا. ظلّت ماضية في الكلام وهو ينضغط أكثر في الكنبه. جعلني حرجي بينهما قلقًا. ثم انتهيت كعزيز إلى سلبية تامة، فبقيت هي تلقي كلامها على غائبين.

لا نتكلم أنا وعزيز عن ندى. في الحقيقة لم أسمعه مطلقًا يتكلم عنها. هذا حدّ له بات حدًا لي. كنا مكلفين معًا بالصمت، وليس هذا شأنها طبعًا. ففي غياب عزيز تتكلم عنه وكأنه حكاية. تحتفي بأقل ما لديه تقول:

- هـ الأكله بيحبها عزيز.

تتكلم عن عادات وصفات له حقيقية وغير حقيقية:

- ما يياكل إذا حدّو وش مش حلو.

وتذكر أخبارًا له وكلمات:

- قال عن الأستاذ جواد مجهولاته واسعة.

وتروح تتقاسم مع صاحباتها فرح هذه النكتة. تتقصّد ذكر اسمه، تخترع لذلك مناسبة أو تجدها. أما إذا كان الزائر قريبًا أو صديقًا لعزیز فحديثها سيكون بالأولى عنه. كانت تجد له دائمًا صفات لا يعرفها عن نفسه، ألوانًا يحبها، أشخاصًا يشبهونه، طبائع وردودًا، وهو الذي كان في حضورها بلا صفة تقريبًا. لا تعب من تجسيم صورة أخرى له قوامها الفكاهة والسخرية والحيلة والجواب الحاضر والقدرة على كشف الآخرين. بل هي أحيانًا صورة مغايرة تمامًا: الجسارة، الحبث، الصدام. صفات تدّعي أنها خبرتها بنفسها، تشير إلى ألا عيب وخُذع لم تجر عليها، ونعومة زائفة كشفت غرضها.

- قلت له روح ه الألعاب ما بتمرق عليي.

ولا بد من أن يكون عزيز ككل الرجال متعلّقًا بالنساء.

- عينو ما بتغفل. من طرف عينو بيقيس كل واحدة.. هذا مخبّي بتيابه.

ودليلها بالطبع ما حكاها هو لها من اهتمام تلميذة أو جارة. لم تكن أسرارها في كل الأحوال محترمة كثيرًا فهي تتصرّف وكأنها ملك لها تبذلها دون اكتراث.

- بنت السكرى مش حاله عنو. بتظللها حواليه.

لم يكن عند ندى أسرار سوى أسرارها وحدها. وهذه واهية على كل حال، مفضوحة في كلامها وسلوكها، لكنها تضع حدًا صارمًا لذكرها بالاسم. أسرار الآخرين أيضًا مشاع، تقولها ساهية عن أنها أسرار. تتحدث عن صلة جار بزوجة جاره، وكأنها أكثر بداهة من صلاته بزوجته، بل تجمعهما وكأنهما زوجان، تقول صفية وراشد. هكذا كنا نتابع يومًا بيوم الحياة الثانية للجميع، أخبار زوجة الجار الكثيرة العلاقات. حياة الشقيق الغرامية المتشعبة. كنا جميعًا دون أسرار. عالم أبواب النساء فيه مفتوحة لجيرانهم، والأزواج، في غفلة كاملة، يهينون، دون أن يدروا، السبل لعشاق زوجاتهم، نساء مترهلات يقفزن أمام المرايا بكيلوات ملونة، رجال كحوليون لا يتوقفون عن التهريج الجنسي. عالم دهاليزه واضحة للعيان أكثر من سطوحه نفسها.

عدت من باريس التي لم أستطع قضاء شتاء ثان فيها. فقدت جلدي في شباط تقريبًا، أنا هكذا دائمًا أقع قبل مرحلة، مرحلة قصيرة من الهدف. كان عليّ أن أبدأ بمشقة كل صباح في صنع الحياة وتعميرها لنهار واحد، ألم حر وجديد باستمرار يجعل الساعات الثلاث الأولى من النهار ملحمة. بعد ذلك تأتي المسافات، ساعات المترو والأوتوبيس والمشى الطويل على رصيف السين والتعب من الغيم الذي يغدو عينا أخرى لك، عينًا على عينك وربما على قلبك، ومن الديكورات الغريبة التي تجعلك تجهل عينيك.

قبيل الربيع شملني خوف من أن أتبدد في الغيم. انهيار عصبي ومستشفى. كنت أحسب أنني نجحت، اقتربت من أن أنجح في تصنيع نفسي بذات المادة الغريبة. بذلت جهداً يومياً. لكنني كالعادة استعملت طاقتي بطريقة سيئة، وكالعادة وقعت، وربما في لحظة سهو، وعدت إلى لبنان.

سحبت ندى يديها من الماء حين شعرت بدخولي. نفضت يديها وسارت نحوي ويداها ممدودتان فوق كتفي لئلا أتبلل بهما.

- ما عاد بدي أحكي معك. صار جمعة وما بتطل، معقول.

خرجت كلمة (معقول) ضخمة طويلاً وتركت بعدها ما يشبه صمتاً. قعدت على كرسي فيها استمرت تغسل الركوة. أعطتني فنجاناً وجلسنا نشرب، شعرت أنني أبحث عن السكرية فجلبتها. حركت الملعقة ففاض من البن على الطاولة، جلبت خرقة ومسحت تحت الفنجان. المطبخ صغير ربما ليس صغيراً لكنه كمطابخ كثيرة يبدو كأنهم تذكر وابتاءها في آخر لحظة، وأضافوها إلى أي زاوية باقية. دق الباب ودخل ابن الجيران الشاب وفي يديه لمبتا نيون وأخذ بتركيبهما في المطبخ. قرع صاحب الدكان وفي يده حوائج اشتراها لها من السوق. كان لها سطوتها على هؤلاء، على الخياط الذي يسرع ما أن ترسل بطلبه، والحلاق الذي يقصّ لها في بيتها، والميكانيكيان الذي يعود بسيارتها وقد ملأها بنزيناً وصانع الألمنيوم الذي تكلفه بأي شيء. يدخلون إلى بيتها ومن الباب مباشرة إلى الغسالة والتلفزيون والمطبخ. ولا ينسون أن يقولوا وهم يغادرون.

- بتأمري شي ثاني أم أيمن.

مع ذلك تجد دائماً سبباً للومهم ويسكتون غالباً، سعداء بأن تقصدهم بسطوتها التي تختبرها غالباً دون مناسبة، كما تفعل مع عزيز.

تحدثني عن جنان التي يزورها شقيق ندى في غياب زوجها.

- ما فيها لون كثير. ثم لما تجدني صامتاً تتابع

- على بالك. جريها حلوين، بس ريحنا ما بتتنطق.

لم أكن لاحظت أن رائحتها كما قالت ندى. ندى تجد كل السمرات منتنات.

- ريحة باطيها وقيصه. من سفر بتشم

حين تتكلم عن الروائح تشمئز فعلاً وكأنها لا تزال في أنفها، وأصدّق فوراً. فأنا أثق بأن ندى تشم وترى أكثر مما أشم وأرى. هي قادرة على أن ترى اللون الحقيقي وتشم الرائحة الحقيقية بين مئة لون ومئة رائحة. امتياز ليس لنا. كان لها بالتأكيد دم آخر.

انتقلت إلى الصالون. جلست على كنبتين دخانيتين. هي التي وجدت هذا الاسم للونهما. لا أحب هذا اللون الضارب إلى البني أكثر من الرمادي، بل لا أحب هذا الخليط من الرمادي والبني، أجده مقبضاً وبارداً. اختارته في الغالب لندرته. رأيت في الأرض سجادة محل تلك التي كنت أكرهها.

قلت لها أنها جميلة، سرها ذلك وجعلها بطريقة ما تدخل إلى غرفتها وتحمل من خزانها سترة موف وقميصًا مشربًا من اللون نفسه، لم يكن أي موف، بل نوعًا نادرًا منه. عرضتهما عليّ بحركة خفيفة. لم أطل النظر إلى القميص الشفاف ولم أجرؤ على أن أفحص القميص بأصابعي سألتها عن عزيز قالت.

- الله يساعده.

لم ترد ولم أفهم من نبرتها شيئًا، فهي تتكلم عنهم كلهم بذات الوتيرة وتجعلهم على نفس البعد. قالت بالنبرة ذاتها.

- مش عم شوفو

اشترت بيتًا بالتقسيط وتتعب في تدبير أقساطه. لكنها قادرة، وحدها قادرة على أن تلبس كممثلة وتوفّر كفلاحة. وصفت البيت باليد والإشارة، لكنني اعتذرت بضعف مخيلتي. أحضرت قلما وورقة وطلبت مني أن أقرب. جلست على ذراع الكنبه مشرفًا عليها وهي ترسم خارطة شقتها. أمسكت بيدي وهي تدلني على الأنتري والغرف. كنت جاهزًا لأحس بطراوة يدها، شعرت في الغالب فأفلتت يدي.

لا نعلم لماذا تركها أبواها لجديها اللذين يعيشان في بيروت. في الثالثة أو الرابعة انتقلت إلى منزلها. بيت واسع فارغ ونظيف. الخال الوحيد

الأعزب يزورهم ليلتين أو ثلاثاً في الأسبوع، وهي طيلة الوقت تتفرّج من الشرفة على السوق. عاد الجدّ من الولايات المتحدة كهلاً أنيقاً يرتدي برنيطة وثياباً بيضاء غالباً ويستحمّ كل صباح ويشرب البيرة بوصفة من الطبيب ويتغدّى وينام على الوقت ويذهب إلى الناس بموعد ويستقبلهم بموعد. الجدّة امرأة قوية لها سطوة على أصحاب المحلات وتذهب إلى الكوافير. تحمل في جزدانها علبة تبغ وولاعة وتقرأ جريدة بالإنكليزية وتردّد إلى السفارة. كانت تسمّي جدّتها ماما وتعلق بشبابها كلما صحبتها إلى منزل والديها في طوران خائفة من أن تستبقها أمها. لا تحمل ضوضاء أخوتها الكثيرين الذين يغلون في البيت. قالت إنها حتى في السابعة كانت تحسب جدّتها أمّها وجدّها أبيها.

في السابعة انفجرت البطارية في صدر جدّها فأعادوها إلى البيت، حيث أرقدوها جنب أختها، وكانت ليلة صعبة. لم تقبلها شقيقتها بسهولة في سريرها. أجبروها بالضرب. بعدها عاملوها كأنها غريبة. لعبوا من دونها، اتفقوا أحياناً عليها، وحين دخل ذلك الكلب الشارد إلى الحديقة الصغيرة التي تحيط بالبيت هربوا جميعاً، أما هي التي لم تعتد الهرب فبقيت قرب الباب. وقف الكلب حين رآها. كان قدراً منكوش الشعر وربما مريضاً. صاح بها أخوتها من الشبايبك أن ترجع فلم تتحرك. وحين جاءت الأم على ضجيح الأولاد وجدت ندى لا تزال واقفة والكلب قربها.

بعد هذه الحادثة علم أخوتها أنها لا تخاف، تمشي وحدها في الليل وتنام وحدها ولا تفزع من حيوان. صارت أختها ترجوها أن تصحبها إلى الدكان في المساء، وأمها تتكل عليها إذا أحببت أن تسهر خارجًا. وهي تعمل وتعمل، دون تدمّر، في إشغال البيت، حتى صارت أمها الولوع بالخروج تترك لها ولأختها أي نزاع لا ينتهي على كل شيء، وفي النهاية تتحمل ندى الحصة الكبرى. لكن لمى مع ذلك كرهتها وظلّت تكرهها إلى أن سبقتها إلى الخروج من الدار.

كانت ندى ابنة جدّتها وشقيقة أمّها ومدبرة البيت الصغير. تقوم بكل شيء، القهوة والغداء على الوقت لأبيها، القمصان والبنطلونات المكوية لأخوتها، الشغل عن أختها إذا ذهبت لموعد، حضانة الأخت الصغرى الرضيع. تجبر أخاها رائف على أن يخلع بنطلونه وقميصه لتضعهما في الغسيل. تأخذ أختها الرضيع من يد أمّها كأنها تخاف عليها من إهمالها. تعجّل إلى المطبخ لتتأكد أن غداء أبيها سيجهز تمامًا في الثانية عشرة. تعمل كل شيء كما لو أن الآخرين لا يحسنون عمله، أو كأنها تخشى عليه من فوضاهم. أحسّوا بذلك فكانوا قلّمًا يشكرونها، وهي على حال لا تنتظر شكرًا.

أمّها القاسية صرخت بها مرّة، ولما رأت وجهها صلبًا ومتعالياً جفلت منها ولم تعد للصراخ عليها. إخوتها الأكبر منها تعلّموا أن يتهبّوها. كانت تقول لواحدهم إنه لا يحسن مناسبة ألوان ثيابه فيسمع ويطيع. لكنهم يخصّون لمى بملاطفاتهم.

قالت لرائف إن ليلى لا تناسبه فعبس في وجهها. لكنها كانت ترى ذلك بالدقة التي تلاحظ بها أنه يرتدي لونين غير مناسبين، وهذا اليقين أثر في رائف وأدى به بالتدريج إلى هجر ليلى. بدأت منذ سنة تعامل أمها كأنها واحدة من رفيقاتها الكبيرات، تنتقد كلامها وثيابها ولا تدعها تخرج بزي لا ترضاه. أما ولعها فلأبيها الذي ظلت تجلس على ركبتيه وتحيطه بذراعيها، فتبدو أيضًا وكأنها تهدده. تحب فيه أسوأ عاداته. تتأخر قاصدة لتراه عند عودتها موسوسًا عليها. تحب عاطفيته المعلنة وضعفه الصريح تجاه أبنائه، أكثر مما تُطبق صلابة أمها وتحفظها. تحب وجهه الذي لم تقلل من جماله صلعة مبكرة ولا رخاوة مبكرة أيضًا. يُعجبها في بنطولونه الغولف وهو ينزل عليه بخيزرانتة في الأوقات التي يلبسه فيها كما تعود في نشأته: ابن عائلة، تربى على الخيل، وكان له ولأبناء عمومته ما يشبه الحق في نساء البلدة، حق تعرفه لهم نساؤهم أولاً. هكذا كانت الأم غالبًا تغلق عليهما الباب (هو وزائرتة) وتذهب لشغلها. أحبت ندى في أبيها ما لم تحبه في رجل غيره. أحبته كما تحب المرأة رجلاً خائناً تتوخى عن طريقه أن تكره جميع الرجال. وزاد تعلّقها به بعد أن أصيب باكراً بذبحه قلبية نجا منها، لكنها جعلته بالنسبة إليها أقرب إلى ابن مُعاق.

حلمت في مراهقتها كثيرًا بالسينما. أحبت لنفسها أن تكون فاتن حمامة مع شيء من صوت ماجدة وفتنة هند رستم. حين ذهبت إلى مصر مع صاحباتها لدراسة التوجيهية كانت تتركهن يذهبن إلى السهر مع الشباب، وتبقى

هي في البيت غالبًا، حتى فاجأتهنّ مرة عندما دخلت ومعها أحمد رمزي بابتسامته العريضة والفلادة على صدره. لكنّ القصّة لم تطل أو هي لم تحصل. كما لم تطل قصّة أخرى مع بسّام، ابن ثري لبناني التقتّه في القاهرة، ولا حظت شبهه بأحمد مظهر. السبب غير واضح، ربما تعب من ترويضها له الذي لا تتعب هي منه. ربما أحبّت فجأة أن تعطي على تعاليها دليلًا، وليس أقلّ من أن ترمي أرضًا بأفضل ما لديها.

عادت إلى طوران ولم يلاحظ أحد أنها مجروحة. تقدّم لها طعّان قاسم، ولم يفعل لولا إيعاز أمّها. فاجأها ذلك في البداية فوسامة طعّان ومكانته يليقان فقط بالقرية، لكنها لم ترفض فورًا لسبب مجهول. أطالت الأخذ والردّ، والجميع ينتظرون منها أن تتعب من اللعبة فتردّه خائبًا. لكنها فاجأتهم بقبولها رجلًا جعلت من أفضل ما فيه مادّة لهزئها. لم تبرّر ذلك إلا بأنهم جميعًا هكذا.

يترك عزيز ندى لغضبها. يعلم أنه غضب دهريّ وأنه من عمر لا نعرفه. لم تكن هناك مناسبة بين مشاعرها ومسبباتها، كأنها مشاعرها العارمة تتعلق على أي حادثة. تغضب بلا سبب تقريبًا، وترضى بلا سبب أيضًا. كانت تريد أن يشعر الآخرون بذلك، أن يحسّوا بأن رضاها منحة وغضبها قدر. لم يكن عزيز لينتبه لولا أنها تركت الجميع في السهرة وانصرفت إليه.

حين سئمت من الساهرين أخذته من يده إلى الغرفة الأخرى، وجلست تحادثه. في الصباح أرسلت ابنة أخته توقظه وجلست معه تشرب القهوة. لكنها غابت أسبوعين وعادت واستدعته إلى بيت أحمائها حيث لم يجد سواها. كان العجوزان قد ذهبا إلى الحقل، وحين جرّاه قربها على أن يلامس وجهها بشفتيه طردته تقريباً. ولما طالت غيبته ظهرت في داره ولم تكلمه، لكنها أشارت عليه بأن يزورها غداً، وعندما وصل أغلقت الأبواب وأعطته نفسها، تقريباً بلا اكتراث، على الكنبه.

تقول إنها كانت المرة الأولى التي تحس فيها برجل. ربما تطلّب الأمر مرّات حتى عرفت النشوة لكنها أيضاً اللحظة التي تجد فيها أمثلة أخرى لتعالها وقدرتها على رمي أفضل ما تصل إليه. أوقات ولع، وأوقات جفاء أطول تتجاهله فيها إلى حدّ يتساوى فيه مع طعان نفسه. تشيله وتخطه.

في يوم لمّحت أن عليه أن يتزوج. في اليوم التالي لم تتوقف عن هذا الحديث. قعدت معه تختار، رنده جمالها بلدي، ليلي... هند... وأخيراً مريانا.

ابنة مهاجر عاد من سنتين، ولا يزال يتكلم بلهجة قدماء الضيعة، وهي تتعثر بالنطق بالعربية. طويلة سمراء عاقلة وأهلها أصحاب قرش. مريانا هي الأصلح. لماذا اختارت مريانا. لماذا اختارتها سمراء هي التي تفرّ من

السمراوات. تراهنّ جميلات أحياناً لكنها تجد فيهنّ وسخاً ورائحة في الجلد والدم. المرأة السمراء عندها لا تنظف وهي لا تحب أن تؤاكلها أو تعاشرها. اختارت امرأة طويلة، بل امرأة أجمل، لتليق بخلافتها. اختارتها لا تنطق العربية بسهولة كأن ذلك يجعلها على الدوام لا تملك لساناً.

بعد الخطبة اختفى عزيز من بيتها ثلاثة أسابيع، ربما بإيعاز منها. لم تستمر طويلاً في هذا الدور. زارت العروس، كأنها شقيقة العريس، وأشارت عليها بأمور في زيتتها وملبسها، لكنها لاحظت بأن عين أم العروس ليست كما يجب عليها، وكان هذا أول القطع. سرعان ما وجدت في بيت العروس كل ما تكرهه حقاً: الرفية وحادثة النعمة وسداجة المهاجرين. لذا بدأت تسخر من ثياب العروس وزيتتها وتسريحتها ونطقها الصعب ومقتنيات أهلها الأفريقية المكوّمة دون ذوق في الصالون ولهجة أبيها المستحكمة في ريفيتها. استرسلت في ذلك ولم ينفع في تهدئتها. تعجّب أهلها من انقلابها بين يوم وليلة. كانت تحت دافع قهري ووسواس، لا تتوقف عن الكلام دون أن تنجح في تصريف مقتها وغضبها المتفاقمين. هي نفسها خافت حين أدركت أنها محتقنة إلى درجة الغليان ولا قدرة لها على حالها. في البدء سعت إلى إشغال نفسها. استقبلت قريباتها على مزاجها وعادت إلى صاحبات لها انقطعت عنهنّ من وقت، لكن ذلك لم يطل. ارتابت في رضا عزيز السريع بخطتها والتزامه الغياب عنها، ونما الوسواس بسرعة نووية.

لا يخاف عزيز الصمت فهو يعيش تقريباً فيه. الأخوة ونسائهم وأولادهم لا يتكلمون إلا لحاجة. جاء ابن الأخ علي بسلمى من القرية المجاورة. كانت هذه لا تفعل شيئاً إلا وترفقه بكلام. تحمل المكنسة وتقول سأكنس، وكلّما جرّت المكنسة على الأرض قالت شيئاً، وإذا طبخت أو خرجت من غرفة إلى غرفة أبلغت، كأنها تكنس وتطبخ بكلامها أكثر مما تفعل بيدها. إذا ذهبت في نزهة أو مشوار روته بالكامل. تركوها على حالها. لم يقل لها أحد توقفي. لكن صمت الجميع كان مستحكماً، حتى انتبهت شيئاً فشيئاً أنها لا تكلم أحداً، فأمسكت لسانها بالتدريج، وجاء وقت صارت فيه تخشى أن ترفع صوتها لكي لا تنسى ما تعمله.

لا يحسّ عزيز أن الحياة تصنع بالكلام وأنها تنقطع بالصمت. لا يُلقيه سكوت الاثنين في حيرة، ولا يجعله يخشى من عطل، كذلك العطل الذي يطرأ فجأة على محرّك. كان يشعر أن الصلة أسهل في الصمت، وأن الصمت يحضن الصلات ويبيّنها بصورة أفضل، بل كان الحديث غالباً هو الذي يحدث فجوة، إذ قلماً يستدعي شيئاً من السامع، والأسوأ من ذلك أنه يبقى دائماً مهدداً بالصمت، وكأن كل ما بينه يمكن أن يتداعى في غمضة عين.

لم يُزعج صمت مريانا عزيز. كان يجدها هكذا قريبة منه ويحسّ أنها تجيب بعينها عن كل ما يبدو منه، وأحسّ ربّما لأول مرّة بالحياة السهلة. وحين ذهب أخيراً لزيارة ندى كان بدأ يعتاد. استقبلته ندى باردة. بالكاد أدارت وجهها عن الغاز.

- كيفك.

برهة سكوت قصيرة تتشاغل فيها وتضع يدها في أي شيء. كانت مضطربة ولا تسعى إلى إخفاء ذلك.

- منيح الي خطرنا على بالك. هيئتو راسك ما بيحمل. بيومين ضعت، كيف مريانا، خبروك أنو طلعت لعندا.
- أي عرفت.

- مين الي خبرك هيّ واللا ستّ أم راضي. طبعاً الستّ أم راضي ولاّ نسيت إنّو شافتنّي. عزّ يا سيدي. بالكاد حصّلت طيزا عن الكرسي.
علم عزيز بأن الحديث انعطف فحاول يائساً أن يفعل شيئاً:
- مش قصدا..

كان في هذه الكلمة ظلّ دفاع، لم تنتظر حتى يتم. أمسكت عليه كلمته:
- قصدا ولاّ مش قصدا. مين بيحسبلا حساب. مبارح كانت تلمّ لطوع الزبل ورح تضلّ ريحتها زبل شو ما عملت. قال إجا أبو راضي وقالولي يا ستّ أم راضي، مين كانوا بيعرفوا أبو راضي. طول عمرو الطز. راح الطز وإجا الطز. وطول الوقت يا عيني على مريانا. زغيري مريانا وهي قدّ البقرة.

تحوّل الكلام بعد قليل إليه.

- صار إلك بيت ومرا هلق. أنا الي لميتك وخليت لك قيمة بين الناس.
أنا الي وطيت حالي. بدّي أكثر من هيك. بيسوى الست (مطّت) أم راضي
وأقلّ منها يدعسوا عليي.

فوجئ عزيز بها ترتجف. ضربت خدّها براحتها فرنت الضربة. كانت
عينها مفتوحتين إلى آخرهما وتدقق الصراخ.

- شو واقف عم تتفرّج اطلع من هون اطلع اطلع.
وقف عاجزاً لكنّ صراخها ازداد فأذعن وخرج. وفيما هو ينزل، كان
صوتها يلحقه على الدرج.
- ارجع لأصلك.

عاد عزيز بعد يومين فتركته يدخل لكنها أغلقت عليها حجرتها فانتظر
قليلاً وخرج. في المرّة الثانية تركت البيت. لبست وحملت جزدانها وتركته
وسط الصالون وخرجت. في مرّات أخرى تشاغلّت في المطبخ وأهملته في
الصالون. أثناء ذلك غاب عزيز تقريباً عن مريانا. يقضي نهاره في طوران
ويطلع إلى الضيعة مساءً، فينسى أن يمرّ على بيت خطيبته، أو يمر دقائق
ويغادر دون أن يجلس. كلمته مريانا أخيراً فقال لها: «مبيّن بتعرفي تحكي».
كانت ندى تتكلّم على لسانه. أما أمّها فاجترّت كلاماً سخيّاً.

- بنات الناس مش لعبة، ما طلبنا منك شي.

أعطته مشكورة سبباً ليكون قاسياً فأجاب بجفاء:

- ولا أنا بدّي شي، صرنا صلح.

العمّ لم يكن أقلّ سخفًا:

- هذي مش عمّايل متعلّمين.

فردّ عزيز:

- ما في نصيب يا حج.

أرسل ورقة الطلاق وأصرّ العمّ على أن يتقاضى المهر كاملاً، فأرسله إليه عزيز سندات كتب عليها بخطه «ثمن بضاعة».

احتفلت ندى بعودة عزيز. سهرة لبست فيها ثوباً مكشوف الظهر. جلست على غير عادة جنبه وبقيت طيلة الوقت تمشي نصف راقصة وتلقي إليه نظرات طويلة وهي تميل برأسها، ولما اكتفت من كأس نبذ واحدة قامت ورقصت. للمرّة الأولى أراها ترقص. رقصت بأقل حركات ممكنة، بانسياب كأنّ الحركة تجري في جسدها، وكأنّ جسدها في الرقص يصغي إلى الموسيقى ويعيدها ثانية. رقصت بخفّة كأنها تسعى لتزف. كان رقصها سرّاً صامتاً. يتحرك جسدها كأنه عضلة واحدة وتحقق يداها. لكنها أيضاً رقصة الإصغاء والتوجّس والانتباه الشديد. كان في ليونتها وصمتها شيء من التسلّل، من الزحف اليقظ، من الأفعى.

بينما كنت أشاهد دفعتُ كأسِي بطرف قميصي، ذلك متوقع دائماً مني.
 انسكب الشراب دون رحمة على حافة الطاولة وانساب إلى الكرسي فالأرض،
 بينما وقفتُ جانباً وبقعة كبيرة على بنطلوني. تطلعتُ إليّ وعجلت إلى المطبخ
 وعادت حاملة فوطة، وبثوبها الطويل نزلت إلى الأرض لتمسح السائل،
 وفيما هي تفعل ذلك انفجرت بضحكة عالية، وضحكنا معاً وقامت إليّ
 فأحاطت كنتفي بذراعيها، وبضمة سريعة مسحت خجلي.

- أتقل علينا

قالت هذا بنصف شفة وكأنها تسلمه سرّاً. ثم بصوت أعلى

- يا سيدي مش فاضي من المعجبات.

لا شك أن جمال سليم استغرب ذلك من المرأة التي كانت قبل أيام
 تكلمه وكأنه في مقام فلاحيها. قال بلياقة اعتادها:

- العفو ما بنستغني. بس الشغل حاكم يا أم أيمن.

سمعت (أم أيمن) بقدر من الهزء. هكذا يخاطبها فقط السمكري
 وصاحب الدكان.

- اطلع منها. مخمّن إتو ما بنعرف.

- ما في وقت للنسوان.

أجابته مخنقة وكأنها المعنية.

- بتموتوا على ريحة مرا.

سكت كأن الموضوع لا يعنيه. لكنها كانت وصلت إلى حيث لا تريد
أن تتراجع. جلست قبالتها.

- وينا نعيمة؟

ابتلع السؤال وأجاب:

- بيروت.

- عارفة بيروت. قصدي وينكن؟

لم يجد ثانية سوى السكوت. كان محاصرًا مرة أخرى.

لم تتابع. أمسكت حبة بندورة من الصحن وقدمتها له وكأنها تطعمه
بيديها.

نظرت إلى الجالسات وقالت وهي تشملهن بحركة ذراعها:

- بدينك مش حلوين؟

- أكيد.

انصرفت عنه، والحديث دائر. لم يعرف ماذا لفظ. أحسّ بها تدفعه
بيدها في صدره دفعة انقلب على أثرها إلى الكنبه. فاجأ هذا الجميع.

تلك الفترة لم يكن عزيز كثير الزيارة لندى. تلك من فترات القطيعة الغامضة، والأرجح أنها طالت. يزورها من وقت إلى وقت. لا يطيل القعود. يتصرف وكأنه موظف في إجازة يتفقد مكتبه. تستقبله صامته ويشرب القهوة شاردًا، ويقوم من الباب دون أن يودع غالبًا. كان هذا يجعلنا نحن الثلاثة صامتين، فإذا تركنا جرى الحديث بيننا. كان ذلك سهلًا من الأيام الأولى. قالت لي مرة وهي تشير:

- قَلَّو شو بيها بنت السكري. دايرة عليه، وهو مثل ما شايف قافل وجهه. خليه يلف عليها. يعيش نتفه.

شجعت من قبل عزيز على أميرة السكري التي لا تُخفي تعلّقها به. كانت في صفّ البكالوريا لكن أكبر عمرًا من زميلاتها، فقد سبقت لها تجربة زواج انتهت بالطلاق بعد عامين. عادت إلى المدرسة فصعب عليها أن تكون تلميذة حقًا. الزواج انعطف بحياتها تمامًا. منذ رأت عزيز في الصف وهي تلاحقه، وعزيز غير شاعر، حتى أخذت على نفسي كالعادة أن أنبّهه. لم يخبرني عزيز عن قلقه من زيارات جمال سليم ولم يخبر أحدًا أن جمال زار ندى في الجبل الذي أمضت فيه بعض الصيف مع عائلتها. كان مفتاح بيتها مع عزيز وزارته أميرة السكري فيه زيارة لم تتكرر. قالت لي ندى فيما بعد إن رغبة عزيز فيها ماتت منذ وصلت، ولم يستطع أن يقترب منها. قالت إن عزيز أخبرها بذلك وهو يبكي.

حين استلمت دفتر مذكرات عزيز بعد وفاته قرأت بلغته: «الطعنات

في قلبي، يدقون حراهم في جسدي الخيانة والغدر والموت...» كان هذا هو الأدب بالنسبة إليه. أما تاريخ الكلام فهو في ذلك الصيف. كتبه على الأرجح بعد أن علم بزيارة جمال لندي في مصيفها.

فترة وفاق وفترة جفاء. كنا على العشاء وانفجر غضبها فجأة كالعادة. لم تكن التهم واضحة.

- مخمّني مش شايقة. أنا ما بيمرق عليي شي. قال عقلو كبير. تاريه ما بيحمل غمزة.

لم يجب عزيز، لكنها لما زادت صراخاً ترك طعامه. فعل هذا فوراً وكأنه قصاص. أما ندى فاحتدمت أكثر.

- اتركوني. خلص زهقت. بيروح التعيس بيعجي خايب الرجا. حلّوا خلص حلّوا.

لم تكن تعرف من تخاطب. ليس شخصاً واحداً بل عديدين. كان عزيز في طرف الطاولة يحاول أن يحتفي، ونحن معه ننتظر إلى أن تستنفد غضبها. كنا بمعنى ما معاقين جميعاً ومستائين حيال ذنب غامض وبلا تاريخ، وكراهية بلا موضوع. غضب ندى لا يحتاج إلى مناسبة، إنه حدث في جسمها وعقلها فقط. في هذه اللحظة كنا جميعاً سواء عزيز، وأنا وطعان الغائب وزين ومحاسن. لم يكن صمت عزيز ولا اعتذاره

يهدّئانها بل يستغفرّانها أكثر وكأنهما طلب غفران رخيص، ومعدرة لا تريد أن تمنحها.

قلت لندي مرّة:

- روّقيها مش ملاحظة إنو عم يتألم.

كانت هذه المرّة الأولى التي أتكلّم معها هكذا، فاجأها كلامي لكنها لم تجب. لم أحسّ أنها تضايقت وأحسب أنها رحّبت. كان لا بد من ثالث لتحريك هذه العلاقة من سوء التفاهم المستحكم فيها. مرة أخرى قلت لها إنّ مهنة التعذيب هذه ليست حبًّا. سمعت مدهوشة وشاعرة بالغبن كذلك، لكنها لم تجادل. لم أكن أعرف فعلاً ما هو حبهما. دعتنا إلى بيروت وأخذنا صوراً في المطعم. كان كرمها مساوياً لغضبها. كنت أنا بمعنى ما في رعايتها، وفي لحظة تلف عصبي لم أجد سواها شخصاً أبكي أمامه. كرم ندى ليس خصلة، إنه تقريباً طبيعتها الثانية، إنها الواهة وتجد دائماً شيئاً تعطيه لكل طالب. ليست غنية لكنها لا تشبه ما هي عليه: موظفة بسيطة وزوجة موظف بسيط. زملاؤها أنفسهم لا يجدونها من صنفهم، وبعضهم لا يتردد في أن يطلب مساعدتها، الغريب أنها كانت تملك دائماً شيئاً تعطيه. هي الوحيدة التي تقبل دون تحفّظ من أشقائها أن يتركوا عندها أطفالاً في الثانية أياماً طويلة، ويعلمون أنهم عندها بأمان، وهي بالتأكيد أمّ ثانية لأولاد أشقائها، بل أمّ ثانية لأشقائها، ونساء أشقائها وجدن أنفسهنّ تحت رعايتها التي ضمّت إليها بالطبع عزيز وأقرباءه

المقربين منه وأصدقاءه وصديقاتهم ومقرببيهم. كنا جميعًا عائلتها، أي أننا على نحو ما ننتمي إليها.

لعلّعة رصاص شبه متواصلة على التلال ورشقات متقطعة في أوساط القرية، لا يتساءل أحد عن مصدرها، كأنها نبتت من الخطر. كانت مع الهدير المنبعث من الحسينية تجمع القرية من بابها إلى مغلقها. ولما حاول واحد من الشبان المعجبين بالنظام أن يحتج بأنه لا يستطيع أن ينام، رفع الأستاذ عينيه إليه مستغرباً وقال له:

- ما إلك شغله إلا النوم.

ووافقهم الجميع فإن الوقت لم يعد للنوم، وخجل الشاب من نفسه.

كان المسلّحون يصعدون إلى الضيعة من معسكرهم في الوادي، لكنّ الضيعة ما لبثت أن امتلأت بمسلّحين من قرى الجوار ومن طوران ويبروت أيضًا. وتردّد أن مسؤولين من بيروت يزورونها ليلاً، ثم بات ظهورهم في الحسينية علناً، وكان ممكناً أن ترى اثنين أو ثلاثة منهم في مدخلها محاطين بأفراد من التنظيم يلقون إليهم الأوامر بصوت خافت ويطيرون هؤلاء إلى تنفيذها. كثر الأغراب في الضيعة لكنّ ذلك لم يستفزّ أحداً، فمنذ وقت والناس يعتقدون أن القرية هي حقاً كما يسمّيها الأستاذ بيضة الجنوب وقلعة الجنوب. كانت الأعلام الحمراء والصفراء أعلامها

والمسلحون الذين يسرون إلى التلال في صفوف تتقدمها أعلام عالية جيشها. أما التلال الصامته، الصامته أكثر بالكائن والمسلحين المختفين فيها، فحدودها.

الهدير والرصاص والأعلام والعسكر المنتظمون وراء أعلامهم، والأغراب المنتشرون في الضيعة، والحشود التي لا تنفص من الحسينية، والحرس على مداخل القرية وفي نقاط منها، والفتيان الذين لا يفعلون سوى أن يتوجّهوا من صبحهم إلى الحسينية، كل هذا جعل القرية شيئاً آخر.

يزدري شبانها وربما كبارها القرى المجاورة، ويرونها صغيرة عاجزة. لم تكن «الظهيرة» سوى لقمة. و«الصعبية» الواقعة على منعطف الطريق رخوة، شبابها وبناتها هكذا. و«السهل» و«المارية» و«الحمرا» كلّها خاضعة للفلسطينيين وأعيانها يرتجفون أمام «غوارنة» سود، وبناتها محلولات الدكة لكل غريب.

لم يبالِ شاب من «الميدان» بأن يطلق رصاصة من مسدسه في وسط ساحة الصعبيّة وصدق ظنّه فلم يبادر إليه أحد. سيارات «الميدان» كانت تمر وسط الصعبيّة ظافرة ومن نوافذها أحياناً يرسم شبان صغار علامات نصر أمام من يصادفونهم على الطريق، وربما خرجت ماسورة كلاشن على مرأى ومسمع الناس. حين طلع مختار الضيعة ليشكو للأستاذ قال له الأستاذ وليس بدون تهكم:

- قووا قلبكم. الشباب مش قصدن شي. ليش ما بتشكو للمنظمات؟
وخرج المختار من عنده عبرة. ضرب شاب من الميدان آخر من صور
سكيناً في خاصرته وطلع إلى قريته واختفى فيها.

فلت الشبان في الساحة. حاول الآباء شدّهم لكنهم انتهوا إلى أن يقعوا
تحت سحر الكلاشن، الذي يحضره الابن معه إلى البيت ويتركه مع اللعبة على
الدرسوار، وهو يجلس للغداء. الفتيات وحدهنّ شدّواهنّ الحبل، فالإخوة
الكبار أصعب عليهنّ من الآباء. شرف الإخوة متصل بسلاحهم والدفاع
عنه إلزام. في يومين مُنعت التمشّيات على طريق العين القديمة، مُنعت تماماً
وخلت الطريق من المتمشّين واضطرون جميعاً إلى ارتداء الحجاب ولم تعد
واحدة منهنّ سافرة. فُرض عليهنّ تجنّب المرور في الساحة، ثمّ كان أن حدثت
في البلدة الحادثة التي لم تحدث من 25 سنة.

كايد فرحات من القبضايات وأوّل طلعتة لم يكن له مثيل. ضرب
بدون خوف الساييس كبير زلم أحمد البيك، وضع المسدّس في فمه، وابتلعها
الساييس وسكت. أطلق النار على الشمدين وهو أيضاً قبضاي مشهور
وأصابه. كان في تلك الآونة كالمجنون. ذهب إلى السراي وصفع رامز
أخا أحمد البيك أمام الناس، وبقي في مكانه ساعة متحدّياً. شغل بأخباره
المنطقة كلّها، وعلى مدار أسبوعين كان يفرفر بدمه، ثمّ نصب له زلم البيك
كميناً وأطلقوا عليه الرصاص. كان فخاً سار إليه بطيشه المعتاد. حين لم

يمت دبروا له دعوى. اتهموه بالشمدين وحبسه، سنتين أو ثلاثاً ثم أطلقه المسلحون الذين حرّروا المساجين في بيروت، فعاد إلى الضيعة هادئاً، بل توجه من يومه إلى الجامع. أطلق لحيته ووضع على رأسه قلنسوة ولم يطل الوقت حتى التحق بالتنظيم، وبات بعد قليل مدرّباً ومسؤولاً عسكرياً في معسكر الوادي.

كان يحضر إلى الضيعة ويكثر العبادة ويعامل الجميع بلطف وصوت خفيض. ثم فجأة دخل البيت وذبح أخته فاطمة، وتركها في دمها على الأرض، وخرج إلى الساحة وجلس أمام الدكان يشرب القهوة.

لم تفعل فاطمة شيئاً يذكر. قيل إنه شاهدها تكلم معلّم في الضيعة، سمع أنها تودّه فلم يطق ذلك. لم يكن هذا يناسب ثوبه العسكري وسلاحه. عيّ عيار الشرف. بات شرف الضيعة كلّها، كل غبرة وإن صغيرة تهدّده. جعل السلاح الشرف صعباً. كان على الفتيات أن يتحسّبن لكل خطوة.

لم تُنكر الضيعة فعلة كايد فرحات. علم الجميع أن القصة لا تستحق، وما فعلته الفتاة لا يستاهل. لكنهم مع ذلك لم يجافوا كايد فرحات، وبقي له مقعده أمام الدكان ومسؤوليته في عسكر التنظيم. لم تكن القصة تستحق، لكن فعلة كايد مطلوبة لتربي الجميع. أشفق الناس على الصبية لكن دمائها غسلت شيئاً في الضيعة. بل باتت الضيعة بعد مقتلها أنصع وأعزّ شرفاً. كايد نفسه انكسر بعد الحادثة وزاد صمته وقلّ قدومه إلى الضيعة. انقطع تقريباً في قاعدة الوادي.

ظَلَّت ندى على حالها تصعد إلى الضيعة، تسهر مع عزيز. ويطلعان وأطلع معهما أحياناً إلى البيت الذي يبنيه على ربوة في أوّل القرية. تطلع بشقرتها وثوبها الملفوف على جسمها والمشقوق أحياناً في أسفله. تنظر إلى أهل الضيعة من وراء نظّارتيها الشمسيّتين الواسعتين على وجهها. علمت بمقتل فاطمة لكنها لم تخف. أهل زوجها كانوا بين قليلين استنكروا الحادثة. عزيز وأصدقاؤه لم يشعروا بما جرى، باتوا دون أن يحسّوا شبه مهجورين.

بات التنظيم كل حياة الضيعة من اليقظة إلى النوم. الكبار لا يتحدثون إلاّ بأخبار أولادهم فيه والجميع يتناقلون أن علي طعّان أحرز الأوّلية في الرماية، وأن المعسكر يتدرّب اليوم على الآربي جي. كل القرية مشغولة بأقوال المسؤول الذي زار القرية مع أنه قالها في جلسة خاصة. كل القرية تعرف أن سلاحاً دخل القرية وأن سلاحاً آخر على الطريق. كل القرية تعرف ما بين المسؤولين من تنافس وتنقسم بينهم. لما سمعوا أن الأستاذ ومصطفى أبو غانم تعاليا عن أن يكونا في قيادة التنظيم العليا - كبرت في رؤوسهم واستعزوا بقريتهم. باتت القرية التي تقع في آخر الطريق وليس بعدها قرية، ولا يمرّ فيها أحد، ولا تنصب فيها سوق عامة، وقلّما ينزح أهلها إلى بيروت، ومادياتها شحيحة، وأكثرها مملوك لبيكوات من

الخارج وأهلها مربى (القلاع) (*) والصخور. باتت هذه بيضة المنطقة. عاشت الميدان. عاشت الميدان قلعة الجنوب. عاشت الميدان قلعة لبنان. كتابات تملأ الحيطان. لا يظن الشبان أن أحداً يستطيع صد كلاشيناتهم التي لم يستعملوها بعد. كانوا، بدءاً من الصعبية التي إذارموا حجراً إليها وصل، محاطين بمسلحي المنظمات الفلسطينية وحلفائها. لكنهم لا يرون سوى كلاشيناتهم، وكلما تزايدت شعروا أن خزان القوة لا يجفّ. حين قال الحاج ديب خال الأستاذ مصطفى المقيم في بيروت لابن أخته إنهم لا يقدرون على الناس جميعاً، أجاب الأستاذ:

- نحنا هون. يقربوا إذا بيقدروا. عنّا أسود.

والكلمة صارت على كل شفة (عنّا أسود). كانوا أسوداً ولا يستطيع أحد أن يقترب.

الهدير المبعوث من الحسينية يملأ الضيعة كلّها. يخترقها إلى آخر زاروب، يخترقها من بابها إلى مغلقها كسلك. الأستاذ قادر من مكانه في الحسينية على أن يبلغ أيّا كان ما يريد قبل أن ينهي سيجارته، حتى ضحكته كانت تتردّد في البيوت. الناس امتنعوا تقريباً عن الذهاب إلى الحقول، وباتوا يمشون صباحاتهم في الحسينية وما حولها. يتركون بيوتهم مفتوحة وتراها تمتلئ في لمحّة. الجمعات تنتقل من زاوية إلى زاوية، وتتنظّم وتتفرق بسرعة كجيوش النمل. كانت الضيعة سلكاً واحداً، إلاّ عزيز والقربين إليه فهم خارج

(*) القلاع هي الأراضي الوعرة في لهجة جنوبية.

التيار. بعد أن باتت سيطرة التنظيم على القرية علنية، فقدوا أي اتصال بها. ما عاد بوسعهم الوقوف في الساحة والحضور إلى الحسينية طبعاً ولا حتى التأخر في زاروب، فهذه بدت وكأنها أملاك خصومهم. كانت لهم بيوتهم وحدها يطيلون فيها البقاء، يتزاورون قليلاً في النهار وفي المساء يلتقون لشرب الشاي عند عزيز الذي يصعد عندها إلى الميدان. كانوا يرون الجمعات ويسمعون الضجة ولا يتميِّزون أي شيء. لم يرتابوا في أنهم محاصرون، كانوا يقولون إنهم قرفوا من الضيعة بعد أن وجدوها هكذا، ويحسبون أنهم هم الذين هجروها.

لم يقل أحد إن الضيعة مهددة، لكن الذين رأوا السلاح والكمائن والأغراب والحراسة الليلية والحشد الدائم في الحسينية شعروا أن الضيعة في خطر، وامتنعوا عن الذهاب إلى الحقول. لم يهدد أحد الضيعة لكن أهلها رأوا سلاحاً في أيديهم بهذه الكثرة فخافوا. كان دليلهم من عندهم وكفاهم. هكذا مضى أسبوع على الناس وهي لا تنام ولا ترتاح ولا تعمل. وكان يمكن أن تملّ وتعود إلى عاداتها لولا حادثة المعسكر.

في معسكر الوادي والفتيان في ساعة تدريب على الوادي، كان كايد فرحات الضخم يدير في يده لغمًا وهو جالس على الأرض. لا يتكلم ولا يرى سوى اللغم الذي بدأ يفككه بحذر لكنه شعر أنه سها عن شيء، وقبل أن يتحقق منه كان اللغم على وشك الانفجار. رمى نفسه عليه

وانفجر به وبمن حوله. مات 15 شاباً للضيعة 7 منهم.

دوى الانفجار في الضيعة كلّها. صعد دخانه إليها، وقال أناس في الأطراف إنهم شمّوا البارود. ركضت الضيعة إلى الوادي. حين وصلوا صادفوا العلم مقدوفاً مع عصاه إلى أول النزلة. وجدوا الخيم منكّبة على الأرض مقلوعة من أوتادها مغطاة بالردم والتراب، وفي كل مكان حول المعسكر نُتف من أوان وقماش وطعام وصوف كثير منعوف من فرش مبقورة ومتنّفة. أمام خيمة القيادة طاولة مسحوقة تماماً وفي ساحة المعسكر المنعمّة من الصخور لم يكن هناك شيء، لكن ثمة من رأى لحماً مطحوناً على الصخور المحيطة. لا أحد تقريباً. مسلّحان جالسان تائهن وكأنيهما ضائعان عن سربهما، أمّا البقية فنزل قسم منهم مع القتلى والجرحى، وقسم آخر طفر على الصخور واختفى مرعوباً بين الشجيرات.

قُتل أخو الأستاذ الأصغر كذلك ابن أخت الشيخ وابن المختار.

توزّعت الأعلام السود الصغيرة على كل شبايك القرية وسطوحها وشرفاتها ودكاكينها وأعمدتها. كانت القرية مرجاً من هذه الرايات الصغيرة. أمّا الحيطان فلسبب ما امتلأت برسوم الكفّ المقطوعة المخضّبة، كفّ العباس الإمام العطشان. حدث هذا بدون إشارة من أحد. كان في رسم اليد المقطوعة الحية تعزية لهؤلاء الناس الذين وجدوا أبناءهم وأحبّاءهم قطعاً وأشلاء، أو أن فيه إشارة إلى أن هذه الأشلاء الممزّقة ستكون منارة كما هي كفّ العباس.

في الأيام الأولى كانت الضيعة جمعًا واحدًا يخرج من بيت أو ينتقل من أول الضيعة إلى داخلها، أو من طرفها الثاني إلى وسطها وأولها. كانت جميعها مع الأطفال في البيوت السبعة.

لم يبك الأستاذ عندما علم بوفاة أخيه. كان في باحة المستشفى محاطًا بأركانها الثلاثة. وصل الخبر إلى مصطفى أبو غانم فاقترب من الأستاذ وأخذه جانبًا وهمس له بأن أخاه سليمان «بحياتك البقا» لكن أبو غانم ما إن لاحظ في وجهه جزعًا حتى قال له بشيء من الحدة:

- شدّ حيلك الناس بتطلع فيك.

جفل الأستاذ وأمسك نفسه فورًا. وعندما تقدّم الناس لتعزيته كان شبه ميت لا ينفعل، لكنه يردّد كما لو كان يسلي نفسه حديثًا للنبي «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يغضب الرب»، ويتطلّع بوجه فاقد السنّ وحائر الجنس وأحيانًا فاقد التعبير.

جمعت الجنازة عشرين ألفًا ملأوا الساحة، تدفّقوا إلى الأزقة والشوارع الخلفية أحيانًا، وحين ساروا بسبعة نعوش لم يكن أمامهم طريق، فبدوا وكأنهم يتحركون في مواضعهم. بدوا يمشون أكثر مما يمشون. أنفقوا ست ساعات في هذه الحركة المحبوسة، حتى بلغوا المقبرة وأمام الجميع رئيس التنظيم شابكًا يده بذراع الأستاذ. الرئيس بشياكة أثرياء الريف، طقم ثقيل متأخر

عموماً عن الموضة يميل إلى الوسع ويشبه القماش السميك الذي يغطون به كنباتهم لكي لا ييلها الاستعمال. والأستاذ بهذا الوجه الضائع العمر والجنس والتعبير وثيابه كثياب معلّمي الريف، أي شيء يبدو طقماً وربطة عنق ولا عبرة كثيراً بالألوان والتفصيل. الاثنان يتقدمان بالسنتيمتر تقريباً، الشاعر في المقدمة وجهه إليهما كأنه يخاطبهما وحدهما. والنائحات يرقصن أمامهما والنعوش السبعة، نعم النعوش السبعة، تتقدمهما كالنجوم.

كانوا عشرين ألفاً. حضروا من كل الجنوب، قرية قرية ومع كل قرية طبلها وشاعرها، ستة أضعاف سكان القرية تقريباً. من وصلوا أولاً توجّهوا بسنجدتهم إلى الحسينية. وقف شاعرهم على المدخل ينشد ويردّدون بعده، إلى أن خرجت الحسينية كلّها لاستقبالهم. كان إنشاد معد للموتى الشبان. بين الندب والأهزوجة، لكن الشاعر ختمه بما يشبه العراضة الحربية. في الداخل عائلات القتلى ومعها قادة التنظيم يجلسون على طول الجدار المقابل. كان واضحاً أن الجو يتجاوز أحزانهم الصغيرة لذا كتبوها، ولم يخل الأمر من فرقعة بكاء من وقت لآخر وسط هذا العدد الخرافي. سكتوا وبدأ قادة التنظيم أوجه منهم، ومن جاءوا يقصدونهم بشكل خاص. حين زاد العدد، لم يعد في وسع القادمين أن يصلوا إلى الحسينية فباتوا ينصبون سنجدتهم في الساحة وينشد شاعرهم ويعجل من اجتمع في القرية من أهلها وغير أهلها إلى استقبالهم. وفي النهاية اختلطت السناجق والشعراء والجماعات والرايات فكنت تسمع وترى نوعاً من بابل شعرية وبشرية. أمّا القرى التي حازت الاهتمام فهي التي نزل مسافروها إلى الساحة في مسايعة

أقرب إلى الرقص . يتعد فيها المسايغان مسافات محسوبة ويقتربان بحساب ويتماسّ سيفاهما بعد أن يرنّا على التروس ويفترقان ما إن يتماسّا، ويعود المسايغان إلى ما يشبه الدوران أحدهما على الآخر . كل هذا وسط الرايات المرفوعة، راية كل قرية وجماعة . سوق أخذ يغصّ حتى ضاعت فيه عائلات القتلى وصار حالهم حال أهل القرية كلّهم . بل نسوا تقرّيباً فلم يبق أحد لمخاصرتهم وجبر خواطرها . كان قادة التنظيم وحدهم يستقبلون الجموع التي تتوجّه فوراً إليهم، في جوّ احتفالي بدت فيه أحزان الأهل صغيرة، حتى أن المختار حينما انهار ونشج ظهر وحيداً إلى حدّ فظيع . وحين بدأ الجمع يرقص ليسير إلى المقبرة، وصل رئيس التنظيم فاندمجت الجموع ورُفعت في لحظة واحدة عشرات بل مئات من رايات التنظيم التي غطت على ييارق القرى وصارت بأحمرها وأصفرها ورُفرتها تتقدم وسط غابة من رايات سوداء صغيرة ملوّحة . كان في هذا ما يشبه التهريج . ابتلعت رايات التنظيم المناديل والأعلام السود . وبدون أن نعرف كيف، اختفت، بل اختفت معها سناجق القرى وأعلامها ومنشدوها، فيما تقدّم الرئيس والأستاذ ومعهما أركان التنظيم والشيخ والمختار وآباء القتلى . لكن الرئيس والأستاذ كانا وحدهما أمام الجمع، ثم خرج من الميكروفون صوت نشيد التنظيم وجاوبته فوراً فرقة حاضرة وتابعهم بتعثر بعض المشييعين . سكت النشيد فعلت الهتافات بحياة الرئيس والتنظيم وبدأوا يرقصون الرايات ويرفعونها أعلى من التوابيت، وارتفعت كلاشينات كثيرة في وقت واحد وأمطر رصاص أصاب خط التوتر العالي الذي سقط وهو يترّ باللهب،

ولمعجزة لم يسقط على أحد. لكن الكلاشينات استمرت مع ذلك ووقف الرئيس والأستاذ يحييان الجمع، انقلب الأمر إلى التتويج.

قالت مريم أخت الأستاذ إنها منذ الانفجار لم تعد تطيق عزيز. كانت مهذومة على الكنبه تحلّ المنديل بيد واحدة عن رأسها، وتترك شعرها يستريح بعد العزاء الشاق. لم يبق سوى عمّتها وابتيتها اللواتي يُرحن أرجلهن على السجادة وسط فوضى الكراسي الفارغة.

- ما إلي عين تشوفو.

وجهها عريض واسع وتحت جبينها المنبسط بدت عيناها حرتين رقرقتين، بعد أن كانتا تحت الحجاب الذي يخنق جبينها محصورتين حادثتين. في أواخر العشرينيات أصغر من الأستاذ بأربعة أعوام أو خمسة، ولها مع ذلك سطوة عليه، وتكاد تساويه مسؤولية في التنظيم ففي يدها الفرع النسائي كلّ. كانت جميلة ومتفوّقة في المدرسة وجريئة على الجميع ولم تجد من تحسّ أنه يستحقّ جماها وقوّتها. حرّة تذهب وتروح كما تشاء في سيارتها. هي الوحيدة على كل حال التي تفعل ذلك في القرية، والوحيدة التي تملك سيارة. لم يذبل جماها لكنّ وجهها انبسط وامتلأ وربما استدار قليلاً، كأنها ليلائم حجابها. كان شعرها الجميل مسترخياً على حافة الكنبه وهي تقول بعينين مغمضتين:

- طالعين نازلين من الساحة عالظهور ومن الظهور عالساحة، ولو
يُحترموا مشاعر الناس.

جفلت عمّتها فعزیز قریب وأخته عشيرة عمرها، لكنها لم تتكلم. أمّا
الفتاتان المعجبتان بمریم فقالت كبراهما:

- ما بیسوا.

في دور العزاء السبع قالوا الكلام نفسه تقريباً. لم یزر عزیز أياً من هذه
الدور، لم یزر حتی المختار والشیخ. من زمن وهو لا یحضر مأتماً فهذه کلّها
باتت احتفالات للتنظیم، لكنهم في كل دار تحدّثوا بها.

- مش فاضي یحیی، مش تارکته ساعة.

قال یاسر ابن صاحب الدکان وسط المعزّین. ندی عزّت البیوت السبعة
واستقبلنها كالعادة، وإن أشاحت مریم عنها ومدّت لها یداً باردة. استقبلنها
بالبكاء ووسّعن لها.

مریم تکرهها من قديم وندی تردّ ذلك إلى أنهم حکوا بمریم وبعزیز
ذات يوم في العائلة، وضحکت مریم ولم تکتث، ولم یعرف عزیز. کان
ذلك في مطلع عشرينياتها، ولم یظهر على مریم يوماً أنها مهتمة بالزواج.
سبعة ماتم لم یبال بها عزیز. ولم یحب الشیخ حين قالت له أخته:

- إجا عزّاك. بعلمي صاحبك وبتحامي عنو، هذا ما إلو أصل.

أمّا المختار فاستعظم ذلك وقال:

- ما عاد فيّي اتصوروا.

وحده الأستاذ قال بلهجة ظاهرها العتب:

- الله يسامحه، واجب مثل هذا ما حدا بيتاً آخر عنو.

قال كثيرون إنه خان أصله (دود الخل منو وفيه) وإنه أنكر بلدته. قالوا إنه لا يحترم قبور الصالحين التي يمرّ بها وهو طالع إلى ظهور الضيعة ومعه ندى. قالوا إنه لا يحترم الصداقة والعشرة ولا الأهل والقرية. «ماذا يفعل في الضيعة» قالت الحاجة فاطمة أخت الرجال، «ولماذا يعمر فيها ويدير ثانويتها». كان هذا في نظرها اغتصاباً، قالت إنه لم يُعزّز بالسبعة وأربعة منهم تلاميذ عنده.

- شو بيعملن إذا موتن وحياتن مثل بعضا عندو.

لماذا اختار مشرفاً من الضيعة ليعمر فيه، إذا كان يكره ترابها. كلّ من أجل هذه الزانية التي لا تستحي وتأتي للقاء عشيقها والضيعة غاطسة في الحداد.

خطب الأستاذ يوم الجنازة وبعده قال: «إن دماءهم لن تذهب هدراً». هذا كلام يقال كل حين لكنه هذه المرّة أيضاً بدا حقيقياً، هناك دم كثير

ضائع ولا بدّ أن يدفع أحد الثمن. فكّر البعض أن الحق على التنظيم. كايد فرحات أخطأ ورمى نفسه على اللغم ليداري خطأه. تجرّأ المختار وقال:

- شو بيّفهمو كايد فرحات بالتدريّب، خرّيج سجون، بياخدوا ولادنا وييدربوهن.

لكنها دماء سبعة ولا يمكن أن يكون ذلك مجرّد سهو، مجرّد حادث اندفن مع كايد فرحات. كان البعض يتساءل عن جدوى المعسكر لكنّ أحدًا لم يلفظ شيئًا. بعد أن ساح الدم في المعسكر صار مزارًا لا يمكن الشك فيه ولا يمكن اقتلاعه بعد. كان موتهم دليلًا غريبًا وشاذًا على جدواه، سبعة قتلى، لا بدّ من شيء لتستحقّهم القرية، لتصبح جديدة بهم. الفتيات بعد الحجاب غطسن هذه المرّة في عباءات سوداء وثياب واسعة. عمر المسجد بالمصلّين في كل أوقات الصلاة. ارتفعت على سطوح المنازل صيحات الأذان من كل صوب عند الفجر. عمّت مجالس العزاء الضيعة وبّت تسمع المقرّئات والمقرّئين في كل بيت. تشدد الجميع في قراءة الأدعية في كل وقت. خرج الفتيان كل ليلة يصيحون «حيدر، حيدر» ويلطمون بأيدي قوية على صدورهم العارية. وفي العاشر من محرّم انفجرت الدماء من الجروح تحت القبضات التي تهدّد الصدور. وحين انكسف القمر في إحدى الليالي طلعت النسوة والرجال إلى أعالي المنازل يرفعون أنوفهم إلى السماء ويصيحون «الله أكبر» من كل الضيعة ثم ساروا جميعًا إلى المسجد يصلّون ويبتهلون وأكثرهم يبكي فرغًا. كانت هذه مناحة التطهير.

كان عزيز يتوجّه في الصباح إلى «الظهور» يتفقد البناء وينزل إلى المدينة ليمرّ على الحدّاد والنجار، وغالبًا ما يعود العصر ومعه ندى، يتركان السيارة قريبة ويسيران إلى البناء. لم يكن يرى أصحابه إلا نادرًا. هؤلاء لزموا بيوتهم وذلك أفضل له، فقد بدأ من وقت يملّ منهم ومن كل حديث عن القرية. بل أبدى غير مرّة صمًّا تجاه أخبارهم لم يعجبهم. لم يكن الشيخ ولا المختر ولا الأستاذ ولا التنظيم بعد موجودين بالنسبة إليه. كان في البناء وندى وقعدة البيت الكفاية. لا يسأل ولا يهتم، بل هو من أسابيع يهمل اجتماعات المجلس السياسي نفسها. ترك مسؤوليته تقريبًا لمساعديه. قلّت زيارته للمستشفى وكان يؤس من إصلاحه. فجأة تعب منهم جميعًا. كان يهّمه البناء، الأحجار، الخشب، السياج، وأهمّ منها ذلك الوفاق الذي يتصل بينه وبين ندى طوال النهار. يتوافقان على نوع الحجر ونقشة الخشب وتشبيكة الحديد. وغالبًا ما يحمل إليها النجار والحدّاد والبناء لتكلّمهم بنفسها، أو يذهبان معًا إليهم. والعصر حين يتفقدان ما تمّ من البناء، يجلسان على الحجارة المعمرة وينظران إلى الوادي و«صور» الجائمة بعده ويروحان يتحدثان.

كان مكثفياً بذلك. ربّما لأول مرّة. انزعج في البدء من انهماكات البناء التي بدت له عقيمة وبلا نهاية. لكن ما لبث أن أخذه شيئًا فشيئًا. صار يجد متعة في الجلوس وسط الحجارة المبعثرة وأكوام الرمل ورؤية الحائط وهو ينمو كما تنمو نبتة. وجد في هذه النظرة التي يردها الحجر إليه راحة

خرساء وعديمة المعنى أيضًا. أن يجلس وينهمك ويوجد بلا أفكار تقريبًا، إلا ما يكفي ليد، وقدميه وعمله.

كان وندى متقاربين جدًا. كأنَّ للبناء وهو يرتفع فعل التميمة والحجر الشافي. يعيشان قريبين بلا وسواس. لم يفكر كثيرًا في ما بعد، لكنَّ هذا البيت لهما. استراحت ندى. كانت الآن مستغرقة دائيًا، لها في رأسها صورة عن سياج الدرازين وحديد البوابة ومقابض الأبواب وشكل المغسلة ولون خشب الأبواب وانعطاف الدرج. بوسعها أن تجد ما لا يُحصى لانشغالها، في الحَمَّام والمطبخ ولكل غرفة وممشى. رسمت كل شيء وتعبت كثيرًا لتفهم البناء وسواه. كانت مشغولة جدًا. امرأة لا تشك لحظة في نفسها ولا دورها، تضع نفسها دون صعوبة في قطعة حديد أو خشب. الأمر الذي تعلَّمه عزيز بصعوبة أكبر. لكنه لحقها كالعادة وقدر على مجاراتها.

قالت مريم:

- ليش ما بيعمر بصور؟

كان عزيز يُكره الضيعة على أن يكون له أكبر بيت فيها، ويُكرهها على أن تراه هو وزانيتة يدوسان دون اكتراث الأرض الطرية بالدم في رواحهما ومحيئتهما. يُكرهها على أن يكون مديرًا لثانويتها.

كان الانفجار دليلاً غريبًا على أن القرية مهددة في أي وقت، وعليها أن

تستعدّ مهّدّة من الجميع، حتى من القوات الدولية التي عمّرت مرصداً وحاجزاً في مدخل القرية. الخطر يبدأ بعد أول منعطف ومن هناك وما بعده لا يأتي أي خير. لم يشك أحد أن الميدان محاصرة: ومن ينزل إلى صور ينزل مضطراً ويذهب وكأنه يتسلل بين صفوف الأعداء، والأخبار تأتي مخيفة: نصبوا فوق القمّة المقابلة مدفعية صوب القرية. نشروا في الوادي المقابل قوات. عثروا على أكثر من دورية استطلاع. استقدموا من صيدا قوات إضافية. المخيمات مستنفرة. قال عزمي إن موعد الميدان قريب. كان العالم بعد أول منعطف غريباً، وكان يمكن نسج أي حكاية، وما أكثر من يقولون إنهم رأوا وتحققوا. نوع من هلوسة عامة. حين جاء أبو أحمد عجمي مضروباً من صور بعد شجار مع فلسطيني استقوى كالعادة بإخوانه، قالوا إنهم ضربوه لأنه من الميدان وأرسلوه على هذه الصورة إنذاراً. قالوا إنهم يعدّون لتدمير الميدان، الكفّار القذرون، اللصوص، منتهكو الأعراض، ليخرسوا كلمة بسم الله وليطفئوا نور الحسين، وها عزيز وندي يتنزهاان بين الحدود بدون وازع. ماذا يفعلان؟ يهزآن من الحِداد أم يقومان بالتجسّس والاتصال بالعملاء في القرية. قال سمير أبو علي إن البناء ذريعة وهو أصلاً بأموال الفلسطينيين ولهم. إنهم يبنون قاعدة وتحت الأرض كوم سلاح بالتأكيد. سيارة عزيز مراقبة وكذلك الشاحنات التي تطلع إلى الظهور. لم يبصروا شيئاً، لكن البناء بحدّ ذاته مادة للشكوك. طلعوا وتفقدوا البناء ولم يفكّر عزيز إلا في خيبتهم حين لم يجدوا شيئاً، جعل هذا موضوعاً لهزئه. حين لم يجدوا شيئاً في البناء زادوا

حنقًا. يسخر منهم هذا الرجل الذي لا يبالي بأن يبصق على القبور ويجرّ زانيته علنًا.

قال سمير أبو علي بصوته الفاتر:

- بيكفي صار بدّها حدّ.

وهمدر حسين عوض. أما الأستاذ فهذه فرصته ليبدو لاعبًا وصاحب سياسة:

- ابن عمّنا مصيره يصحى. الله يسامحه.

كان يقول هذا وشبهه ويترك القرية تزداد احتقانًا. يتسمم وكأن ابتسامته فعلاً زيت يُصبّ على النار. كان مستعدًا لغسل يديه من العمل الذي بات جاهزًا. بقي عزيز على حاله من الصعود والهبوط. لكنه الآن يفعل ذلك وكأنه خيانة معلنّة. كل خطوة يخطوها جرم أكيد. كل حركة منه اعتداء.

حين طرق الأستاذ باب الشيخ هذه المرأة، صحّته زوجته من الفراش فجاء وهو يجمع عباءته حول ثوبه. تطلّع إلى الأستاذ وقطّب قائلاً:

- عزيز

لم يحتج الأمر إلى إيضاح. شعر الشيخ ببرودة في ظهره. لكنه بعد مقتل ابن أخته سمع كثيرًا وماتت تقريبًا إرادته. لم ينتظر الأستاذ منه كلامًا. انتظر قليلًا وقال وهو يجمع كفيه:

- هياك عرفت.

نبّه الأستاذ وجوه العائلات فأخرجوا أنفسهم من الموضوع «ابنكم وأنتو أخبر فيه» قال أبو أحمد العجمي. حسين الشامي الذي تربّى مع عزيز كان أكثر حماساً لإنهاء الموضوع. عاد الأستاذ إلى الحسينية ووجد أركانها مجتمعين فقال:

- ما حدا ضدّ.

وشرب شايًا. استدعى إبراهيم حسين وصادق العسّال. إبراهيم حسين تلميذ في ثانوية عزيز معروف بأنه من التنظيم طبعًا. لكن رقة وجهه ولين تصرّفه يحدّان عادة عن تصلّبه. أما صادق العسّال فمقاتل من المعسكر. لعب بالسلاح منذ الطفولة في بيته. قال الأستاذ إنّ عليهما أن يتّفقا مع مصطفى أبو غانم. عرت إبراهيم تأتأة وهو يسمع العسّال يربت يده على القطعة الكلاشن التي في يده. في الصباح كان التنظيم كلّهُ معه والبلدة تنتظر. نزل عزيز كالعادة إلى صور، وفي المساء كان الشبان في الحسينية ينتظرون، والدوريات في الأحياء تنتظر، والشيخ وقد عصره حزنٌ أكثر ممّا توقّع ينتظر، والرجال في دورهم ينتظرون، والنساء تعدّ العشاء بقلق وبعضهنّ شعرن بندم مفاجئٍ وحين سُمع الرصاص لم يسمعه أحد. لقد حصل. عندئذ توقف الانتظار.

الثلاثة

صيححات مبتورة. رؤوس صرخات تغور فجأة. كنا تقريباً نسمع صوت اختناقها. طعان قاسم جنبي تحت شجرات المستشفى. جامد في وقفته، لكنه متهدل قليلاً كشيء أُلقي هناك. وجهه امتلأ كثيراً حتى غطى على تعابيره وأحياناً على قسماته، وكلما التقت عينانا زوى وجهه فهذه الكشة العديمة المعنى كانت، إلى حد ما، تعبيره الوحيد. رائف الصولي النحيل العصبي يتنقل على بضعة أمتار من مربعات البلاط. الصيححات تزداد تتابعاً وقوة. إنها تقريباً ترتطم بنا. أنا مربوط في مكاني. أزيح قدمي وأعيدها، وأنظر إلى الورق اليابس على الأرض. لا أستطيع أن أسرع إليها في وجوده. ليس مقبولاً أن أتعدي زوجها، رغم أنه بقي على استرخائه، لم يند عنه جواب، وكأنه لا يمانع في أن نهمله. خرجت أختها لتناديني فأسرعت. كانت ندى تمسك قضبان السريـر بذراعيها وتلويها عليها وتصرخ. تلويها وتصرخ.

لم يكن رأسها مع ذلك منبوشاً. الحزن لم يؤذ وجهها وإن بدا أكثر عاجية. اختنق بياضه قليلاً، وتسنتت حوافيه. كانت عينها حافيتين تماماً كبيرتين وبلا تعبير، وشعرها محلولاً على ظهرها، مهملاً شيئاً ما وكأنها

نامت على تسريحة أمس. احتضنت كتفيها. وصار رأسها بموازاتي. ضاع نظري في الفاتح الأشقر الخفيف والحبيبات المفصلة الندية في العنق. بقيت جميلة هكذا. لم يتأثر وجهها ولا جسمها. كانا من معدن لا يبلية الزمن ولا الحزن بسهولة. طالما شعرت أنها من معدن نفيس. إنها ثمينة بحد ذاتها كآنية غالية.

لم يبد أنها انتبهت لي. لكنني، وأنا أشدّها أكثر بذراعي، شعرت بها تستريح على كتفي، وبقي صوتها على حاله لم تستطع أن تمسكه. ظل عريضاً مشقّقاً وكأنه يخرج قطعاً. صوت وعر مستوحش تقريباً، وكأن الحزن، بل الرعب الذي لم يجد منفذاً في جسدها، استوطن فيه. ظلّت تصرخ أقل فأقل، إلى أن هدأت تماماً. وكأنها نامت، وشعرت بعد قليل بدمع كثير، سالت عيناها الجافتان، كان هذا أشبه بمطر يطفئ العاصفة. قالت:

- وين رحت.

ليس عتباً، لكنها خائفة. في الأيام التي فاتت كانت تصارع شيئاً أكثر من فقدان. تصارع شبحاً بثقوب طرية محشوة تراباً. كانت تنام تقريباً في فكرة التعب. تقاثل لتخرج وتحاول أن تتخلص بصوتها وتشنجاتها. الحبوب التي أعطوها إياها جعلتها تنام. لكنها ثقوب من نوع آخر، ولا تعرف متى تُفلتها. تجعلها تهوى وحدها في النوم. كانوا يسندونها بشيء لا يقل قسوة وبروداً من قضبان سريرها. ودائماً لا تجد إلا هذه الدعامات القاسية التي تشنّج عليها.

بعد الجنازة كثرت نوبات تشنّجها وإغماءاتها. منذ نشفت دموعها فجأة فقدت تقريباً اتصالها بمن حولها، وبقيت وحدها في المغارة. لم تفهم ما تشعر به ولا تقدر على أن تتخيّله. اختفى عزيز فجأة من بالها وكأنها في أحلامها تبحث عنه ولا تجده. تسير على حافة من إسمنت أخضر، يابس كالذي كان في أرض مرحاضهم في بيوت الطفولة، وتسير حافية ولا تنتبه، إلا بعد أن تتعب من السير الحلزونى. أنها تقريباً تمشي في أنبوب، في نوع من ماسورة لا تخرج منها. كانت تعيش في هذا المكان الذي ليس سوى أنسجة مقطّعة. وحين ترتاح قليلاً تحسّ في عظمها بصلادة هذه الحلقة الحديدية التي تلوي ذراعها عليها. اختفى عزيز تماماً. وكانت في كوابيسها تعلم أنها لن تجده. لم يكن في داخلها أي شيء. لا صورة ولا فكرة ولا حتى اسم. ليس سوى هذا الانعدام الفظيع الذي تسير فيه حياتها وكأنها تسافر في قناة دموية. كانت مجبورة على ذلك. عليها أن تفعله دائماً. كانت وحدها ومعها خوف لا يشبه أي خوف. خوف لا إنساني فعلاً، خوف يتعدّى البشر.

وصل طعان قاسم بعد أن أخبروه. ترك أشغاله هناك فوراً وعاد. لم يجدها قادرة على استقباله لكنها لم تُلْمُهُ. عند دخوله همدت النسوة. كُنَّ مَن بقي من قريبات وجارات وصاحبات لا يتعبن في العادة من الحكي عليها. تركنها معه فسألها.

- كيفك؟

وأجاب:

- مثل ما شايف.

تشاغلن في المطبخ والغرف. لم يفاجئهنَّ أن يُعزِّي الزوج بالعشيق. كنَّ قطعن مرحلة الحرج تمامًا. النميمة تعيش من الشبهات وليس هنا سوى علن واضح، حبّ ككل حبّ، فقدان ككل فقدان. ما من خفايا بل حقائق لا تخيف. حدث هذا في بلدة لا تغفر لفتاةٍ مشيتها أو صوتها. حضر الأقارب والأهل والجيران والبعيدون وعزّوا. أعلنت ببساطة أنها أرملته فسلموا وعزّوها. عزّاها زوجها أيضًا وكذلك أمّه وأخوته. حمل أبوها نفسه من نوبة قلبية وعبر النسوة إليها وغمرها. بقيت أمّها حولها وظل أخوتها يروحون عليها ويجيئون. زوجها قعد جنبها وقال لها: «تعيشي أنتِ». الجميع قطعوا مرحلة الحرج في هذه المدينة التي وجدوها بعد ستة آلاف سنة كوخًا للصيادين.

كانت هناك بالتأكيد أفكار راسخة عن الفضيلة والشرف، لكنَّ أحد لم يُطق حملها إلى هناك، أفكار راسخة لكنها فجأة بدت عديمة القوة. لم يرفضوا القتل أيضًا، أنكر التنظيم مسؤوليته عن قتل عزيز فصدّقه، وعاد فأنكر مسؤوليته عن إطلاق النار على الجنّازة فصدّقه أيضًا. التقيت كثيرين قالوا لي: «ولكنهم قالوا إنهم لم يقتلوه». صادفني السيّد هاشم وهو عالم دين وعندها قلت له:

- بس يا مولانا مين قوّص على الجنازة؟

أبدى تعجّبه من أن حُجّة واضحة كهذه فاتته. من لم يصدّقوا قالوا: «واحدة بواحدة». قتلت الأحزاب حسن وحسين وقتل التنظيم عزيز. عزيز هو الذي بدأ الجناية. لم تعش طويلاً شائعة تقول بأن إخوة ندى قتلوه، لكنها زادت في الحيرة. هكذا باتت الجريمة بعد أيام مسألة معلّقة ولم يعد هناك من يسأل. كأن الأجوبة قبضت شهية السؤال. لم يقتل التنظيم عزيز. لم يقتله أحد وكأنه لم يُقتل. كان هذا نزولاً بالحادثه إلى الدرجة الصفر، وكأنها لم تقع. التقيت الحاج شوقي والحاج ممشوق وشابّ وشيخته المبكرة زادته وسامة وربما جعلته رغم اعتراض الكثيرين الوجيه، في زمرة عقلاء المدينة. كان يسوق السيارة حين التفت وقال بهدوء معهود فيه:

- مش ممكن يكونو جماعتو؟

تلك شائعة أخرى. قتله حزبه. تحدّثوا عن خلاف مؤكّد في الحزب، على المال غالباً. قتله تنظيم فلسطيني. لم ينس الناس بعد حادثة ضربه. هذه شائعة قوية فهي تتفق مع أفكار الناس عن السياسة. خداع. تناحر أخوة. فتش دائماً عن الأقل شُبّهة. لم يكن هناك من يرغب في متابعة السؤال. جميعهم مستعدّون لقبول أول تفسير، وفي النهاية شتّت الأجوبة المتضاربة فضول الناس. ضلّلت السؤال نفسه. كانوا ببساطة يهربون من رضاهم عن القتل. هي المرّة الأولى التي يُرفع فيها سلاح على حليف للفلسطينيين.

لم يهتم كثيرون بهدف الرصاصة. المهم أنها أصابت. تحوّل المجتمع إلى جهاز التقاط شائعات يثّنها قريبون من التنظيم، وفي مدى ساعات تصير في كل بيت. لعب الجميع أدوار مراسلين طوعيين للتنظيم، ونقلوا اتهاماته إلى كل مكان. فعلوا ذلك وكأنهم جهاز منظّم. كانت ميكروفونات الأحزاب دوّارة في المدينة تقول بأصوات قوية ما تقتله فوراً شائعة صغيرة. تحوّلت الشائعات إلى ما يشبه النضال السري وتلاحقت وتنوّلت كأنها بيانات مقاومة صدّقوها بدون سؤال. ما من حاجة إلى دليل، لا حاجة إلى الحقيقة أساساً. هنا حاجة إلى رسالة وها هي تصل. رسالة من أي كان.

هكذا تبدّدت في أيام قليلة حادثة مقتل عزيز. حتى ندى شعرت بذلك. ما عادت تجد كثيرين حولها. بعد قليل صارت وحدها. بدأت تفهم أنها تُخرج الآخرين بأسلوبها وحين زرتها لاحظت في قميص حدادها الأسود نيتين تنفتحان على بياض. سألتني عن خطيبي وضحكت لما علمت أنني تركتها تقع حين أطلقوا الرصاص. ضحكنا معاً من ذراع محاسن التي نهشتها الرصاصة ثم تغير لونها فجأة. بعد الظهر علمت أنها انهارت ونقلوها إلى المستشفى.

نظر رائف بكسل وخطف وجهه كأن تحتي كثيرة على نظره الضعيف. كان تحت الشجرة في ملله الاعتيادي لا يفعل شيئاً، ربّما يراقب معدّل السكر في أنسجته ومعدّل الضغط. ربّما أربكه ارتفاع الرطوبة. كان للطف

أيضاً معدّله، والملاطفات الزائدة فوق احتماله. نجوى زوجته تنظر إليه كالعادة بعينين حانيتين وكأنه بين ذراعيها. من المؤكد أنها نظرت هكذا إلى ندى قبل قليل، أما طعان فهو طبعاً على كرسي. كان الثلاثة أمام باب المستشفى. بدوا لي فجأة أُحجية. كان لا بد من ثلاثة على كل حال لصنع أُحجية مُحكمة. طعان مندمج رغم ضخامته في كرسيه الصغير كمن يريح جسمه على حجر أمام دكان. لا يحرك ساكناً ولا يظهر عليه أنه يُصغي أو يرى، بل هو شاخص في العادة إلى لا مكان. لم يكن انعدام حركته يخفيه بل يجعله على العكس ظاهراً أكثر كمحطة خامدة، ففي هذا الغياب يتحوّل إلى ثقل، إلى نوع من عطالة في الجو وفي المكان. بالنسبة إليّ كان هذا الثقل يزداد مع الوقت وكأنه يتكثّف، أو كأن الوقت ينضاف إليه. كان في هذه الكتلة شيء تالف. شيء يمنع التعبير ويجعله غير قادر عليه، حتى في داخله. يجعله غير قادر حتى على أن يكلم نفسه. مررت به وأنا أتحاشاه وكأنني أحيّد عن جذع يعترضني. لم يكن حسّاساً إلا لصوت رائف الذي سمعته في هذه اللحظة يقول له: «وينك» فإلتفت إليه وقلب يديه دون أن يتكلم.

نادتني سعاد الأخت الصغرى لندى. سمعت صيحة ندى على الباب، كان لون الغرفة الإسمتي يوحى بأنها مجوّرة، وقد بدت ضئيلة الحجم فوق السرير العالي ذي الأعمدة كأنها لاجئة. يداها معلقتان بدرابزين السرير، وشعرها على الوسادة. صغيرة كدمية وحين رفعت وجهها بدا

منطفئًا وشاحبًا كأنه لدمية من خزف. كانت مضغوطة من كل ناحية فيها وكأنها في بحث داخلي عن حركتها. لكنها وجدت فجأة صوتها. هدأت قليلًا عن الحركة لتطلق صيحات متقطعة غير متساوية، وكأنها تفعل شيئًا لا تُتقنه. لم تكن تحرّر ألمها فقط، بل تتخطأ أيضًا. تسعى لكي لا تغرق.

اقتربت منها. احتضنتها بذراعيّ. وشدت رأسها إلى كتفي. أحسست بشعرها على وجهي دون أن أنظر إليها، فقد حسبت أنني بطريقة ما تحت أنظار الثلاثة المنتظرين في الخارج. تحت نظر طعان خاصة، ليس نظره تمامًا بل وطأته، ثقل وجهه وحركته. تحولت إلى كلام خفيض، شبه غمغمة. لم أجد عندي أي جواب، استعجلت أن أعيدها إلى وسادتها وأقف بعيدًا في الغرفة جنب سعاد.

خرجت فوجدت طعان على الجهة الثانية من الكرسي، ويده على ظهر الكرسي والسيجارة بين أصابعه. كلّمَا وصلت أجده هناك كأنه ينتظرني، وكلّمَا امتدّ الوقت يزداد انصرافًا عني وعن كل شيء، حتى خطرت لي أنني أدفعه إلى ذلك، فبتّ، لأجعله أكثر انتباهًا، أفعل كلامًا معه في مواضيع أحسب أنها تهّمّه: ماضيه السياسي، أعماله في أيدجان. وهو يجيب لكن بلا شيء تقريبًا. فقط تلك الكشّة التي تسبق كلامه، وتجعله يبدو متعاليًا على السؤال، مستصغّرًا مهما كان. أراه كلّمَا وصلت، حتى بتّ أشد شعورًا بأنه يتعمّد أن ينتظرني وأن يبقى أمامي. زدت شعورًا بأنه لا يتنفس بسببي، وأني أتعثر به، وربّما أدوسه، في كل خطوة أمشيها. لم أكن مستعدًا لهذا

الخرج. صار وسواسًا يلازميني. كلما اقتربت من ندى ولاطفتها أراه خلفي ينظر إلى ذراعي على كتفها، ويجبرني على معان لحركاتي لست مستعدًا لها. لم يعد هذا سهلًا ولا طبيعيًا. أخرج من عنده فأراه على حاله. أقترّب منه وأقول إنها هدأت «مشي الحال» كأنني طيب يطمئن قريبًا لمريضه. لا يجب غالبًا غير أنني بتّ أشعر أن هذا الهمود أكثر من أن يكون طبيعيًا. فكرت في نوع من حياة نباتية، نموّ وارتجاج بل انهدامات واحتدامات تقع داخل حياة نباتية، ولا تصل إلينا كما لا يصل إلينا زلزال في كوكب بعيد. كان لطفان صمت من ينتظر شيئًا وصبره، أو أننا أحببنا أن يكون صمته هكذا، فهذا يناسب وربّما يعادل الدراما الغرامية التي نشأت من مقتل عزيز. كان الحب والتسامي يغمران الجميع، غير أن هذا لا يدوم. كلمّتي نجوى وقد منحّنتي وجه المادونا الذي لها:

- رجال طيب ونظيف بدو يلمّ عيلتو.

كان عليّ أن أساعده، لم أعترض. إنه بالتأكيد نظيف القلب والأحشاء والنفس. له فقط لحم قلبه وأحشاؤه ونفسه، وهذه الحياة النباتية التي لا تقوى على ضغينة. أخيرًا كلمّمني هو. قال إنه ترك عمله في أبيدجان وسيبقى هنا جنب عائلته وجنب ندى. قال هذا دون ارتباك. وبعبارات حاضرة متصلة. حُيل إليّ أن هذه هي فكرته حقًا عن الموضوع، إهمال عائلي فحسب. تذكرت كيف لم يجد في صلة ندى بعزيز أكثر من عطف امرأة حنون على فتى مضطرب لا يُحسن العناية بنفسه. ليس في الأمر الآن سوى أنه أهمل

عائلته وزوجته فاضطربت حالتها وسيعود وينصلح كل شيء. قال هذا برويةً وهذوء لكنني شعرت بقساوة عينيه. ما لم يقله هو أنه يريدني فقط أن أبتعد. لم أفاجأ. كنت أشعر أنني لا أستطيع أن أبقى في دور البديل. قبلته لأنه لا يلزم مني شيء. وها أنا أجد نفسي بين أقدام الناس ومناكبهم دون حاجة إليّ. لم أكن ضروريًا لأحد في الحقيقة ولا حتى لندى. كنت القريب الأول في حكاية ليس فيها سوى أقارب بعيدين. دور لأيام وإذا طال أكثر من ذلك بتّ مكروهاً، وها أنا أوشك أن أصير كذلك.

خرجت ندى من المستشفى. تعافت فجأة كأنها صحت من غيبوبة. وجدتها في السرير هادئة صاحية تمامًا. رفعت شعرها وعقدته من الخلف ولم تتورّع عن أن تطلب من أختها مرآة فخرجت تبحث عن واحدة. قالت:

- بدّي شوف وشّي. من جمعة ما شففتو.

كانت تتفقد نفسها لتتأكد من نجاتها. قلت لها:

- المعدن الأصلي ما بصدّي.

كان هذا كلامًا تحبّه. قالت إن الطبيب قال لها شيئًا كهذا. ابتسمنا. تريدني أن أشاركها في مرحها، كان فيها خفة الناجين حديثًا. أحضرت أختها المرأة فلم تُطل النظر. وضعت المرأة جانبًا ودارت سحابة سريعة من غمّ. ربما كان النظر إلى وجهها، النظر إلى نفسها بعد كل هذه الأيام أكثر مما تُطيقه،

مع ذلك هي مصممة على المرح. مرح عليل مهدد كل لحظة لكنها مصممة على إنقاذه. سرعان ما أخذنا معاً نستدعي بتقصّد موضوعات وأشخاصاً اعتدنا أن نجد فيهم مادةً لمزاجنا. مرّة ثانية ذراع محاسن اللحيمة والطريقة التي سقطنا بها واحداً فواحداً على الأرض عند انهار الرصاص. كانت هذه ذكريات مؤلمة لكنها الآن صور بلا صوت ولا صدى، صورنا البلهاء الوحيدة التي نضحك منها. صور لقيطة بلا زمن ولا أحاسيس ولا أهل. لم نكن نحن أنفسنا سوى صور هذه الصبيحة. ضحكنا كثيراً كما ينبغي أن يفعل أشخاص في خفة الصور وسرعتها.

بتُّ أجدها محاطة غالباً بأشخاص كثيرين، لكنهم أقل فأقل قرابة وقرباً. أسمع ضحكهم وضجّتهم من خلف الباب كلما زرتها. وغالباً ما أجدهم متناثرين، بين قاعد في الصالون أو غرفة القعود، وواقف أو متمشٍّ بين الغرفتين، أو لاحق بها في المطبخ، وهي تسير بينهم وفي يدها فوطة أو مكنسة، أو تستقلّ عنهم في المطبخ الذي يلحقها إليه بين لحظة وأخرى شخص ليسألها عن أمرٍ أو تستدعيه لأمر. لم يكن هؤلاء في الغالب أقارب أو أصدقاء قريين. هم من شبان الأحزاب في الميدان التي هجروها والتحقوا بأحزابهم يبيتون في مكاتبها، أو من أقارب عزيز الذين يتردّدون إليها كلما نزلوا إلى صور، ومن مسؤولي الأحزاب أنفسهم، ومن جيران وجارات وزميلات دراسة، وأصحاب بعيدين. تستبقي بعضهم للطعام،

وتؤوي بعضهم ممن لا منزل له. تدعو بكثرة ودون تدقيق. جعلت بيتها صالوناً، وهؤلاء عندها رواد أكثر منهم زوّاراً. كانت تملأ فراغ بئر عميقة بأي شيء تقريباً. لم أفكر في ذلك في وقته، فأنا مثلها لا أفكر الآن إلا في راحتني. الأسابيع الماضية كانت طاحنة إلى الحدّ الذي لم يعد فيه بوسعي النظر أمامها. ربما هكذا يتم دفن ماض ضخم، بهستيريا فظيعة وقفزات بهلوانية عالية فوق الذاكرة.

أعرف الآن كيف تتسلّى ندى عن همومها. تستدعي فجأة هذه الحياة الاحتياطية وكأنها تهرب إلى شارع آخر. حياة عامية وسهلة وخرقاء قليلاً. هكذا ظهرت في الصالون زميلات الطفولة مع بناتهنّ اليافعات. جارتها السمينة التي كان ارتجالها السوقي غالباً مبعث ضحك في البيت. ظهر خياطها وسبّاكها وصاحب الدكان وامراته. كان المطلوب نوعاً من غلظة، من ضحك قوي ومن كثرة عادية، حيث يخجل المرء من أي إحساس كان ويخشى أن يدري به أحد، أو يقع بين أيديهم الخشنة.

ابتعدت قليلاً. ابتعد الأخوة وبنات العم والأصدقاء القريبون. أخرجتهم بحياتها هذه أكثر مما أخرجتهم بحدادها العلني. شعروا أنهم جوزوا بطريقة سيئة. بدت حاجتها إلى السلوان هكذا فظيعة بعد الفضيحة التي جرّتهم إلى ابتلاعها. لم يقل رأفت شيئاً. ابتعد بملله الاعتيادي. بقيت محاسن وزوجها، وحين التقيتهما قالاً إنها أرملة طروب عجّلت في فكّ حدادها. لمّحت محاسن إلى جمال سليم. وحين زرتها في المساء نفسه وجدت جمال عندها وبقي للعشاء.

كانت تتصرّف معهم كفتاة الشارع المحبوبة. تزجرهم ضاحكة وتستفزّهم ليتصرّفوا دون كلفة، أو ليتكلّموا بدون حشمة. كانوا مدرّبين على هذه اللعبة. يسليهم أن يتهادوا، ويسليهم أن يُزجروا، وجمال وحده احتفظ بنفسه بعيداً. بقي في مقعده هادئاً يتسم لزنب السمينة وهي تمطر ممازيحها بعبارات ثقيلة. يتسم ولا يزيد. فلاشات خفيفة لمن يُصادف بعينه ويعود بعدها إلى سكنته. تجنّب ندى أن تدفعه إلى وسط المزاح، كما تجنّب أن تدفني أيضاً. اجتهدت في أن لا تخلطنا بمهرّجها. ليس فكّها على أي حال، لكنه لا يحتاج أن يضيف إلى جماله. يكفي أن يتسم ليكون ممتعاً. لا يمكن أن نجد ظل غباوة أو خشونة في هاتين العينين. كان لطيفاً وذكياً بدون جهد، وإن كانت ندى في الأغلب تعلم ماذا يوجد على عمق إصبع واحد من هذه البسمة السخية. لم تُخفِ استمتاعها بفرح فتيانها، والأرجح أنها أحبّت أن أراها في مرحها، فقد استحققنا ذلك معاً. وحدي رأيتها تصارع ورأيت كيف يفلتها الحزن بعد كل جولة خرقة لا أكثر. لا داعي لتجميل الحزن، فأول ما نخسره فيه قلوبنا ومشاعرنا. ليست ذكريات أحبائنا الرقيقة هي التي تصحبنا فهناك لا يوجد شيء حتى الهواء، والأغلب أننا مستعدون لرمي أي شيء للحزن لكي يفلتنا، مستعدون أن نرشوه بذكرياتنا وأحبائنا أنفسهم.

أحبّت ندى أن أتسلّى. لكنني لم أتسلّ كثيراً. قليلاً ما بدا لي هذا الابتذال خصباً وخلاقاً. إنه غالباً أكثر تصنعاً من الحذلقة نفسها إن لم يكن أكثر من تمثيل سيّء.

جلسنا للطعام واستمر المزاح. زينب السمينية تُسكتهم واحدًا واحدًا وهم يتجمعون من الناحية الثانية. ضحك والصحون تفرغ بسرعة وندى جاهزة تُحضر غيرها. كنت جالسًا جنب جمال على الكنبه غير قادر على مجارة الحاضرين في مزاجهم وأكلهم، شاعرًا بقلّة حيلتي. تنظر ندى إلى جمال كلّما وضعت صحنًا كأنها تقدّمه له. وحده شعر جمال بذلك فتمتم أكثر من مرّة بالشكر. كان في ذلك نسيانًا لي. جلست ندى لتأكل في مواجهة جمال ومواجهتي لكنّ وجهها بقي في وجهه. فجأة وجدتها تشيل لُقمة وتقدّمها له. فاجأه ذلك أيضًا فأمسك اللقمة بإصبعين ولم يستطع أن يحتفظ بها فسقطت في الصحن. ارتبك. أما هي فأمسكت وسادة من على جنبها ودفعتها في وجهه. كان الأمر أكثر من أن يستدعي ضحكًا. وبصراحتها علّقت زينب:

- شو بك عم تزركيه. اتركي له نَفَس.

سكتنا قليلًا ثم أغرقتنا السمينية بالضحك. شعرت فجأة بأنني غير مُخرج بعد، وأنني تحرّرت منه ومنها. فغادرت بنيّة أن لا أعود.

أرجو أنني لا أنفلسف كثيرًا. تحرّرت من ندى. أمل أن لا تكون حاجتي الأولى هي التحرر من عزيز. ربما تركتها دون حسرة لكي لا أعود إليه. حين نحمل الآخر كالذنب في نفوسنا لا نصدّق متى نرتاح منه. خفت من هذه

الفكرة. ما جعلني أخاف أكثر هو أن خسارة عزيز أعطتني قوة لم أتوقعها. كنت قُبيل مقتله بأسبوع باشرت جولة جديدة من ضيقي النفسي، وحين أُبلغت بالنبأ لم أفكر في أدويتي، لكنني نمت ليلتي الأولى دون حاجة إليها. ألهاني عنها التعب (هل هو التعب حقًا؟). ابتلعت بعد ذلك بضع حَبّات، لكنني صرت أنام غالبًا قبل أن أتذكر الحبوب، وفي النهاية نسيتها. تعافيت تقريبًا. أخذت أفكر على قدر مشاكلي ولا تدخل في رأسي أفكار لا أسباب لها. أنام إلى الصباح وأستيقظ خالي الفكر، كما يليق أن يبدأ الواحد نهاره. صدّقت أن همّ عزيز جعلني أنسى نفسي. أملت دائمًا أن يخرجني حدث كبير من هذه الحفرة، وطالما انشغلت بأشياء جلييلة لكي أنسى نفسي خلفها، ثم انتبه أنني لم أبتعد ما يكفي ولا أزال على الشاطئ. كنت أفعل أي شيء لأبعد ذلك الغيم الذي يزحف دائمًا من رأسي وعيني. لكن المضنكين قلّمًا يروعههم شيء لا يحدث في داخلهم. هناك دائمًا تلك الأنانية الحزينة السلبية اللامجدية لمن لا تخيفهم سوى نفوسهم، ولا تترك لهم بعدها مجالًا لخوف. هم شجعان تجاه كل خطر آخر. الغول يسكن في داخلهم ويروعههم أقل صوت يأتي من هناك. ربما رموا أنفسهم على الخطر ليتخلصوا. بل ربما احتموا بالخطر الخارجي، وقد يحتمون بالألم الجسدي نفسه. بعد أن يطحننا الداخل، لا نصدّق أن ألمًا آخر يمكن أن يكون موجودًا. نُشفق على الآخرين، في حين لا نُشفق على أنفسنا. لقد تعرّضنا للجحيم نفسه وفات أوان الشفقة. أما الآخرون فلا يزالون جذوعًا طرية لا نُطبق أن نراها تتكسّر مرّتين. قوَّاني حزن ندى، قوَّتني خسارة عزيز. كنت يابسًا ومحروقًا

وجافاً وأحزان البشر بالنسبة إليّ أشبه بذكرىات شباب ولىّ.

قلت لعزیز أثنيه عن الصعود إلى الميدان في الليل:

- مش قادر أخسر حدا.

قلت له ذلك أمام البناية التي تسكن فيها ندى ومعنا ندى ومحاسن وزين زوجها، وعزیز يصّر على العودة المتأخرة. بالتأكيد لم أقل هذه العبارة عفواً. استعرتها من المسرح غالباً (مش قادر أخسر حدا). لم تكن هذه نبوءة، فأنا لا أتوقف عن تخيل جنازات أهلي وأصحابي، أراهم يرحلون وأراني مُجَازى بموتهم. كنت دائماً جاهزاً لرحيلهم، دائماً مستعداً، والتفاصيل، حتى التفاصيل مدروسة ومنقّحة مرّات.

قالت محاسن إن ندى عاتبة على أصحاب عزیز الذين لا يزورونها، تعتبرهم غير مخلصين لهذا السبب.

- هذا ما زارني. هذا ما إجا. نسيوه ما عاد ببال حدا.

تفتح محاسن ذراعيها على وسعها، وتروح ترسم أقواساً كبيرة متحركة لكلامها الذي يتلاحق عالياً. وكأنه لا يتدفق فقط من فمها بل من صدرها الكبير وذراعيها. يستحيل أن تراها صامتة بل هي غالباً ما تكلم نفسها حين تجرّ مكنستها وحدها. وجودها دائماً مملوء بالأصوات كما يُفترض بورشة أو بكتيبة مارة.

- شو خصّ هيدا بهيدا. بنحبو وما بنحبا. حرّين. لاحقنوعَ القبر.

ما لم تحسن محاسن قوله أن ندى تعيد امتلاك عزيز بعد رحيله. تجعل من نفسها مزاراً له، وتحول موته إلى دين شخصي لها على الآخرين. ربما كان وراء كلامها جروح قرابة وطفولة مشتركة. زين لم يحب كعاداته لهجة زوجته. تركها لكلامها وتدخل أخيراً بهدوء آلة ماضية تقطع حيث تمر ولا ترجع.

- اغتيال سياسي قلبتو فيلم عاطفي وبطلت تخلص. مين فاضي لقصة حب. راح عزيز. راح غيره والناس مش مصدقة شي.

زين الذي لم يفهم كل هذه الحكاية بين عزيز وندى، لم يجد فيها سوى تظاهر ندى وقساوتها.

كان زين ومحاسن في زيارتي في صيدا لتهنئي بزواجي. حملاً إلى غطاء صوفيّاً من ندى ومع الغطاء وريقة مقطوعة من دفتر كارنيه «بسّام أريد أن أراك. لا تتركني. ندى».

العاشرة صباحاً أنا في الصالون الداخلي حيث الطاولة والمكتبة. ندى معها نواف ووهيب في غرفة الصالون الثانية. انسحبت من حالي لأتركهم يتحدثون.

انتهيت من ملاعبة غسان طفل ندى. أتركه فوق الطاولة فيثبت في وسطها تمامًا، خوف أن يقع. ويتطلع إليّ من هناك، منتظرًا أن أقرب ليرمي نفسه عليّ. حدث هذا مرّات كثيرة وسئمت ولم يسأم. حملته لكنه لم يطق أن يبقى وقتًا طويلاً محصورًا في يدي. دفعني بيديه ورجليه لكي يتحرّر. استأّت لأن طفلًا في الثالثة يربكني. وقفت أنتظر أن يروح من حاله لكنه استمر واقفًا. لم أقدر أن أقول له: اذهب والعب وحدك. ظل قريبًا لا يئأس من أن ألبّيه، وتغافلت التغافل المحسوب بالثواني، إلى أن ضجر وراح. شلتُ كتابًا من الصف الصغير غير المكتمل على رفّ المكتبة، كان، لعجبي، قصة سيف بن ذي يزن. فتحت من وسطه وبدأت أقرأ، فيما ضحككات نواف وصوت وهيب الخامل تصل معًا إليّ. حين دخل نواف عانقته وسألني أمام ندى:

- كيف بيضاتك؟

أجبتّه متهرّبًا:

- ما في حيل.

- عبّهن مثل الستيло في إلن حليب مخصوص.

كان في وسع نواف أن يستطرد، وأن ييني على ذلك كثيرًا، لكنّ ندى تجاهلت كلامه. مع ذلك تطلّب الأمر وقتًا قبل أن يتبه أنه وحده في حبوره. ليس نواف على كل حال قليل الحساسية. إنه حسّاس لكنها حساسية لا كلام ولا عبارة لها في تربيته وتربية عائلته. لم تكن ببساطة من الأشياء

التي يتبادلها مع الناس، وإذا احتاج إلى أن يقولها قالها معكوسة، وقلها إلى فظاظاة واعية. قال عن عزيز:

- مش حاسين يعمل فينا هالضرب الوسخ.

وحين وصل الصندوق ذهب أولاً. فتح الغطاء ونظر طويلاً. أحصى الجروح والكسور وسجلها في رأسه كما لو كانت صكاً. وحين عاد قال لي كمن يحاول أن يطرد رائحة الجثة:

- إجا دورك. أوعا تعملها بالصيف. عندي مشوار عبلغاريا.

كان أخوته الكبار من فتيان 1958، فتيان نحيلين مراهقين يقودهم ممرض أكبر سنًا.

كانوا لا يزالون يكافحون نمش وجوههم الذي يحسبونه بذار عادتهم السرية، حين بدأوا يتحولون إلى حرس حديدي. نذر كامل: لا نساء ولا كحول وعقيدة ثأر سوداء. ثأر لا من الاستعمار وإسرائيل فحسب، ولكن أيضًا من أصول كبيرة، حيث الخيانة معمرة وهي نفسها في صالونات المجتمع ومدن النيون وأبراج العمارات والبنوك، كما هي في ربطة العنق وقبينة الكحول والأثاث الضخم وغوايات الحب في كل مكان، تُصنع بقفازات حريرية ولا تخلف رائحة. فتيان 1958 تخلوا عن بيرتهم الأولى وزيارتهم الأولى لسوق العاهرات. جلبوا البازوكا والأنيرغا والمترليوز من الحدود. لم يتسن لهم الوقت لاستعمالها كما يجب. لكن أسماءها أكثر من كافية

لحرب أهلية صغيرة ما كادت تقوم. لم يطل الأمر أشهرًا. أنهموا حربهم في عشرينياتهم وشواربهم لا تزال طرية. وبدأوا الحياة قتلة سيئين.

هذه أمور تورث على كل حال. وحين قامت وجدها نواف في دمه. لم يكن القتال طبعًا في الشيوعيين سواء المنظمة أو الحزب. نواف من القليلين الذين لم يمت فيهم هذا الاستعداد. لكنه أيضًا لم يكن من مواليد الحرب المشوّهين أو الحمقى. يروي عن الشاحنات التي امتلأت بسجّاد الدامور وتشاجر أصحابها على هذه السجّادة أو تلك، عن المقاتلين البدو الذي اغتصبوا العجائز والصغيرات، وعن القذائف التي وقعت على كتيبته من مدافع الحلفاء في الجبل، والقائد الذي يعاشر غطاء سريره الناعم الذي وجده في الليلا، وعن مُشعلي الكتب والأثاث. يروي هذه لا على أنها فظائع بل حماقات. كان مستعدًا لتحمل المزيد منها ما دام هذا يغذي سخريته. كأنما يسليّه أن يوجد بين هؤلاء الحمقى يروي سفالاتهم على أنها نكات. يسخر من قيادته ومن نفسه ويطيح بكل شيء. لكن السخرية تعفيه من أي مشاعر أخرى، فتغدو أحيانًا شعوره الوحيد. في الأحوال العادية يهرج في الاجتماعات الحزبية التي يرأسها. يلاعب بصبر وخيلة نادرين أطفال أصدقائه. يلاحق نذالات الآخرين ويراقبهم بصبر وغبطة إلى أن ينجزوها. هو ككل الشجعان، أو كثير من الشجعان، تربية نساء. ألا نعني هذا حين نصف القبضاي بأنه «رضعان من حليب أمّو». فيه شيء من امرأة، حسابه، تربيته، صبره الأمومي. شيء من امرأة تزيدها سفالات الآخرين قوة. لكن

فيه أيضًا شيئًا من جندي مستعد دائمًا حتى ليقتل حين لا يجد أحدًا يفعل ذلك. ولأنه دون غرض شخصي كان يتصرف غالبًا بدون ندم. قلب بحذائه رأس أم طلعت المتهمه -ليس بروية كافية- بالjasوسية بعد إعدامها ليتأكد من موتها. هدد زمرة تجار صور، وهم وجهاء البلد، وأكثرهم في عمر والده. كانت هناك ساعات نادرة للحسم، وكان مستعدًا.

وهيب أشقر. لكن الشقرة التي تحس أنها خادعة. كذلك هو صوته الفاتر الآلي. أشقر حتى نمشه وجلده، مما يشعر أن الجسد ليس فقريًا كفاية وليس صلبًا كفاية. فاتر النظرات بطيء كأن فيه شيئًا من دمه، وكأنه بلا عصب كافٍ لرجل. لم أسمع في هذه اللحظة إلا أنني أخن أنه لا يقول شيئًا ذا أهمية. هو في العادة يسمع ويوافق أو لا يهتم. كان نواف يقول إن الوقت ليس مناسبًا، أما وهيب فقلّمًا يفكر في التوقيت. يعرف ماذا عليه أن يفعل إذا سلّمته المسدّس، فهذا الأربعيني الذي لا يحتدّ والمسلم إلى حدّ الرخاوة كان الوحيد في الحزب الشيوعي الذي لا يتردد في أي مغامرة. تعاون مع تنظيم فلسطيني حين وجد أن حزبه لا يليه، والغالب أنه شارك بطريقة ما في أكثر من عملية اغتيال. كان أسبق رفاهة إلى امتلاك السلاح، ولم يتردد في أي مغامرة. حين سُرّق صندوق الشركة التي يعمل فيها لم يثبت التحقيق شيئًا عليه، لكن السلاح كان يلعب في المنطقة، ولم توص الإدارة بتحقيق دقيق. أخرجوه بنعومة. واشتبه بعد ذلك في عملية سرقة البنك الفرنسي التي احترق أثناءها البنك، الحكاية لم تتضح لكن الكثيرين

اتهموه. تاجر بالتأكيد بالسلاح. جند في التنظيم نسوة لا نعرف كيف؟ لكنهنّ يفقنه خشونة. في الحرب بدا مقاتلاً شجاعاً ولصّاً عليّناً. هو الآن مع ندى ونوّاف في آخر الصالون أُنْخِله مسترخياً راضياً. نوّاف يضحك، لكن الواضح أنه يطريّ كلاماً جدّياً.

انسحبت لدى دخولهم. حَمَت أن ندى دعّتهم لغرض، فامرأة كندى لا تنسى ثأرها. لم يعني أن تنساه فهذا العنف الذي طُفح في ثلاثة أسابيع لا يمكن أن ينتظم إلا في قصة ثأر، إنها المسرب الذي يمكن أن يغادر منه. أنا لا أصدّق الثأر وأحسبه دائماً من القصص. ثم إن العنف المكبوت المظلم في قصص الثأر يأكل نفسه وهو هكذا يفتني. فمنذ مقتل عزيز وإحساسي بزيادة أن حادثته باتت قصة وقلّ ما فيها من حقيقي حتى عزيز نفسه. بدا لي أن الكلام الذي التقطه من نهاية الصالون لا يحتاج إلى أن يكون جُملاً. هكذا يظهر وكأنه ينبجس، مسنوناً ماضياً من العنف نفسه. كنت التقط من نوّاف: رصد، خليل، الساحة، كاتم.. كلاشن، ذلك مناسب فأنا أشعر أن المؤامرة تُصنع من كلمات رهيبة خطرة تقال بتأنٍّ وبطء وكأنها يُخشى عليها أن تنفجر. لم يكن بين وهيب ونوّاف ودّ كثير، وهما الآن لا يبدو أن أكثر ودّاً، وكما جاء نوّاف أولاً ودّع أولاً، بعده لم يعد لوهيب إلا أن يبتسم، لأي شيء، قبل أن تتركه ندى يتوجه وحده إلى الباب.

من مكاني، لم أعد أرى سوى مقدّم ثوبها ووسطها المنزاح عن الكنبه، بينما اختفى رأسها في لحف مسند الكنبه. فرغت القاعة ولم تعد إلى طبيعتها، خلت لتوها من مؤامرة. لم أروجه ندى، وكنت متأكداً أنها نسيّني. ماتت حركتها، وأنا بتّ أتحرك بصعوبة وحرص لكي لا أنبهها. مشيت إلى أول مقعد وأثناء ذلك لا أستطيع الامتناع عن سماع جرّ قدميّ على الأرض. في المقعد فكرت مهموماً بأن عليّ أن أذهب إلى الحمام. لم أقدر أن أحتمل وجودي أكثر في الكرسي. مشيت إلى الحمام وأصدرت ضجة أرعبتني وأنا أفتح مقبض الباب. كنت أتصرف كرجل صغير، لكنني لا أستطيع أن أكون خفياً. في الحمام لم أجد ما أعمله. أقلقت جسدي وعليّ كل مرة أن أحتمل فشله من أن يجد حركته. أثرته بلا فائدة.

خرجت من الحمام وعدت إلى كرسيّ لكنني سمعت صوتها يناديني. وجدتها تُريح رأسها بصعوبة على مسند الكنبه ولا تستطيع أن تثبته في تجويفه، تجرّه إلى اليمين والشمال في حركة منتظمة كالبنّودول. تغمض عينيها وكأنها لا تحتمل ثقل جفنيها كما تتحمل ثقل رأسها. وجهها في شبه انقباض وبدا هكذا مضغوطة متصّلبة بل ناشفاً قليلاً، كأنها تعرّض لتشويه ملحوظ في أسفله وعند استدارة الذقن على الأخص. قلت لها:

- بجبلك مخدّة.

رفضت برأسها.

- راسك بيوجعك؟

أجابت برأسها أيضًا. كنت أعرف أن للكلام في هذه اللحظة ثقلًا ماديًا مؤلمًا فسكت. جلست في الجهة الثانية من الكنبه منزويًا عن وسطها ورجليها، ألاحظ ألمها وهو يتحوّل من تنميلة ودبيب في الرأس إلى فتّ وقرض ووجع في لبّ العظام نفسها، وإلى نوع من وقت يتأكل الجمجمة.. ازدادت حركة رأسها على مثبت المسند، تحاول أن تدسه في تجويفه كأنها هي مأخوذة بحركتين، بأملين متضاربين لا تستطيع أن تتوجّه إلى أحدهما. شملها ذلك بسرعة فإذا بالزوبعة التي دخلت جسدها تحولها إلى أغصان متلاطمة، شعرها وصوتها ويديها وجذعها ورجليها. كلّها تضارب، وكلّها تتلوّى، كما لو أن محرّكًا هائجًا فقد اتجاهاه يعمل فيها. كانت للحظة بعشرين ذراعًا وعشرين رجلًا. دائرة لرقصات متنازعة متلاطمة وفريسة لعشرين حيوانًا ينبحون فيها.

لم تطل غفوتها. استيقظت رائقة. نظرت إلىّ طويلا وكأنها تتذكر أين صادفتني.

- احتراماتي مدام قاسم، بسّام سويدان بخدمتك. خدماتك مدام.

- خدماتك بعرفها، غيري بعازتها أكثر. وفّرنا للطيفة.

تكلّمني هكذا منذ حادثة عزيز، تراني ألحق أي تنوّرة. تضحك من

أدبي مع لطيفة التي ألتقيها عندها. تجدني أغترّ بصوتها الخفيض وعينيها الخاشعتين، وتستكثر ذلك على امرأة في منبت لطيفة الشعبي والسيّء.

- بذكّك أعمل لك قهوة؟

ردّت رأسها إلى الخلف وهي تنظر إليّ في واحدة من حركاتها التقليدية، واندفع صوتها:

- ليش أنا ما بعمل، استنى هون وبتجيك القهوة لعندك.

لم أنتظر. لحقتها كالعادة إلى المطبخ. تركتها تملأ الركوة ماء وتضعها على النار قبل أن تتنحّى قليلاً عن البوتغاز وتستدير إليّ.

- كيفك هلق؟

- بتعرف إني ما بعرف أحكي، صار فيني فجأة متل الي صار يحكي لغة ما بيعرفا. عميفوت على عقلي صيني وتركّي وإشيا كتير ما بعرف شو هبي. بنصّ النوم بشوف حالي محبوسة بنقطة دم. بشريان مسكّر، بنقطة دم مش رايدي تطلع من الجسم. بشوف حالي كلّني بحبة دوا. حبة فالיום بتمشي بالجسم والشعيرات الدموية ومش لاقية منفس. بعدني مسطّلة. خايقة من الألم الي جايب. كنت فكّر بعزّيز 24 ساعة. فكر فيه لأتعب منو. هلق راسي ما في شي براسي. ما في شي بجسمي. راسي محشي ميغرين مبيّن ومش مبيّن. جسمي مكهرب ما بعرف أيتمى يرج. ما في شي براسي ولا بجسمي. فاضيين. الذكريات، بتقلّي الذكريات؟ الذكريات متل شي

ونكبّ وما بعد منو نقطة. هيدا الي مجنّتي. ما في ذكريات. مجمّدة نايمة
بس ما في شي، يمكن هيدا الموت.

كانت تتكلم شبه مغمضة حتى صوتها بدا ليس لها.

وأنا الذي لم أحر جواباً. عجّلت لإزاحة الركوة عن النار، وقلت من
الخارج:

- بس عم تحكي منيح.

- عم بحكي وما عم بفهم.

أحضرت حبّات بطاطا وأخذت تقطّعها، ومع خرط سكينها أخذت
تتكلم عن رائف ولطيفة وطعان، عن أملها في أن توصي على خزائن
المنيوم للمطبخ. ثم دخلت نجوى وبعدها لطيفة إلى الصالون الذي كان
نظيفاً وجاهزاً.

كان الاثنان هناك وهيب ونوّاف جالسين وسط الدار هذه المرّة وندي
بينهما في ثوب بيتي أزرق من قماش المناشف. ارتدته في الغالب على
عجل. حضرا في الغالب مبكرين. الساعة هي الحادية عشرة والعادة أنها
لا تستيقظ أبكر منها بكثير. صاحت بأكثر ما تملك من ترحيب:

- يا هلا.

ثم بوجه يقلد العتب والخصومة.

- ما بدي سلّم. صار لي يومين دايرة عليك. محاسن قالت لي شافوك هون.

قلت لها إن هذا كان من أسبوع وهي تعلم، وإنني منذ وصلت حملت حالي إليها.

(أهلاً) وخرجت من محلها على الكنبه، أحطت كتفيها وشعرت بملمس المناشف الذي لا أحبه، وبرائحة شعر وجسد من البارحة. لم تغادر نومها منذ وقت طويل ولا تزال هالات تعب حول عينيها وزمة طويلة وعميقة في أسفل وجهها. كان وجه لعب به الأرق والنوم الصناعي بعد المنومات واليقظات الفجائية الصعبة والطويلة.

تركتهم يتحدثون وأخذت أتسكع في غرفة نومها حيث تأملت قناني عطرها، وأصابع الحمرة الملقاة بإهمال تحت المرأة. في غرفة النوم الثانية حيث تصفحت كتاباً أو كتابين وصلاً بطريقة ما إليها. كنت أتصفح الأشياء بسرعة وكأنني أحصيها ولا يحتاج هذا لأكثر من لحظات. حين تسعى لصرف الوقت، عليك أن تستهلكه تماماً ولاًخر ثانية، عندئذ يبدي قوته كاملة. تكفي دقيقة واحدة لتلاحظ ذلك، هي عندئذ دقيقة نووية تعبى نفسها وترجع مرة بعد مرة. عدت لألاحظ الأشياء نفسها. غبت أربعة أيام وتأملت أن أجد ندى وحدها، ولا أعرف ماذا أفعل سوى هذا

الدوران. لم يكن ضجراً ولم أكن قادراً على الضجر. حين أجد وقتاً خالياً أفقد بوصلتي وأروح اصطدم بكل شيء تقريباً.

لم أسمع شيئاً من ناحيتهم. خنت أن وهيب يتكلم، لكن صوت نواف لم يغب تماماً. كنت أسمع (مش هيك) قوية و(لا) قوية أيضاً ثم بدا صوت نواف يُركب جملاً أطول.

- يا عين بندهنها ونرد نبيعهها. سيارتك أو حياتك. بنفتح كارج.

كان صوت نواف يجتد. حين خرجت إلى الصالة وجدته واقفاً.

- هذا اختصاصكم، ما تدخلو حالكم بشي مش قدرتكم

ثم إلى ندى.

- إذا هيك. كل واحد بيشتغل لحالو.

لم يجب وهيب. لاحظني نواف

- بعدك هون. خليك ما تبعد. يمكن يطلع لك جائزة.

ثم غنى بصوت مبحوح:

بين العصر والمغرب مرقت سيارة حمرا.

جلس نواف وقلب متعمداً الحديث. سألني عن تحليل السياسي، فمنذ كنت مثقفاً حزبياً لنواف وهو يبدي احتراماً مجاملاً لرأيي. قلت له مبتسماً:

- بيعك من التحليل.

لعب على لفظة تحليل.

- هيئتك عم تصير محلول سياسياً.

ضحكت ندى. سألت وهيب أول ما ورد على لساني:

- كيف أراملك؟

قاصداً بذلك المطلقات اللواتي جندهن في الحزب. التقط نواف سؤالاً
وأعاد الحديث إلى المحلول السياسي والعسكري.

- معلش بكرة بيدهنوهن وبيردوا ببيعوهن.

استفزز وهيب:

- ما بيطلع منكن شي. خذلك على تنظير وحكي.

ضحك نواف. قال إن قائده بالفعل محلول.

- بدو دهن. بركي يتصلحولنا ياه.

سألته إذا كان حقاً يحمل بطارية في قلبه. قال نواف:

- وبراسو كمان.

خرج وهيب.

تركت ندى إلى المطبخ. لم يستطع نواف أن يسكت:

- حرامي بدن يانا نكمن لأخت الأستاذ ونشلحها سيارتها.

سألته لماذا لم يفكر بأخت الأستاذ بدلاً من سيارتها فأشار إشارة
بذئبة:

- مش خرج.

سألتُ ندى وهي في المطبخ إذا كانت أخت الأستاذ جميلة فأجابت
مستشارة:

- جمال بياعة لبن.

نواف عاد إلى وهيب:

- مساطيل عميفكروا يقتلوا مين ما كان من الميدان. كانوا عم يرصدو
حسين الدكنجي لأنو أصله من الميدان. ولو ما نلحق بآخر دقيقة كانوا
صرّفوه.. هلق بدن يسرقو سيارة مريم.

والتفت إلى ندى التي ظهرت على باب المطبخ وفي يدها صينية القهوة:

- سيبيه أفضل، رح يسبلنا مشاكل.

لم تُجِب ندى. ليس طيش وهيب مقلّقاً تماماً لها. قد يكون بالأحرى
نافعاً. أما أنا فقد بلغني علم كنت أفضل أن لا يبلغني، ما عاد بوسعي أن

أتفادى مسألة الثأر هذه. شعرت بها طبعاً، لكن فضلت أن تبقى مكتومة عني وأن أتمتع بجهلها. كنت أحس أن ما حدث نشأ من ضغينة عميقة مجهولة الأصل. إن جريمة ما كانت سبباً لهذه القرية. جريمة منسية تماماً لكن نموذجها وقوتها حاضران. ليس العنف نتیجتها فهو في الغالب همد.. لكن البرود تجاه الحياة والنفس. البرود الذي يمكن أن يذبح بقسوة. البرود الذي هو قلب الجريمة الباقي.

نواف وندى كانا دائماً يلاحقان ثأراً ما. معظمهم يلاحق ثأراً ما. أنا لا أهتم.

كنا الآن ثلاثة. دار الحديث إلى لطيفة. بدأ نواف:

- كيف جارتك؟

غمز بعينه ورسم يديه شكلاً جنسياً.

- بعدا...

ندى تنتظر.

- صارت ليدي بتوطي عينيها وصوتا، نحنا بتصرفك، سيد بسام.

- بتوطي دكتا كمان.

- عمتها ليدي قبلا.

- لما نسي الرابوق لباسو عندها لبسو جوزها ونزل فيه عالسوق.
أقول:

- بلا ما تنزلو سليلتها كلا عالطاولة...

لطيفة من عائلة أفرادها يلعبون على الأكورديون ويغنون ويرقصون
في الأعراس ويتشبهون بالمثلين والمغنين. كانوا أقل تحفظاً وأسرح. كأنها
بطريقة ما ورثوا سلوك العوالم. تردّ ندى.

- ما تديرها حريّات، بلا ما تعمل ست معك ومع رائف، تحمّم بنتها
الي صار معقّد براسا القمل.

كان صعباً أن تدير الحديث عن الأم والعمّة والأخت وأبناء العم
متعاطي المخدرات. لم أفهم حدة ندى تجاه لطيفة، يغضبها أن تتجرّأ على
تقليدها. ففي هذه المدينة الصغيرة التي بدأ فيها الاختلاط كانت الحدود
محفوظة في الذاكرة والحدس، وندى لا تغفر لمن ينساها.

لم يقم لعزیز سابع ولا أربعون. كأنها نعشه لا يزال حيث سقط على
الهضبة. لن تستريح روحه إلى أن تتم الشعائر. ليست هذه عقيدة. لكنّ
القبر يبقى مفتوحاً إذا لم تتم الشعائر. لم يحلف أحد بالثأر. لا الأخ الكهل
ولا أبناء الأخ الذين لا قدرة لهم، لا الأصدقاء ولا الرفاق. كلهم أظلموا

بيوتهم يوم السابع وقاموا إلى النوم مبكرين. لكن علامات الثأر كلّها حاضرة في هذا الدفن السريع والشعائر الناقصة.

حضر عصام ابن أخي عزيز الأكبر في الصباح. نفذ إلى بيت ندى باكراً. جاء في سيارة صاحب حضر للتسوّق وبنوي الرجوع معه. يرتدي الابن الأكبر كالعادة بذلة غامقة كسحته، وفضلاً عن ذلك الكرافات المربعة والنظارات القائمة على وجهه والشعور بيباس جسمه وتكوينه العظمي. لم أعرف ماذا أفضى لندی، لكنني وجدتها منقبضة ولم تنتظر أن يغادر. دفعته بكلامها.

- مستكترين قبر عليه. ما لميتوه، وهلق بدكن ترمو عظامو. هالبيت قبر ورح يظل قبر.

اندفعت تبكي وركضت مسرعة إلى غرفتها. وقف ابن الأخ برهة قصيرة وخرج. وجدتها جالسة على السرير في بكاء عنيف كلما اقترب من أن يهدأ عاد فانفجر في حلقة جديدة.

كانت تكرّر:

- لوين بدو يروح، لوين بدو يروح يا ربي.

جلست جنبها ورأيت ذراعي تغمرها في المرآة المقابلة ووجهها مخفياً في صدري. كأنها أرّنتني المرآة صورة لا تطابق إحساسي. صورة، رغم كل شيء أقلّ ألماً. تفاجأت أصلاً بأن لكل هذا صورة، صورة بلا دموع.

ظهرها نائم تحت ذراعي ورأسها الأشقر تحت رأسي الداكن، الذي نادراً ما بدا هكذا فتياً ولطيفاً. انطفأ الشهيق كأنها نامت. كان صعباً أن أطرد الإحساس بجسدها عن يدي، أن أطرد الإحساس بشعرها عن وجهي. في كل تماسّ جسدي نوع من إماتة جسدية، نوع من تخدير للجسد، لكني لم أستطع. لم أُرِد أن أصل إلى هذه الدرجة، تركت نفسي قليلاً للمسها ونفسها. تأملت الصورة في المرأة بدون شعور تقريباً. الأرجح أنها شعرت فانفلتت من ذراعي بسرعة، وبقيت وحدي في الغرفة أحْدَق دون انتباه في المرأة الخالية.

نزل ابن العم ليقول إن الأقارب يلقون حرجاً في دفن عزيز في داره. الكبار يقولون الدين لا يجيزه، وأن فيه مبالغة وتجبراً. «هذا باطل في شرع الله والناس» قال الشيخ محمد حينما علم بذلك. قبل الدفن جاءها الأخ برفقة الشيخ ابن عمّه وهو مقرئ تعزية وقرآن على القبور وغاسل موتى إذا لزم الأمر، ولم تتركهما ندى يواصلان كلامهما. صرخت بهما: «بدكم تورثوه» وتشنّج وجهها فأسرعا في الخروج.

أخبرها ابن الأخ أيضاً أن التهمة الآن على صادق العسال. رآته امرأة عائداً بالكلاشن في الليلة ذاتها التي قُتل فيها عزيز وهو كان قد لَمَح مراراً إلى جريمته. سأله تلك الليلة شاب.

- وينك سهران الليلة؟

- سهران وين؟ بكره بيحك الخبر.

وحين وصل الخبر قال أمام الجمع:

- تسلم الإيد الي صابت.

ورفع كلاشينكوفه بجمع يده عاليًا.

لم يكن الأمر مجهولاً إلا لقليلين. أما البقية فتردد في بيوتها أدق التفاصيل. مَنْ أطلق أولاً، مَنْ جرّ الجثة ومن غمرها بالتراب. الجميع يعرفون إلا أنهم أخفوا الأمر. القرية بصمتها تأخذ الجريمة على عاتقها، والجميع بسكوتهم يصرون على أن يكون لهم إصبع فيها. لم تخرج من هذا الكلام الذي يغلي كلمة واحدة إلى الخارج. لم يكن في الأمر حماية لأحد. كان ذلك أشبه بالسّر العسكري ويحفظ لأنه سرّ فحسب. ففي هذا الكتمان تبقى الجريمة مفتوحة ويلتحق بها من فاتته في بدايتها.

كانت الجثة هكذا في الأسر، ولا يتم الميت رحلته. يبدو محروماً من أن يتوطن ما دام محروماً من المواعيد الضرورية لرحلته. السابع والأربعون وفواتح الليالي الأربعين الأولى. بدا وكأنه لم يتنقل. لا يزال سجينهم هناك. لم تصل منه رسائل كالتي ينتظرها الأحياء. قالت ندى إنها لا تراه في منامها.

ترى نفسها في المنام وهي تبحث عن صورته وتجمعها بدأب كبير من فتافيت وتفاصيل كثيرة، تجرّها بتعب إلى المرتفع وكلما عادت تجدها نقصت. وتذهب وتروح بسرعة مكوكية وهي تجمع وتطرح بدون جدوى، إلى أن تخور من الصعوبة والاستحالة. لم أره أنا أيضًا في منامي، ولا أخته التي ربّته رآته. لم يتلقَّ أحد أماره منه. قراءة القبر التي ينقطع فيها القراء أيامًا ثلاثة في خيمة منصوبة فوق القبر لم تتم كما يجب. لم تُنصب الخيمة. لم يحضر قارئان محترfan، وتولّى القراءة أقارب بحسب أوقاتهم. لم يُعدّ كما يجب للانتقال. وظلّ محرومًا من العلامات التي ترسم له الطريق.

جلستُ جنبه على كرسيّ خامس. كرسيّ الضجر الموكول إلى المتفرّجين. نسيني تمامًا في لعبه. انتظرت إلى أن أنهاه بعبارات انتصار. غادرنا المقهى ولم ينتظر أن أسأله.

- عجبك مجانين قتلتك، عملوها.

- وين صار الانفجار؟

- أيّ انفجار، إصبع ديناميت أكيد زتو ولد على سيارة فاطمة الواقعة بين بيتو وبيت أهلو. منيح الما عوّر حالو. أكيد سرّب بالوادي. السيارة تعوّرت شوي. قتلتك رح يعملوها الفصل.

حين دخلنا إلى بيت ندى علا صوته:

- مش خرج، إصبع طوريين، هلق مين بيطلعنا من هالخرية.

وصل الخبر كبيرًا إلى ندى وتبينت بالتدريج حقيقته. كانت سلمت وهيب مبلغًا وعلى عدة دفعات. في كل مرة يذكر لها شيئًا ولا تهتم بأن تعرفه فرغبتها في أن تدفع كانت الأولى، رغبته في أن يكون سلاحها هي ورصاصها هي. بهتت عندما علمت بأنه إصبع ديناميت فقط. شعرت بأنهم جعلوها حمقاء، وجعلوا ثأرها لعب صبيان. بدت على وشك البكاء وكنت أنا حائقًا، وثلاثتنا غاضبين، ونوشك أن نرتد على بعضنا البعض. دق جرس الباب ودخل وهيب. سبقت ندى إلى الصياح:

- يا واطي. أشرف لكن تسرقو سيارات.

وقف لكلامها بنفس ابتسامة الفم الصغير الذي بلا شفتين، بالوجه المصقول الذي كأنها صنّعت من بورسلين. ترك نواف ندى لغضبها الذي سرعان ما تعبت منه أمام استسلام وهيب، وبدا يمازحه.

- إصبع واحد للحاجة مريم. هاي مفتحة شو بيعمل معها إصبع واحد.

لم يكن لو هيب جلد على النقاش. سكت حتى انتهوا وانتظر ليتأكد من أنهم اكتفوا. قال ويده على ذراع الكنبه وعينه على الجدار كأنه لا يخاطب أحدًا:

- ما عندي علم. سمعت متلكن. بشر في ما عندي خبر.
- كانت ندى حريّة بأن تقلب الدنيا عليه، وبالفعل بدأت:
- اطلع منها. بنعرفكن. صار لك يومين حاكي.
- لكنّ نواف تدخّل:
- هيدي فعلاً عملة ولاد.
- ثم وكلامه لندی:
- واحد أقل خبرة بالعسكر ما بيعمل هيك.
- استراحت ندى من غضبها. كفتها عبارة واحدة من نواف.

إصبع ديناميت أو غيره. هذا ما كانت الميدان تنتظره من أربعين يومًا. لم يلاحظ أحد طبعًا سوى ندى أنها ذكرى أربعين عزيز، ولم تُبال. صعدت إلى الميدان وقادت سيارتها من جنب القرية إلى الهضبة وإلى البيت. وضعت إكليلاً كبيراً على قبر عزيز وأمضت هناك إلى الظهر وعادت.

في الميدان إصبع ديناميت، بل صوته وحده يكفي ليؤكد أنهم بدأوا حربهم المنتظرة. أن يكون صغيراً إلى هذا الحد لا يهم، فالجواب لن يكون أقل من إعلان حرب. سُمع الانفجار في العاشرة مساءً. هرع أخوة الأستاذ

مصطفى ولحقهم الأستاذ. أما مريم فتأخرت حتى غيرت ثوبها. تجمعوا عند السيارة التي تحطم مصباحها وانطعج جانب مقدمها الأيمن. كان أصغر الأخوة يصوب مصباحه اليدوي إلى السيارة، وينقل الضوء على كل مقدمها وزجاجها الأمامي الذي تحطم وظهرها الذي لم يُصب تقريباً. كان سقوط الزجاج الأمامي كله وتفتته وانتشاره على كل مقدم السيارة وحواليها مؤثراً كالعادة، وقريباً من أن يكون نزيهاً، فيما بدا المصباح المحطم والجنب المطعوج أقرب إلى اعتداء جسدي. انحنى الأستاذ جانباً عندما بدأ الجيران ينزلون ويقفون معه ويدعون الأخ الأصغر أن يعود إلى إضاءة السيارة لهم، ثم بدأوا يصلون من أواسط الضيعة وأطرافها، وكنت تراه من بعيد وأضواء مصابيحهم اليدوية تسبح في الليل. كانت الأضواء تغط وتحوم، ليس فقط على طول الشارع الرئيسي، ولكن من فم الشارع السفلي الذي يتفرع منه. لم يطل الوقت حتى احتشد الكثيرون أمام الدار. تحلق أركان التنظيم حول الأستاذ فيما بدأ الجمع ينغل ويفور في كل ناحية. لم يكن تقريباً في العتم سوى مصباح الأخ الأصغر الذي تابع عرض السيارة للحشد، ولم يطل الوقت حتى جيء بلوكسين قويين وضعا فوق سياج الشرفة، وعام الجميع في الضوء الأصفر الزجاجي لشاشتي اللوكسين. استيقظت مبادرات كثيرة. ارتفع فجأة صوت فخم قوي من أعلى المئذنة يرمي وسط الجمع والقرية عبارات «اليد الآثمة، المنتقم الجبار، في جنات ينعمون، وما من يد إلا ويد الله فوقها، كيدهم إلى نحورهم...».

كانت الساعة عند منتصف الليل تقريباً عندما سار الحشد إلى الحسينية. هناك نُصبت لكوس كثيرة على المنبر وعلى جدران الحسينية. لكوس كثيرة أخذت تبث باستمرار دفعات إضافية من الضوء حتى بدا أن النور يزداد دون توقف في القاعة الكبيرة. كان النور ينكشف ويزداد شفافية ونقاوة حتى بدا كأن الهواء في القاعة يرفّ ويلمع. ازداد الليل إشراقاً ساعة بعد ساعة. ليلة بيضاء أمضتها القرية في الحسينية وحوها، وهذه بدت من بعيد معلّقة خفاقة وكأنها غيمة مشعّة. الخطباء بالتأكيد أقل الناس إحساساً بخفة هذه الساعة، يصعدون إلى المنبر ببطء ويتكلمون بجهد كأنهم ينقلون أمتعة ثقيلة، لكن الساهرين لم يشعروا بأنهم في حفلة نشاز، وإن انجذبوا أكثر إلى المنشد الحسيني وهو يصعد نشيده الأحشائي.

شقتشق الفجر وداعب أعين الكثيرين فانهدموا على كراسيهم وأماكنهم. طلع الصباح والناس على أرض الحسينية وحوها نائمون أو مهدومون، مجموعون في قطعات صامتة مكومون أو مصرورون كالأمتعة.

مبادرة ثانية في الليلة نفسها. طق طق على بيوت الحزيين الذين لبثوا في بيوتهم خائفين. استقبلتهم النساء باللوم والصياح. وجدن سبيلاً للقول إن هذا بلدنا أيضاً. لكنهم كانوا صارمين، نتعوا الرجال في ثياب نومهم وأخذوهم إلى المراكز. وجدوهم جميعاً تقريباً. توارى ابن المختار فسلمه والده قبيل الظهر. أخرجوه من المركز إلى الساحة في طريقهم إلى المعسكر.

تعمّدوا أن يكون ذلك والقرية عامرة.

كانوا صفّاً من 15 واحداً. أيديهم مربوطة إلى بعضها البعض بحبل، وعليهم أن يمشوا ووجوههم إلى السوق، كما ينس بذلك أمر غير مسموع، وبفشخات بطيئة. عصام ابن أخي عزيز، بالأحرى الأستاذ عصام، يجرّ قدميه وعينه على مزق في بيجامته الصينية القديمة.

كان يشعر بأن الياقة بادية البلى. أغلبهم على كل حال في بيجامات مهملّة، فالناس هنا لا يهتمون ثياب الخروج وتكون بيجاماتهم وخاصة ثيابهم التحتية بالية مخرّقة، إن لم تكن قدرة. حين صاروا في السوق توقف كل عمل. توقف القصابون الثلاثة جنب ذبائحهم المعلّقة في فتحات الأبواب وسواطيرهم في أيديهم. توقفت النسوة اللواتي كن يتتقين من أكوام الثياب المشقوعة على البسطات. توقف العجائز الذين بكروا إلى الجلوس على الحجارة والصحاحير. توقف الصبيان الذين يلعبون في نقع المياه. كان بين المقيدين ثلاثة من معلّمي التكميلية وبضعة طلاب في الصفوف المنتهية وابن المختار والكهربائي الوحيد في الضيعة. توقف الجميع يفحصون وجوههم وملا بسهم بدون أي تعبير. كان همّ محمود المدرّس في زر بيجامته المقطوع. وسليم المدرّس أيضاً يجرّك كتفيه دائماً ليعدّل بيجامته فلا تكشف عن بروتيل يعلم أنه مخروق من أكثر من محل. أما فيصل تلميذ الصف النهائي في الثانوية فكان ينظر بقلق إلى ربطة يده المفكوكة وإلى حرّاسه في الوقت نفسه. كانت هذه تملّص أكثر فأكثر، وتتسع على يده التي بات قادراً على

أن يديرها فيها بقدر من الجهد. حرّكها قليلاً فدارت. خاف أكثر ونظر إلى الحارس وهو يعرض عليه يده لكنه لم ينتبه. عندئذ تشجع وبيده الطليقة المسنودة إلى المقيدة أخذ يشد مجدداً ربطة القيد.

كان الصف يتقدم في السوق وبموازاته ثلاثة حراس أغرار يسرون بقدر من كسل وخلفه حارس يتقدم كالصياد بخطوات ثقيلة وحذرة وبين يديه رُشيش مرفوع. كان يرتدي ثياباً كاكية ضاربة إلى الخضرة. بدا هكذا أخضر من شجرة: بنطلون خُضرتَه لا تناسب الجاكيت الذي تخرج منه أشرطة غريبة، برنيطة كاوبوي خضراء تماماً، أغراض من محل بالات في الغالب، والأغرب من ذلك نظّارات سوداء واسعة. هكذا بدا الرجل مركّباً بطريقة ما، مقنّعا إن لم نقل محجّباً.

لم يكن المعسكر بعيداً. بضع خيم منصوبة قرب النبع المجور وسط الصخور. ما من شجرة. فقط صخور متربة والمياه راكدة بينها في نقع منشورة إلى مدى واسع. كان الجدول الصغير مطموراً تقريباً بالعُلب والبقايا. كذلك ظهر وراء الخيم جبل صغير من العلب والأرغفة اليابسة المحطمة وأطباق التنك المشققة.

حين وصل الصف لم يجد سوى الحارس الجالس عند أول خيمة، وواحد أو اثنين يستظللان بخيمة أخرى. صمت وخلاء وما يشبه النوم.

أمرهم حارس المؤخرة بأن يتجمعوا. فعلوا ذلك بعجلة وتعثر بعضهم

وجزّ معه غيره إلى الأرض. صاروا بين الخيم. أمرهم الحارس بالجلوس فسقطوا بعضهم على بعض ثم جلسوا. بدأ يأتي من وراء الصخور مسلحون ذوو لحى ملبّدة يابسة على وجوههم وثياب كاكية متربة ناسلة أو مقطّعة الأزرار أو حتى مرقّعة. وصلوا على هاتف غير مسموع، وبسرعة برقية كأنهم كانوا ينتظرون خلف الصخور. في برهة كان السجناء وسط حلقة من مقاتلين واقفين بأسلحتهم.

لم يطل الأمر. تقدّم المقاتلون وارتموا على الجماعة بأسلحتهم وأقدامهم. كانوا يضربون في كومة أثارهم حجمها البكر وتراصّها واستفزّهم إلى اللعب بها. مرّ بسطار عسكري يابس بين وجه الأستاذ عصام ورأس شريكه في الحبل. وواتته لكعة من أخمص رُشيش مؤلمة هذه المرة، ووجد من يرفع له وجهه بيده ليسدّد آخر إليه قبضته، من ينصبه ليكونه شخص آخر. أحياناً كان ثمة ما يشبه المزاح، صفعات على قفا العنق، شدّ أذن بل حتى كركرة بطن.

دار ذلك في سرعة مذهلة. سرعة لا تسمح بالألم، وما عدا لكعات توجع مرة واحدة، لم يشعر بألم. لم يشعر بخوف. لم يحسّ أن له جسداً. أحس فقط بجسد الثاني يدور حوله كالزوبعة. الضربات تختفي بمجرد أن تصيبه كأنها ترتدّ عنه. كان خفيفاً جداً لدرجة أن تدفعه الضربة بعيداً عنها. لم يحزن أيضاً. جسده هو الذي يتلقى ذلك. تلقّاه وحده وتركه وحده يتلقّاه. حين شعر بمقدمة البسطار تحت ذقنه تماماً قبل أن تدفع رأسه قال

إنها مُحْكَمَة وأصابت هدفها. لم تُصب كل الضربات هدفها على كل حال، بعضها أخطأ بالتأكيد. لم يندمج في صياح الآخرين من حوله. هل يتألّمون حقًا أم أن خوف الضربة أكبر منها؟ يصيحون لأنهم يجب أن يفعلوا؟ لأنهم هكذا يجيئون عن ضربات معذبيهم. هل صا ح هو أو أفلتت منه صيحة؟ لا يذكر إلا أن صوته لم يكن معه. توقف الضرب فجأة. رأى الكدمات على الوجوه حمراء وردية، ثم أخذت مع الوقت تزرّق وترسم بوضوح وكأنها تصعد من تحت الجلد. وجد نفسه يتأمل هذا ويتنظر أن يرى كيف تستحيل الكدمة من وردية إلى زرقاء رصاصية. كان في هذا شيء كالكتابة السحرية، كالرّصّة التي تختفي تحت قشر التفاحة وتظهر تحت القشر واسعة وداكنة. هذا التشبيه قاده إلى آخر: الوشم، ومن تشبيه إلى تشبيه لم ينتبه أنه ينسى. الألم والخوف موجودان ولكن كأصل ضائع. شعر ببساطة أنه لم يعد يخاف.

أمضوا في المعسكر ثلاثة أيام مقيدين ومهملين في خيمة ثم أطلقوهم وعرفوا أن رامي الديناميت هو عدنان أخو عصام الأصغر. الأصغرين ستة أخوة طوال وشقر وممتلئين بالعظام. ثلاثة معلمين ورفيق، دولة بحالها. البيت ملآن بالرجال وهو ليس أصغر ست سنوات من أفتاهم فحسب لكنه أيضًا لم يشبّ كما يجب. بقي قصيرًا ولم يؤمل أن يلحق بأخوانه الطوال كالنخل. ثم إنه بلغ الخامسة عشرة وتعدّها ولا يتعجّل أن يكبر، لم

يدهن شعره بالجيل ولم يدخن ولم يلحق الفتيات ولم يغلظ صوته ولا طبعه. كان يجب أن يزدحم البيت بأخوانه وأصحابهم، وأن يمتلئ بدخانهم، أن يخدمهم ويحمل إليهم الشاي والماء ويستمع إليهم. بعد مقتل عزيز خلا البيت تمامًا، بدا أخوته حبساء منزلهم. ذهب رفقته إلى المعسكر وعادوا وفي أيديهم سلاح عذبوه به. طارده ثلاثة منهم كالأرنب وأجبروه على أن يرمي نفسه من الجبل ليتسلل إلى بيته. ما عاد يأمن أن يخرج إلى الحارة، فهناك دائمًا صغار مؤذون مستعدون لمطاردته كفأر مذعور. خاف كثيرًا من هؤلاء الذين حظي من قبل باحترام خاص منهم جعله خارج امتحان القوة المفروض على غيره لأنه الأول في صفه، ولأن بيته دولة بحالها. لا نعرف كيف حصل عدنان على إصبع ديناميت، لكنه رماه على سيارة مريم وسرّب إلى الوادي. وصل عند الفجر وتوجّه إلى مكتب الحزب.

لا أعرف كيف حصل ذلك. كنت عارفاً أنه يحصل. ظنون، لكنّ الظنون وحدها الأكيدة.

كل صباح، ولخمسة أيام في الأسبوع ترميني السيارة على المفرق. أصعد إلى بيتها خالي البال كمن يذهب إلى عمله أو إلى بيته.

يبدأ الطريق بما يشبه دلتا واسعة تظل تضيق ببطء إلا أنني أحب أن أتمهل عند كتف الطلعة، وهذه بالفعل قريبة من الكتف. أرى أربعة شوارع

تنبثق واحداً بعد الآخر. المقهى عند الزاوية وغالباً ما يناديني صاحب فيه إلى فنجان قهوة. إنه قالت من الشارع الذي يحتاج إلى بضعة منعطفات قبل أن يتحوّل إلى مجرى ضيق. أرتاح إلى المرور هنا قبل أن يتصلب الشارع ويغدو عند اتصاله مع آخر كالملزمة. هناك أنفذ من زاوية مستقيمة إلى شارع لن يحافظ على استقامته وسيبتعثر بعد 30 متراً. قبلها بقليل أصدع بضع درجات وأدق الباب. لم يطل الوقت حتى صرت أتعتمد أن أسبق إلى منعطف أتسلل منه إلى درب تنفذ إلى بيتها، هكذا أتجنب المقهى ودعوة الصاحب ودكاكين الشارع ولا يلحظني أحد. لم يأت هذا الحرج من داخلي. فكرت ببساطة عن الآخرين. قلت إني لست في أفكارهم وأفكار طعان سوى الرجل التالي.

أوقظها من نومها. تفتح الباب خادم بلون التراب شعثناء الشعر. تناديني من غرفتها. استيقظت من طرقتي أو انتظرتها لتستيقظ. أذهب إليها في حجرة نومها دون أن أعتاد ذلك أو يزايلني شعوري بأني أتجاوز شيئاً ما. أراها في السرير العريض كالنائمة. راقدة على جنبها وعلى خدها ويدها ممدودة على الوسادة. الستارة تغطي الحائط المقابل والغرفة مغمورة بها كما هي مغمورة بلحافها. كرسيان أسودان لماعان أمام طاولة الزينة التي ترقد في مرآتها الصورة الساكنة والقائمة للسرير والستارة. أقرب من خلفها، وربما ركعت على يدي لأقبلها على خدها. ألامس شعرها وأشمّ منه عنقها. بلا رائحة تقريباً. شميم جلد يتنفس بحرية دون أن تفسده الأغطية ولا

النوم. تستيقظ كنبته في النسيم. وجهها ملموم رابي الجلد وشعرها حيّ وناعم كأنه هواء ملوّن.

أتركها لتغيّر ملابسها. لا تتأخر. تلقي نظرة على مراتها وربما عدّلت بيدها شيئاً ما في شعرها. ترمي ثوباً عليها. تخرج لتجلس نصف نائمة على الكنبة. أعدّ قهوة وتجلس صامته تحتسيها. تغمغم أحياناً أنها لم تنم إلا «وش الصباح» وبعد الحبة الثالثة، ثم تعود إلى قهوتها. صمت عادي وكلام عادي كأنه فعل بيولوجي. نعيد ما عرفناه وما طحنّاه، لكن أيضاً بالطريقة نفسها، أسرار كثيرة تبذل برخص ولا تكاد تُلمّع، كالفضيّات التي تضيع بإهمال بين بقايا المائدة. كانت هناك دائماً يوميات البارحة. تقولها وكأنها تكنس منزلها.

- يميّل بيّ كل ليلة الساعة ستي. بينادي من تحت، ولما بطلع بيطمّن ويبروح... لطيفة وجوزا بيتصبروا هون كل ليلة، والساعة عشرة بتطب عندي.

تفرش هكذا أسرار أخوتها وزميلاتها.

- حتى بحياتو كانت تظهر مع إميل وبعلمو، أخوتو كمان كانوا يعرفوا. تتكلم وكأنها ترمي أشياء لا تراها. تتخلص منها ولا تبدو مهتمة. تصادف أشياء وتتجاوزها وقلّما تأتي بشيء من عندها أو داخلها، كأنّ الخارج يتكلم فيها. لا تنفذ إلى نقطة تحت المسام، تحت الجلد، إلى فكرة

أو نكتة أو إحساس. كلّه من وراء عقلها ونفسها، كلّه من فوق الجلد. ليست ندى مع ذلك غبية أبدًا. تقول «ما بعرف بحكي» وليست آسفة. ربما تحسب أن الكلام ليس بيت الذكاء.

لا أعرف متى نادتنى إلى غرفتها أول مرّة. متى أعددت لها القهوة أول مرّة. هذه عادات نشأت بيننا عندما عادت إلى عملها في الخريف. بقيت أجدها في بيتها في الساعة نفسها. ربّبت أوقات عملها بحيث لا تغادر قبل العاشرة.

ليست نوبات ندى أقلّ توتّرًا. هذه تأتي بغتة. بعد مصارعة الليل الفظيعة تأتي اليقظة المبنّجة بثلاث حبات فاليوم. تستيقظ حجرًا، لكنها تحيا بالقهوة وتبدأ بتحضير طعامها، فهذا ما لا تتركه ليدي الخادمة السوداوين. لا تعرف متى تنداعى، في الصباح أم العصر؟ تحس فجأة أن رثتها تتصلّب، تجاهد لتمتص نفسًا منها. تتصلّب وتتحجّر وهي تحاول أن تشهق نفسًا. تشعر بثقل رثتها شعورًا مؤلمًا حتى كأنها تلمسها. تحسّ بجسدها ييبس وتعاود لتمتص حياة منه. وفي لحظة يسكت فيها كل شيء، كل صوت، كل نبض كل حسّ. لا يبقى سوى عينيها تبصران صوتها كما ترى نفسها في المنام، عينين حيّتين تبصران الجسد الذي تجرّه في حلمها. تلوي ذراعها على المعدن بألم تحسّ معه أن المعدن في يدها وعظمها، قبل أن تجد صوتها الذي يندفع قطعًا، ونفّسها الذي تشهقه قطعًا.

كنت أسرع إليها في حالها هذه، أسعى إلى أن أحييها بذراعي ونفسي

ونبضي وفمي. أنقل إليها جسدي كلّه. أبثّه فيها في كل مكان قبل أن تسترخي وتتدفق عيناها. أحسب أنها بدرجة ما واعية أن جسدها في رعايتي، وأن جسدي ينتقل بصورة ما إليها، أنا الذي شهدت هذا الجسد يحيا مرات كثيرة بين يدي. أشمّ منها عندئذ كل الرائحة التي لا رائحة فيها سوى نقاوة الدموع. كانت تقريباً تغفو ويروح نفسُها ولمسها ينتقلان درجة درجة إليّ. يزداد إحساسي بهذا الجسد. أتشربه على مهل. أحسّ بخصرها، بصدرها مضغوطاً في صدري، بشعرها على وجهي. يشيع فيّ ذلك قليلاً قليلاً، ويتعدّ تحت الجلد وتحت المسام، ويختفي إلى أن يضع أثره. سائل محرّر ينتقل إلى مناطق بعيدة عن الحسّ. كنت أمتلئ بهذا الزيت بدون ألم ولا نار ولا رغبة، تاركاً هذا الخفقان الضعيف يملأني، مستمتعاً بالبطء وطول الوقت.

قد يبدو هذا الكلام فضفاضاً، ما أردت قوله هو أنني لم أقصد، ربما لأنني أعرف أنه حاصل من نفسه، لم أقصد ولم أفكر حتى. عندما تتأكد من شيء كهذا تذهب لتنام وتتركه يعمل. يعمل كالدواء، أظنني أخذت هذا التشبيه من إعلان تلفزيوني، لكنه مناسب وصحيح. يعمل كالدواء حين تنام. لا تحس به ولا دليل على وجوده. لم أعمل لذلك، لو فعلت لأخطأت كثيراً. عمل له الوقت وكأنه روزنامة تتم يوماً بيوم. جسدينا فعلاه من دوننا تقريباً. فعلاً ذلك دون أن نساعدهما حتى بفكرة. لكل

شيء وقته وسيحصل في حينه كما تصبح الزهرة بُرْعَمًا. القبلات تغدو خصبة أكثر والحياة تنتقل بين الجسدين يُسر أكبر، لكنّ اللحظة التي تتحوّل بها اليرقة إلى فراشة واحدة وتأتي في وقتها.

عرضت عليّ ندى ثيابًا اختارتها. كانت حينها عائدة لتوّها إلى الحياة. دخلت إلى غرفتها وعادت بثوب مشقوق قليلا عند الفخذ. خصرها فيه ضئيل إلى حدٍّ مؤلم وصدرها صغير وتحتاج فقط إلى جدائل. ثوب آخر من قطعتين لا تكادان تتصلان، وإذا رفعت ذراعها بدا زيح من جسدها أبيض خامر. ثوب من جاكيت وقميص بكمّين فضفاضين وتنورة. جاكيت يحتاج إلى أوسمة وكتفان يحتاجان إلى أشرطة ونجوم. تدخل بهذا وتخرج بذلك. اختارتها مرة واحدة من قريبة لها تبع في بيتها وأحضرتها لتتقي منها. بدت جميلة في ثوب المراهقة والصبية والسيدة. كانت قادرة على أن تكون هذه وتلك. قادرة على أن تكون كل مرّة ملء قناعها.

أعجبني ثوب الصبية ولم أحب الجاكيت فخلعته وجعلته جانبًا، كانت هذه إشارة إلى أنها تختار لي. جمعت الثياب وعادت ومعها فولاران بنفسجي مزخرف وبترولي سادة. هديتها الأولى لي. كانت سمعتني، صادقًا أو غير صادق، أقول إنني أحب الفولارات. تلك إشارة ثانية تعززت بفولارات أخرى.

عندما زرتها في يوم آخر انتظرت إلى أن شربنا القهوة ودخلت لتخرج في ثوب الصبية، وعندما صفّرت إعجابًا قالت «لعيونك» وانفلتت إلى

غرفتها، زرعت كلماتها واكتفت. إشارة. كنت أجمع الإشارات، أنتظر اللحظة، الإيعاز، وليس لي خيار. وفي صباح أسندتها إلى جدار ودون كلمة قبلتها في فمها.

لم تقل شيئاً ولم أنتظر أن تقول. حصل ذلك وليس لأحد أن يسأل. أحسبها شعرت أيضاً أنه الأوان. لم ألم نفسي مرة واحدة. قد أكون لطيفاً أما الأمانة فللجبال وحدها. امرأة صاحبي. أليست هذه قصة تنقصني. امرأة السرير المجاور والغرفة المجاورة، العائلة من وراء الموت ومن مخيلة وتنهّدات رجال جعلوا منها تفاحة. ما أسهل ما يمكن مؤاخاة رغبات الآخرين وسرقتها. شهواتهم تفتننا أكثر من شهواتنا. إنهم الغرفة المظلمة التي تعمل لنا. ما كنت في حال أملك فيها أن أرفض شيئاً، فأنا آخذ ما أجد في طريقي. سوى القلق لا أعلم لي شيئاً يخصني. عزيز، أخي، أبي سرقتهم بمعنى ما. الحياة والأشياء أجمل لأنهم تركوها لنا، ولا يحق لمن ينفقون من صدقة كل يوم، من وظيفتهم الحياة أن يردّوا شيئاً، وهذه المرأة هدية من الجانب الآخر.

من تأسست حياتهم على الذنب مثلي لا يخشون ذنباً. جريمتهم صنعوها في مهودهم وربما قبل ولادتهم. إنها مجهولة لكن لا يمكن تعويضها.

شيء ما مثل كفر، مثل اجتلاب لعنة على سلالة كاملة. حسابها نفسه مجهول وبالقياس لها كل ذنب آخر زائل هوائي. لم أشعر بالخيانة وربما

فرحت بها. الخيانة التي أحسّها لا يمكن بعد القيام بها لكنها بمعنى ما تدمغ عرقنا.

إنني أتفلسف الآن. لم أَلْم نفسي، إلى أن مات أبي بقيت أراه في أحلامي ميتاً، وأنا للآن أجري في نومي أحياناً متخلّفاً في عقل شجرة، ميتاً حياً في حياة شجرة أيضاً. لقد فعلت كل ذلك، قطعت بنفسني جذعي ويميني، ولن يكون أحد بعدُ يميناً وجذعاً. إنهم أغراب عابرون. وأنا غريبهم وأنا عابريهم. ولا مجال بعد لصلة في مستوى الخيانة.

كنت أعرف أنني سأسندها إلى الجدار. ربما لأنني هكذا لا أترك لها سوى الجدار. ظلّ فمي على فمها طيلة الوقت. بدت مدهوشة قليلاً من حركتي. اتسعت عينها وشهقت نفساً لكنها استسلمت. بدا في حركتي إلزامٌ قبلته. لم أفعل سوى أنني وضعتها بيني وبين الجدار. بعدها كان فمي على فمها، ودون حركة تقريباً. بهدوء يتلقّى جسدي الصامت جسدها، يبتّ ويتلقّى. كلاهما يشيع دون حركة في الآخر. حصل هذا بكمال واكتفاء غريبين. كان ذلك نباتياً إلى حدّ، شبيهاً بانتقال الطلع. جسدي ينتقل بالخفقان الخفيف والنفس المخصب إلى الآخر. ليس ثمّة نار بل سريان ناعم. إرسال منتظم انتظام النفس والخفقان. فمها مفتوح تحت فمي. وبطنها لصقي. لكنّ يديها مدلاّتان حرّتان تماماً. لم تعدلّ عنقها المائل على الجدار، وظلّ وجهها شبه نائم، في حين أن جسدها المحصور لم ينبس بحركة. كان هناك مع ذلك العدّ الوهمي للمدّ والجزر المتناوبين بيننا، وذلك العمق الوهمي

لرائحة العنق ولمسة القماش يتكاثف في حواسي وأحسّه يتحوّل إلى مادّة محرّرة ترتفع قليلاً قليلاً، إلى أن شعرت بأنني أتحّرك في دفقة واحدة من نفسي وجسدي. سمعت صوتاً محبوساً في أسنان ندى. ورأيت وجهها مصبوغاً وعينيها لماعتين.

ارتخت يداي عنها فتملّصت إلى المطبخ. تركتني خفيفاً كالظل. هذه لذّة لا تنتهي بشعور بالتخثّر واستلام جسد من الفلين المبلول. لذّة خضراء وحيّة ومتصلة إلى درجة ما. أدخلت يدي تحت قميصي أمسّد شعر صدري وأتحسّس الأضلاع وأمرّ على الخاصرة، كان جسداً مرغوباً وله أحياناً برودة الرخام وملاسته العذبتان. أدخلت يدي في بنطلوني، كان السائل لا يزال في كيلوتي. أحسسته بارداً ونظيفاً كالماء، وكنت في العادة أحسّه مدهناً ودبقاً. كان في هذه اللذة الطعم غير المستوفي للفاكهة العجراء، والذي يبقى فيه كثير من الطعم الأول للنبات، ويدوم كأننا نبحث عن مذاقه. لم تزعجني اللذة غير المستوفية تماماً ولا طعمها القليل. ديمومة هذا الطعم الفجّ سرّتني، فيما كان جسدي في هذه اللحظة فجّاً إلى حد لم يقطف ولم يؤكل تماماً.

لحقّتها إلى المطبخ. وجدتها استدارت إلى المجلى تغسل خضاراً. سمعت طشطشة الماء وهو يركض في المجلى. شعرت بي بالتأكيد، فلها هذه المقدرة التي تشبه الحدس على تنسّم خطوات الآخرين. صعب عليّ أن أبدأها

بكلام، أما هي ويدها في الخضار فكلمتني عن زيارة أبو حسان صديق العائلة الآتي من السعودية. مدّت يدها لي من خلف ظهرها وقالت دون أن تلتفت.

- جبلي هـ الساعة، شوف.

اقتربت وتحسست أصابعها وخواتمها بأطراف أصابعي ورحت أمرّ براحتي على كفّها وساعدها. تركت يدها لي ولم تتحرك حتى حين وضعت رأسي في شعرها وعنقها. تأخرت قليلاً وبات كتفاها في صدري وظهرها لصقي. لففت ذراعي على صدرها ونمنا قليلاً على هذه الحال. ثم استدارت إليّ على مهل وواجهتني. كان وجهها متورّداً وعيناها فاترتين لكنها لم تبسم. نظرت إليّ مباشرة وفي عينيها شيء يقول «ها أنا. أرنى ما تريد». استسلمت لذراعي وتركت لي فمها، تناولته ومرّغت فمي في وجهها وعنقها. ظل وجهها مرفوعاً ساكناً ومع عينيها المطبقتين بدا مرسوماً كقناع. كان يتشرب من أسفل الخد ألواناً عديدة وردية وخمرية وحتى نبيذية. تصعد إلى زري الخدين وترشحان إلى العينين نفسهما. بقينا هكذا وسط المطبخ والماء لا يزال يتدفق من الحنفية وسط المجلى. وحين بدا وجهها مدبوغاً تماماً لكن بدون أن تتغير رسمته الحازمة، زاد انفتاح فمها وسمعت من أسنانها أصواتاً مختلطة.

بحثت عن كلام فوجدته حطبا في داخلي وكان عليّ أن أحركه بشبه

ملعقة. كنت متأكدًا أنني لن أجيد نطق أي عبارة، وأن الكلام سيخرج مني كما يخرج صوت من آلة. تعبت لأقول لها إن وجهها كان في لون أوراق الخريف أثناء (...). العناق. علقت كلمة العناق كشيء في حنجرتي، أما هي فلوت وجهها ولم تتركني أتعب في قلع الكلمة. أحسب أنها لم تنتظر مني أي كلام، بالأحرى لم تُرد كلامًا فيه. بدأت بل عادت إلى حديث عن أخيها المدمن.

- بيوقفلي بنص الصالون. ييحكي بالعالي. يشيل ويحط ويحط ويشيل حتى أزهرق.

أثناء ذلك عادت إلى خضارها، أكملت تنظيفها ونقلتها من حفرة المجلى إلى بلاطته وبدأت تقطيعها على اللوحة.

- بعدك بتحَبّ التبولة؟

طبعًا أحبّ التبولة. لكن ما لندى تتحدث عنها الساعة. أليس عليها أن تنتظر إلى أن يبرد وجهها على الأقل؟ فلا تتكلم وكأنها تحرك مكنتها.

دخل رائف معجوقًا كعادته وظل برهة واقفًا كأنه لا ينوي البقاء ثم جلس على الطرف كأنه يستريح للحظة. بالكاد التفّت إليّ، لكنه كلّم أخته بصوت عال.

- انتبهى من لطيفة يا نجوى، عم توعيتها. من أيمتى بتبشري بالحياة الزوجية. بتعلميها على خراب بيتها. تيناتكن ما بتفرقوا معي.

رفع يده فاردًا أصابعه الخمسة ورمى بها شيئًا غامضًا وغادر دون أن ينتظر جوابًا.

- مجنون. مخمن أنو نجوى مش مشتلفة. مانها سامعة وعارفة.

هذه بداية زيارات بعد الظهر، لطيفة، محاسن، أخيرًا نجوى بعينها الخاشعتين ثم زينب السمينة الفالطة اللسان. علا صوت الجارة الفاحش وبدأت نجوى تكوِّز شفيتها وترخي عينها كلما التفتت، ومحاسن ترفع ذراعها وقبضتها في وجوه جلساتها، وندى تصغي وتتجاوب بعبارات قصيرة. أما أنا فقد نسيني تمامًا في عجقة أحاديثهن، بعد أن خصّنتي كل واحدة منهنّ لدى دخولها بلفتة، ونسيت أنا نفسي وسطهنّ. أردت فقط أن أتركني فوق المقعد. كان صعبًا عليّ أن أجد كلمة، وصعبًا عليّ أن أفكر. كنت هكذا مكتفيًا براحتي أذهب وأجيء مع النفس الذي يملأني ويخرج مني.

دخلت إلى غرفة نومها ونادتني من هناك بعد أن أقفلت وراءهنّ، وجدها تعدّل شعرها وتفرك الأحمر على خديها براحتها. كانت تنظر إلى مرآتها وتكلمني، ثم وكأنها انتبهت:

- نسيت فرجيك ع القميص.

قامت إلى خزانة وأخرجت قميصًا حريريًا أبيض فردته على جسمها.

عانقتها والقميص ما زال مفروداً عليها. كنا أمام المرأة ورأيت فمي على فمها. بدونا متناسبين أكثر مما حسبت. رأيت نفسي أضع خدي على خدها ونتأمل في المرأة. أحملها بين ذراعي وتشهق وتنظر وكأننا أمام الكاميرا. «طق طق على الباب» وتقول:

- عجل افتح.

أذهب وأنا أعدّل قميصي في بنطلوني. أجد نواف يقف وسط الغرفة يسأل عن ندى فأشير إلى غرفة النوم وأتشاغل بالسؤال:

- شو صار بالحوارة؟

- ما شي، شاب من التنظيم سحب فردو وصالحوهن.

تخرج ندى:

- أهلاً، أهلاً ما بدي حاكك. بتمرق من تحت بابنا وما بتميل؟ يا عيب الشوم.

نظر نواف إلى ندى وإليّ وبدأ أنه فهم. لمع في عينيه شيء تداركته بسرعة. سأل عن أيمن الصغير. قالت ندى إنه عند جدّه مع أخته الكبرى. ولا أدري ما دعاها إلى القول إن البنت الوسطى سارة عند خالتها وهذه ساعة عودتها. افتعلت أيضاً خبراً عن محاسن لتقول إنها خرجت ونجوى من عندها قبل دقيقة. لم يُطل نواف زيارته، قال إنهم ينتظرونه في المكتب وإنه

عَرَّجَ ليقول لندى إن الأستاذ نزل إلى بيروت وعاد إلى الميدان وهناك من شاهده على الجسر. ما دام فعلها مرّة فسيعيدها. هذه المرّة لن ينجو. «لن يستطيع عصفور أن يمرق دون أن نراه».

لا أعرف ماذا أسمّيه. أخذ امرأة بكامل ثيابها وهي مستسلمة أمام المجلى أو المرأة أو في الصالون والممشى وكل مكان يسترني فيه حائط. دائماً تحت ثقل، وتروح تتلقى ضغطاتي إلى أن يفور وجهها وترشح عيناها. تكفي خلوة أي خلوة. أشيلها عن عملها، أحيط خصرها فتستدير إليّ وتترك ما في يدها وتواجهني بعينين مباشرتين تقولان تقريباً «ها أنا، أرني ما عندك». تعطيني نفسها هكذا بإهمال وشيء من عجلة، وسرعان ما تنسى العناق وتجعل همّها في أسفل بطنها. أخذها بكل ثيابها، بل أشعر أن لكل ثوب ملمساً: الجينز القاسي الذي يغدو ناعماً حول الردفين. قماش المناشف الذي يصدّ إلا أنه بالضغط يصير ليناً، الأقمشة المهذّلة التي تثير بالنظر أكثر من اللمس. تكفي خلوة، يكفي باب مغلق وحيز حرّ ولا حساب لمكان أو زمان. وراء الغسّالة، في الحمام أو في المطبخ أو على الباب.. ماذا أسمّيه الحب فوق الثياب والرغبة المستديمة والعناق بين شغلين والاستسلام السلبي والنشوة بدون كلمة. ليست شبقاً بالتأكيد هذه اللذة غير المستوفية والطعم الناقص. ليست شبقاً. أسمّيها لعباً. أراها أقرب إلى الألعاب الجنسية الطفولية، إلى التماس السلبي والرغبة المستديمة والجوع الطفولي والميل إلى

تكرار اللعبة نفسها دون شع. لعب واستحضار لما قبل البلوغ. كان لعباً انغمرت فيه بنهم كطفل لا يصدّق أن كل هذه الحلوى له ولا ينام وعنده بقية منها. أما ندى فلا تفكر. تسرق لذتها، وأنا شريك لعبتها، شريك أصغر فأكثر لعبها مع نفسها. أقول لها إن هذا أقرب إلى استمئاء. لكنها لا تسمّيه هكذا. تريد حباً بلا دنس تقريباً. تريدني أن أكون فقط ثقلاً على أسفل بطنها، وجسدها وحده يتفتح تحت الثياب.

كنت أحب أن أراها تتلقاني بدون كلمة ولا يظهر عليها سوى أن لونها يغمق ويرقّ ويتحوّل رأسها قليلاً. لا لهاث ولا جهد ولا نقطة عرق واحدة. كانت سلبيتها تمتعني، ربما كان في ذلك شيء من فراش لعبة العروس والعريس والخلوة تحت اللحاف وتماسّ الجسدين تحت نظر الآخرين وبين لعبهم.

كنت عندها طول الوقت، ملتصقاً بها تقريباً، أحضر قبيل الظهر وأبقى إلى المساء وربما إلى ما بعده. ألحقها إلى المطبخ أجالس زائراتها، ألاعب أولادها، أقرأ وأكتب وأنتظر إلى أن يفيض السأم من أذنيّ وعينيّ. ولطول السأم أغدو أنا نفسي مملاً، أتملّل على طول عشر ساعات. حياة قليلة، تزيد درجة أو درجتين فقط عن التنفّس وتستمر قريبة من الغيبوبة. عشر ساعات ويتكلّس الوقت في الركبتين والكتفين.

ألتصق بها النهار كلّ. ربما كنت أخرجها، لكنها لا تمنع في أن تلقيني على كرسي كل هذا الوقت وتنصرف إلى صديقاتها. أنا المخرج الذي يبقى

يتعثر في حَرَجِه إلى المساء دون أن ينتبه لوجود الباب وأنه حرّ في الخروج. يَحْتَنُ بدءًا من الثالثة ولا أعرف أين يجب أن أكون حين يقرعن، في آخر الصالون أم قريبًا من الباب، جنب ندى أم بعيدًا عنها، وفي كل هذا لا أحسن التصرف. بعضهنّ، محاسن أو حكمت على الأقل، ينتظرن مني أن أتكلّم. لكنني لا أستطيع. أركّب عبارات تحيرهنّ، أو يحيرهنّ صوتي وهو يقولها، ذكية أكثر من اللازم أو أنها غير معتادة للأذن. أصمت وأشعر أن بلادة واعية تلبسني، كما لو كانت جلدًا ثانيًا لي. أفضل أن أبدو صامتًا على أن أبدو أحمق. أتعب لأبدو ذكيًا لكنني لا أنجح. لا تخرج الأشياء من فمي كما هي. تغدو بمجرد أن أقولها غريبة وثقيلة. صرت في النهاية مملاً لنفسي ولندي دون أن تلاحظ. لم يكن الأوان قد آن لتنتبه، لكنني تصرّفت عموماً كأنني أستعجل أن أبدو كذلك. كأني أريده. أحسن لي طبعاً أن أخرج وأتركها ساعتين لصاحباتها. أفكر في الخروج لحظة لكنني لا أفعل. لا تتحول الفكرة إلى قدرة. أظل أعلكها إلى أن يفوت الوقت. لو أخذني واحد من كتفي لخرجت معه، لكنني لا أفعل ذلك بنفسني. رضيتُ أن أبدو مملاً، ليس لي حيلة، لا بد من أن أصل في النهاية إلى أن أبدو كذلك. يتعبني أن أبدو ذكيًا على الدوام وبدون لحظة راحة. أنجح لكنني لا أستمّر وأتعب في منتصف الطريق. لا بد في النهاية من أن أظهر مملاً. ليست لي حيلة. خير لي ولها أن تعتاد باكراً ذلك.

حضر طعان. وصل البارحة، لم تستعجل ندى إخباري. كانت نفضت نفسها من عناقي وعادت إلى شغلها حين أخبرتني وهي تنحني على مكنتها:

- بتعرف إجا طعان.

قالتها وكأنها ليست شيئاً. وسمعتها وكأنها ليست شيئاً.

الواحدة ظهرًا. السمكة في المجلى تحت الماء قبل أن تضع يدها فيها وهي واقفة جنب المجلى. حين قطعت صوتها من نصفه واستدارت بخفة وعكفت على السمكة بالسكين، دخل طعان. وجدته فجأة على باب المطبخ يحمل في يده كيسًا كبيرًا رماه جانبًا وكأنه لا يحس بثقله. كان يرتدي قميصًا بيج شفافًا تظهر الفانيلا من تحته وبنطلونًا وحلي اللون. هذه أناقة مضى عليها الزمن وفي وسع ندى أن تجعله يبدو أفضل. الطيات الكثيرة في سرج البنطلون جعلت من الصعب رؤية نصل المكوى المشدود على ساقه. حيًا ومنحني واحدة من ابتساماته النادرة التي كافأها فورًا بواحدة ملأت وجهي. كان عليّ أن أخرج فورًا من هذا الصمت الاتهامي. سألتها باهتمام متقصّد:

- انشا الله مشي الحال بأبيدجان؟

لم يسمع السؤال تقريبًا ولم يجب. تركني هذا في ارتباك استعنت عليه بأن أطرقت ببصري إلى الأرض. تقدم ورأى السمكة فقال لندى

إنه وجدها مع صيَّادي الجاروفة ولا تزال تفرفر في الشبكة. كان سعيدًا بحظه، سعيدًا بسمكته. أشار لندى إلى قشرتها اللامعة الصلبة ولونها. كان نسيني تقريبًا وهو يستجلب رضا ندى التي استمرت منحنية على سكينها من دون رد.

بدل بشابه بيجاما مقلّمة صينية بقيت أزراها الفوقانية فالتة، وبدا أعلى صدره ناعمًا بلا شعر. اقترب من الطنجرتين الساختتين على الغاز وكوّم في الطبق أرزًا، أسال عليه مرقًا بنيًا وخضارًا وقطعًا كبيرة من اللحم وجلس يأكل بدون نهم واضح، لكن بلُقم ضخمة وملاعق طافحة، وكأنه يغذي آلة كبيرة. أنهى طعامه بسرعة وذهب فورًا إلى فراشه.

كانما شاءت ندى أن لا تقرّ له بتأثير. لذا بقيت منهمكة وانتقلت إلى حديث عن رائف ونجوى كأنما تستأنف كلامًا:

- عينيها عليه وبمِلّص منها.

وبدون أن يتغيّر شيء في لهجتها تكلمت عن نهم رائف الجنسي.

- بنص الليل بفيّقيها وبيقلا بدو.

قالت هذا باشمئزاز ظاهر من رائف والرجال وربما الجنس. استيقظ طعمان ومضى من وجهه إلى المطبخ. وضع إبريق الشاي الصغير على الغاز، وحين تم صنع الشاي وضع الإبريق مع كأس واحدة على صينية صغيرة وحملها إلى الصالون الصغير، ودون أن يعزم على أحد، جلس في كنبته المعتادة يشرب شايه.

لم يغيّر حضور طعان الوضع كثيرًا. كان واحدًا من الزوّار تقريبًا. هو نفسه لم يطلب لنفسه أكثر. فقط الأكل في المطبخ، القيلولة، شاي العصر، كأس الويسكي مساءً. لا يقترب إلا نادرًا من الصالون، يتركه لزوّار ندى. يجلس ويستقبل زوّاره في رُكنه من الصالون الداخلي. كانت حركته ثقيلة وصمته ثقيلًا كجسده لدرجة الخوف من أن نتعثر به كلّما انتقلنا. كنت ألحق بندى إلى المطبخ، ونتحدث في المطبخ أو الصالون. ننساه بمجرد أن يصير خلفنا. لا بد لذلك من طرف قساوة استمددته من ندى. طرف قساوة لننسى البلدوزر الكئيب الذي يُطبق فكّيه المشدودين في الزاوية. اعتاد الجميع ذلك وابتلعوا حرجهم حياله. لكنّ تجاهل شخص كطعان أقلّ بقليل من تجاهل جبل. ومن يفعل ذلك لا يعود بوسعه أن يرى بالوضوح الأول نفسه. يتصرّف الزوّار كما لو أنه في زاويته تلك جدار ينبغي أن لا يصطدموا به، فإذا خرج تجاوزوا مكانه بخطاهم وأصواتهم. لم يكن لطعان مع ذلك سوى حضوره شبه الأخرس.

لم أشعر أبدًا بمثلث الزوج، العشيق، العشيقة. كنت أنا وندى لا نزال نلعب ولم نصر بعد في الزاوية، ثم إن كلاً منا كان مجرد ثالث، لا نجرؤ على أن نكون زوجًا. لا نجرؤ على أن نفعل شيئًا لنا. لا يزال عزيز وحده رابطتنا وما نفعله له، لا تزال قوة فقدانه صِلتنا الوحيدة، نبحت عنه في عناقنا. نشبّث بعضنا ببعض لكي لا ندفنه. نحن معًا لأنّه تركنا هنا، نحن معًا لأنّه باق في اجتماعنا، وحتى في اتحادنا. هو وحده الذي يجمعنا في مثلث، أما طعان

فغريب. نتحفّظ في حضوره ولا نذهب في اعترافنا به إلى أبعد. كانت ندى تستحي أن تبعدني عنها لمجرد أنه في السرير. تستحي أن تبهني لقرب ميعاد عودته، لا تقول:

- قرّب يجي.

تأخذ على عاتقها أن تتبه لكنها لا تذكره كشريك. كنا انتهينا من عناقنا تلك الظهيرة حينما انفلتت ندى مني وابتعدت. لحظة ورأيت طعان في الباب قبالي تمامًا. نظر إليّ نظرة فارغة وأكمل. قالت ندى إنه شاهدها ولم تهتم.

ليس لصور خريف. أشجار الليمون لا تشيب وكذلك أوراق الموز وقلما نشاهد شجرة عارية. الخريف أخضر هنا. أخضر صلب وبارد. ثمّة غيمة تائهة والهواء يلعب بغبرة السماء الوردية. صُفرة نُحاسية في الضوء الرقراق والمتكسر كرقائق معدنية. الحياة كأنها في أكواريوم، مرئية من نوافذ زجاجية. كنا في عصرية مستمرة. وكل ذلك، الخضرة والهواء والزرقة دائرة تلتف على نفسها في تراجع دائم. الخريف الحقيقي في البحر. ألوان الأصفر النحاسي والترابي والأخضر الوسخ والأزرق كلّها هنا، وكلّها يلطّخ بعضها بعضًا، حتى أن الأمواج العالية الغائرة والمتلاطمة ترفع قُمامة البحر ورُكامه. كنت ألزم نفسي تقريبًا ملاحظة السهل وبخاصة الشاطئ على الطريق، لكننا ما إن ندخل المدينة

حتى تنقطع الألوان أو نتوقف عن أن نراها ونروح نفترض لوناً أبرش. لون قش جاف، لوناً أبرص يغلف المدينة أو يجعلها أقل من أن تُرى.

لم تكن المدينة أبداً ملوثة في ذاكرتي. نبتت على الرمل خارج أسوار المدينة القديمة المشيدة على الصخر. كانت هذه بالطبع أسواراً أزيلت من زمن لكن لا يزال ممكناً عدّ المداخل التي تنفذ إلى المدينة. أقاموا حوانيت لتصطاد الداخلين وأكواخاً لشرب الخمر وخيمة للطوارئ ومبنى لشركة المياه وآخر لشركة الكهرباء. وحين سار الإمام من الجامع في جمع إلى ظاهر المدينة كسر بعصاه القوارير، ولم يعتموا أن أعادوا بناءها، وحين أحرقوا خيمة الغوازي نصبوها من جديد. بنى مشرّدون من الريف والمدن بيوتاً على الرمل، ولم تكن حياتهم ولا حياة نسائهم مُرضية، فنقلوا الخمر إلى المنازل واستقبلوا فيها رجالاً أيضاً. كانت بيوتاً خارج الأسوار. على الرمل حيث لا تقوم بيوت، على الرمل الذي يبصقه البحر ولا يثبت عليه شيء، بيوتاً لتحمي من الرمل والموج وليلعب بها الرمل والموج. لم تكن أكثر من عُلب مرمية على الشاطئ. كرهوا البحر وجعلوا ظهور بيوتهم له، لم توجد أبداً مدينة هنا. فقط عُلب، وعُلب كثيرة برصاء اللون على الشاطئ بلا أسماء إذ لم يكن حان الوقت لتصبح أسماء الخمارين والغازيات أعلاماً. لا أذكر شيئاً أصِلُّه بمكان. لا أعرف أمكنة استودعتها أسراراً وذكريات، وفي مناماتي لا أرى أمكنة خاصة. كرهنا هذه البيوت كما يكره الشحاذ أسماؤه، ولم نكن نراها. حسبنا دائماً أن الألوان في مكان آخر.

طال انتظار المطر هذا الخريف. بالتأكيد لم يشعر لعيبة الورق بذلك

فوراً، لكنهم أحسّوا به كما يحسّ المرء إذا تأخر استحمامه. ثقلت ملابسهم عليهم وكان عليهم أن يحتملوا أسماهم وقتاً أكبر. لم يتغيّر الطقس. لم تتأخر نسمة أيلول ولا تشرين. لكنّ الرمل أكل تقريباً جوانب الطرقات والحُفَر التي وسط الطريق باتت أصلداً، والمنازل البرصاء تأخّر حمامها، والأغلب أن غضب اللعيبة زاد بل بات الأطفال يجنّون لمجرد ظهور سحليّة في الشارع. ندى لم تعد تحتمل أن يحمل لها الواحد في نعل حذائه ذرات من الرمل. كانت تمضي وقتها كلّها في تحصين بيتها. تدسّ تحت الأبواب فتيلاً لكي لا يتسرّب منها شيء، ولا تحتمل أن يترك أحد بصمته على الطاولة. كان الغبار، أي غبار، يثير جنونها، وربما أثارها أيضاً أن طعان بات يُطيل جلوسه في البيت ساعات في ركنه المعتاد دون أن يفعل شيئاً. يدخن وينفض في صحن السيكارّة ويحرص على أن لا يوسّخ حوالبه.

تحرّمه ندى بحزم من كأس في الظهيرة فيبكر ما إن يلوح المساء إلى القنينة. يحمل كأس الويسكي إلى المطبخ ويروح يعدّ صحوناً خاصة: لسانات، كلاوي، كبد، نخاعات، لحوم، يخصّه بها القصاب ويشيلها له في غيابه. يدبّر صحونه بحرفة، فقد كان له نفس في الطبخ. يعود بها تسبقها روائح توابل ودسم وثوم وليمون وكزبرة كثيفة وغنية يعرضها على ندى فتصدّه غالباً بقوّة. قلّما تشتهي شيئاً منها. لا تحب التوابل والدسم. لا تحب الشهية الظاهرة. تريد طعاماً ليس كثير الطبخ، كأنها تنسى أنه طعام،

ولا تأكل كثيراً. تجلس قبيل أن ينتهي الآخرون وتصيب قليلاً من طرف الصحن. تأكل كأنها ساهية عما تفعله. كانت رائحة الطعام النفاذة تزعجها كما تزعجها رائحة الخمر، إنها رائحة رجال مملوئين سمناً يمشون باستمرار أفواهاً ومعداً مفتوحة. رجال ليسوا سوى لحوم ودهون. يعرض عليها طعان أن تذوق من هذا الكبد فتصدّه.

- هالريجة تقتلني. زنخة مثل ريحة الرجال. بتاكلوا وبتنامو. سمن بسمن.

لا يردّ ويكمل إلى ركنه. أما هي فتدعوني إلى الجلوس في الصالون. نتخذ كنبتين متلاصقتين ونروح نتحدث بصوت خفيض، يبدو له بالتأكيد أننا نتسارّ، فيما يبدو لنا مشغولاً بطعامه. يدير وجهاً ثقيلاً وفكاً ثقيلاً لا يرى شيئاً. لا يفوت ندى أن تعيد عبارتها المأثورة «دهن أو ذهن» أو تهتاج.

- صار لي خمسة أيام باعتّه بورقة يمضّيهامش فاضي، وما ينسى يوم يمرق ع اللحم.

أصواتنا وعيوننا تصطدم باستمرار. صمته وعزلته يزيدان ضخامته وقوته الجسدية ثقلاً.

لم يعد الأمر سهلاً بيننا، هو الذي كان يحصل تقريباً بدون قصد ولا إرادة منا. صرنا نلتقي عند محاسن وزين، عادتنا عندما كان عزيز حياً، وطالما كان ذلك موعداً لهما. بيت محاسن قريب من بيت ندى ولا تحتاج إلى أكثر من أن

تُلقِي شيئاً على كتفها وتخرج. في نهاية السهرة تغادر معاً ولا أحوش نفسي عن معانقتها في عتمة الممشى. كانت لا ترفض ولا ترضى. تتصرف وكأنها لا تدري، وتتحاشى أن تبدو واعية. لكنها حين بلغ طيشي الحدّ وعانقتها، ومحاسن لم تكد تغلق الباب خلفنا، دفعتني عنها بقدر من حدة.

ذهبنا معاً إلى سهرة رأس السنة. ارتدت ثوباً أسود طويلاً بخط أخضر على الجنب وشعار أحمر على النهدي الأيمن. أُخليت الصالتيان من الأثاث تماماً وُجمعت الطاولات صفّاً طويلاً في جانب القاعة التي تُركت بدون مفارش فبدت محفّرة متنافرة الألوان. تركنا الباقتين في كعب الطاولات، وعجلوا لنا بكأسين في الحال. كان ترحيب الداعية عالي الصوت وكذلك صوت قريبها الخمسيني الذي شاركها في الاستقبال والذي، بدون سبب واضح، ألقني حضوره. لم نعرف كيف نبدأ. دارينا حيرتنا بتبادل التحيات مع كثيرين جاءوا من وسط القاعة ليسلموا على ندي. كنت أتلهّف لينفضوا من حولنا وأتوارى في الجمع، كمن هو مطالب بشيء يعجز عن سداده. ثمّ إنني لا أحسن الرقص، أرقص بسرعة مروحة كهربائية وأدفع من حولي، إذ إن رقصي خروج وانعدام إيقاع كامل، مجرد عرض لتعثري العضوي، وما إن أباشر الرقص حتى ينتبه الحاضرون. أليس هذا عذاباً؟ لكنني مع ذلك لا أقف جانباً. عليّ أن أرقص لكي لا أبدو علانية خجولاً بجسدي. إخفاء الأخطاء أصعب، والوحدة معه أكثر إرباكاً، وأفضل لنا أن نخجل

بإبدائها من أن نخجل بإخفائها. في هذا قدر من الشجاعة عليها. كنت في سرّي أرجو أن أعبر هذا الامتحان، امتحان أن أبدو مضحكاً وأعثر أمام ندى. وكنت آمل فقط في لا مبالة ندى وفي غيابها الضمني.

اقترب حميد عليّان أحد الذين يرافقون جمال في زيارة ندى. حيّا السيدة أم أيمن وبصوت خفيض فاجأها بدعوته إلى الرقص. كان مديداً نحيلًا وبعنق رفيع لا يكاد يحتمل رأسه وشعره الفالت الخصل على جبينه، وهو هكذا أشبه بواحدة من شخصيات الصور المتحركة، حركة دائبًا وطول مديد بدون أي حجم تقريبًا. أمسكت ندى بيده دون كلفة ودخلا الحلبة. كنا متفاهمين دون كلام على أن لا ندخل الحلبة معًا. بقيت أنظر إلى الراقصين. ندى ومراقصها في الوسط يائسة من أن تلحق بحركاته السريعة. ترقص وحدها تقريبًا شبه شاردة.

ابتعدت وعدت إلى الطاولات. أعددت كأسًا ووقفت مكاني، أشرب الخمر بجرات كبيرة متتابة كعادي في شرب الشاي. ملأت كأسًا ثانية. وجدت أمامي عائدة المترهلة.

- مبيّن لوحدك.

قالت هذا بصوت مسروق تقريبًا من أغاني فيروز. صوتها جميل في الحقيقة لكنها تروّسه وتنعمه كأنها تقتل خيطًا. ترمّم فمها ووجهها بطوله

وتدبّل نظراتها كأنها ترسم من وراء عينيها جسداً ممشوقاً. قادتني دون سؤال من يدي إلى الحلبة. كانوا يرقصون السلو. جعلنا نرقص وفمها تقريباً على أذني وهي تغني بصوت جميل من فمها لأذني:

- سهار بعد سهار.

ومن المحلّ نفسه وصلت رائحة صنوبرية. من العنق إلى أنفي. كنت مضغوطاً إلى جسدها الذي لا يُعرف له خصر من بطن، لكنّ صوتاً ورائحة سجينين يسريان منها إليّ. أغمضتُ عيني تقريباً لكي لا أرى وجهها الأبيض اللامع المزيت الذي بدا وكأنه قناع بورسلين. جسدي ورأسي بعد الكأس الثالثة سلسان ورائعان فيها صوتها ورائحتها ينقلان إليّ جسداً آخر، نفساً وجِلداً ثانياً، غير دُمّية اللحم المتضخّمة المتعلّقة برقبتي. أحسست حناناً تجاه ذلك الجسد الثاني والممنوع من أن يظهر، المرسوم بالصوت والنفس والرائحة والمكتوب عليه أن يبقى حياً ومبعثراً هناك. لم أر ندى في الحلبة. لمحتها في الطرف تحادث جمال سليم.

ملأت كأسي أيضاً. نظرت حولي وفقدت ندى. عدت إلى الشرب بجرات طويلة. وجدتها وسط الحلبة. كان العالم قطاراً من الصور نصفها ممحوّ، واحدة تحتفي برفق، واحدة تضيء كنافذة، واحدة كلام وأخرى رائحة، واحدة بأخضر وبني وأحمر وأزرق قوية وشهية قطعام. كان العالم ورأسي أيضاً كماء الكأس يزداد مع كل رشفة صحواً وسلاسة. كان ثمة هواء ساكن منتظر ولا مع حولي، وشعرت كما لو أنني في فُقاعة كبيرة لامعة.

وجدتني مع ندى على طرف الحلبة. دخلناها معًا. رقصنا متباعدين. قلت لها يمكن أن يجري بيننا زورق (كنت أفكر في لوحة لدالي) فاقتربت وضغطتُ بيدي على ظهرها شكرًا. كنت أعرف خوفها من الشاربين لذا سعيت إلى أن أضبط نفسي. هكذا تحرّكت يمينًا وشمالًا كعقرب الثواني.. ضحكْتُ. وأنا رحت أقلّد لعبة بطارية. وجدتني جنب سدّ الطاولات ووجدت أمامي سلمى. لم أستغرب. وصلت في وقتها تمامًا. بعد كؤوس لا أعرف رقمها. كان الصحو شديدًا جدًّا. كان كل شيء نظيفًا وشفافًا كالروح. سلمى قريبة إلى الحد الذي يمكن أن تكون معه حقيقية. الشعر الأسود الناعم والغزير. الوجه الملموم الصغير والعينان اللتان لا تتهيان في الوجه. سارت نحوي. اخترقت الهواء بسهولة وبسهولة كانت أمامي. تعلّقتُ بعنقي وتعلّقتُ بخصرها ودخلنا الحلبة. لم أر سلمى منذ عام. كنا معًا دائمًا دون أن نتعدّى ذلك، قريبين كخطّي قطار فقط. الآن كل شعرها على وجهي وكل صدرها عليّ. كانت ثملة لكنها طرية بين يدي وبطنها لصقي وشفتها السفلى عرقانة وعنّابية ولهاثها وعطرها والهواء يلعب بقوة وأقدامنا ريح. موسيقى تنفذ بين الأجساد كأننا غير مرئيين، نمشي وندور على خطوات اللحن نفسه. فقدتُ ندى في صورة معتمة. استمرّ الدوران إلى أن توقف كما يتوقف قطار عند صورة مضيئة كشاشة: ندى خدّها على صدر جمال ويدها حول عنقه.

حكّت ندى كيف تبعها نواف بسيارته وتوقّف جنبها.

- ما يبسوا هـ الجرين يتغَبَّروا. يا أرض احفظي ما عليك.

- بلا لعب يا صبي.

- اطلعي هَلِّق بيسر قوك.

ضحكت له وتابعت وظلّ خلفها هكذا إلى أن فرقت إلى بيتها. حكت وهي تضحك. لم يكن هذا بالطبع السبب الوحيد الذي جعلها تحكي. الأرجح أنها هكذا تتخلّص من شيء في نفسها. لم تكن صمّا تجاه رغبة نوّاف، بقيت طوال الطريق تضحك لها. تلوي وجهها عن نوّاف وشعرها وقامتها من الخلف يرقصان له. كانت رغبة نوّاف مباشرة وصريحة لدرجة أخافتها وأهانيتها قليلاً. شعرت بها فوراً في حلمتها وبطنها. لا تفضّل رغبة كهذه، لا تناسبها بالأحرى رغبة كهذه. لكنها نفذت رغم كل شيء إليها. نفذت إلى جسمها قبل أن تشعر أو تفكر فيها. أحسّت بها ملموسة في أماكن منه. بل شعرت بها تصطدم أو تدخل في رغبات أخرى. كان جسدها هذه اللحظة فوضى كبيرة متعبة. شعرت أنها عقدة هذه الرغبات فقط، بئر هذه الرغبات، وحكت لي ليكون هذا مجرد حكاية، ليزول بالكلام. كنت أيضاً رجلها وهي تريد رجلاً. لست زوجها لكنها لا تحتمل أن تكون لرجلين. يحسب ناس أن المرأة التي تحب غير رجلها لا تكتفي برجل واحد. لطالما خافت دائماً أن تكون لعشيقها مجرد امرأة شبة. كانت تهجر عزيز الشهر والشهرين لتريه العكس.

أثارت غيرتي دائماً قدرة نوّاف على أن يلعب ويبتكر. لم يكن يتعب. لا

تفرغ حيلته. حكّت لي ندى كيف أمضى ساعتين وهو يلعب غسان. يحمله إلى التتخيتة ويتركه يصرخ فيها. يضعه فوق المكتبة ليصرخ. يمثل معه ليلي والذئب. يقلّد له الذئب والجدة. ترك البيت ماشياً بالوسائد والأغراض التي أحضرها لتكون أشخاصاً، حيوانات وأماكن. أطعمه باللعب ونومّه باللعب.

لم تكن ندى لحسن الحظ تعتبر كثيراً الذين يسألونها. كانت تشعر بهم وكأنهم يخدمونها. لا تفرّقهم كثيراً عن الحرفيين الذين يزورونها ليصلحوا الحنفية والبوتوغاز. لا تعتبر كثيراً الذين ينفعونها. تحبّ الأشخاص الذين لا يمكن حساب ما يقدّمونه. نوّاف بالطبع استثناء. سوقيّته ليست حرفة. إنها نوع من ماركة شخصية.



وصلوا في جيب واحد نحو العاشرة ليلاً. نزلوا في بستان زيتون. قفروا إليه بستراتهم النيلية ذات القلنسوة والأكمام الطويلة. كانت هذه هدية من بلد شرقي وزعوها على أعضاء الحزب وتحوّلت نوعاً إلى زي عسكري. وزع وهيب الستة على الجلّول القريبة وتقدم مع اثنين آخرين، ليكونوا أقرب إلى البيت وليراقبوا من بين أشجار غطّى معظمها هضبة قليلة العلوّ. ضوء ضئيل في طرفه، يسمح بتمييز حدوده الداكنة فيما كان من الجهة الثانية ضائع الحدود في الليل وبين الأشجار. مكثوا نصف ساعة في أماكنهم. لم

يبلغهم شيء من وهيب، ثم ثارت فجأة عاصفة نفخت ستراتهم وقلنسواتهم وجعلت من الصعب أن يصل إليهم صوت. نزلوا إلى بعضهم البعض وتجمّعوا في جَلٍّ واحد. كانت واحدة من الشتوات الأولى في السنة وهبط المطر غزيرًا جدًا. لم يطل الوقت، تدفّق المطر وهذأت العاصفة وعاد كل شيء ساكنًا. أظلم البيت أثناء المطر تمامًا. وحين انتبهوا كانوا قد صاروا في عتم كلي. شعروا أنهم ضاعوا تمامًا وفقدوا أي إشارة وبدأوا يقلقون. لم يسمعوا شيئًا من وهيب الذي فاجأته العاصفة وهو قريب من البيت. وحين انطفأ المنزل عجل أحد رفيقيه ليطلق على ما كان من لحظة نافذة. دقيقة وسمعوا طحشة في البيت وصرًا. عندها أطلق الثلاثة على الهدف نفسه ثانية. فجأة انهمر الرصاص من كل الأماكن على المنزل.

فيما بدأ الرصاص من خلفهم أيضًا ينفجر بصورة جنونية. سمع رفاقهم الرصاص فأخذوا يطلقون بلا حساب. تبعثروا وظلّوا وقتًا في الوحل يدارون رصاص هؤلاء ورصاص أولئك. ثم بدأت تلوح من القرية العالية مصابيح تتحرك وتمشي نحوهم. كان عليهم أن ينسحبوا. فعلوا ذلك زحفًا. تراجعوا. صعدوا جَلًّا بحذر وبدأوا يزحفون إلى نهايته. صعدوا جَلًّا ثانيًا. صار بوسعهم أن يسمعوا ضجة رفاقهم. صاح وهيب لكن صوته في ضجة الرصاص وصياح المقاتلين لم يصل. كانوا قد صاروا تقريبًا تحتهم. ولا يزال الصراخ فوقهم إلى أن ارتفعت صيحة أحدهم متألمة.

- انصبت.

نفذت صيحته وبلغت المتصايحين فوق الجل فسكتوا وقفزوا إليه. جريح.
جريح. صرخ وهيب:
- احمّله.

حملوه بسرعة. قاد وهيب بسرعة جنونية فيما كان الصياح في السيارة
- غمي، امسكوا. بتعرف تربطو. بدو هوا، ما علموك. زيجوا عنو.
في المستشفى علموا أن الإصابة غير خطيرة ولم يكونوا بحاجة إلى
من يقول لهم إنها أتت من الخلف وبقوا -والجريح في غرفة العمليات-
يتجادلون.

- هيدي رصاصتك، لا هيدي رصاصتك. مين غيرك بيعملا.
كان هذا بيت علي ماضي أحد أفراد التنظيم الذي يسكن في طرف
الميدان قريباً من الصعبية. احتجّ وهيب بأن الأستاذ كان في زيارته تلك
الليلة. لم يكن هذا صحيحاً. حين أطلقوا على النافذة كانت امرأته قد
أنهت عملها في المطبخ وأوت إلى النوم الذي سبقها إليه زوجها وشقيقاه
وأبناؤها. لعب الرصاص فهبّ الثلاثة. صعد الأب إلى السطح واحتمى
الشقيقان وراء الجدران. لم يصب أحد سوى الكلب الذي كان مربوطاً
وبقي يتخبّط ليتحرر من الحبل، وحين وجده الإخوة ميتاً، كان عضّ
الحبل حتى كاد يقطعه وكان فمه مليئاً بالتراب.

لم يكن الاجتماع عند ندى سهلاً. سكت وهيب أمام صيحة نواف

وتهكّمه. ولم يجادل حتى حين قال له:

- من هلق رايح. كل واحد ييشغل لوحدو.

أمّا ندى فلم تتدخل. لم تكن في قرارها مستاءة، لقد تحوّل مالها إلى رصاص هذه المرّة. علي ماضي في التنظيم، ولا يزعجها لو أنهم قتلوه أو قتلوا واحداً من أسرته.

دخلت إلى القاعة الكبيرة الشبيهة بمنامة جنود وكأنها تدخل إلى قصر. طرقتا كعبيها الناعمتان واللمعة الذهبية تحت الجورب اللاصق والأسود والأبيض المضبوطان بالمليمتر في تايورها والنظارتان الكبيرتان على وجهها اللتان تنتقل بهما وكأنها تسير على بلاج، تبدو بهما شبه مقنّعة وهما تلمعان بلون زئبقي متموّج: بنّي على أخضر. لون شمسي جعل شقرتها أكثر شمسية في هذه القاعة المعتمة التي توزعت فيها سبعة مكاتب في جريدة «الأحوال». دخلت ولم تتركني أكمل ترحيبي.

- عطيني كرسي.

رمت نفسها على كرسي. قالت:

- قهوة.

طلبت قهوة بالتلفون لها ولي. تصل دائماً متعبة كأن كل انتقال يؤذيها.

رفعت نظّارتيها. عيناها مشقوقتان بصعوبة وخابيتان تقريباً. شعرها ليس أفضل. ما زالت كما خرجت من عند الحلاق قبل أن تبدأ رحلتها، لكنّ تسريحة الصباح العامرة ارتخت تماماً. صارت تقريباً على حد الرأس. بشرتها ترقت كجلد فاكهة نَعَمها الوقت والتصقت أكثر بعظمي الوجتين. طالما حيرتني هيئة ندى. تتغير كالفصول. بالأحرى تتقلب كنهار شباطي. تستيقظ دائماً بوجه مكبّس كما نقول عن الوردة حين لا تزال زراً، وبشرة خامرة ندية وشفيتين ووجنتين ماويتين. لكن وجهها يبدو بعد وقت وكأنه في جزر: ملامح رقيقة مسنّنة كأنها تعرّضت لحّتٍ وتعرية. في وقت آخر يتشرب لونها دُكنة خفيفة، يتشرب بياضها لوناً دخانياً فتقسو ملامحها وتنتأ كأنها عادت إلى مراهقتها. يظهر أحياناً سنّ مفاجئ. كان ثمة جزرٌ ورييع وخريف في هذا الوجه الذي لا يصمد على هيئته نهائياً واحداً، بعد مشوار ساعة، ليلة أرق بلا سبب أحياناً، يتغير ويظهر فيه ما لا أحبه. أشعر عندها أنني معاقب، وأن هذا كلّ صنيع وسواسي، فوجوه الذين نجّهم تتغير وحدها بهذا الشكل، وما إن نحب واحداً حتى تغدو له كل ساعة هيئة.

في الطريق قالت إنها خائفة من أن تنهار. كان هذا ميداني. قلت لها إن الخوف من الانهيار لا يعني أننا صرنا على بابهِ. في كل حديث عن انهيار تحضر لي تجربة انهيار العصبية. أشعر بها تعطيني قوّة أَدعم بها سواي أكثر مما أَدعم نفسي. أتصرف عندئذ كمنقذ، فيما أبدأ بالقلق على نفسي. أتصرف كأنني أنقذ غريقاً أو أصارع الغرق نفسه. رحت أتكلم من كل ناحية مثل

من يحشد قوّة. لم تكن واعية لمحاولتي كلّها. قالت ببساطة:

- أنا مش خايفة أنا فعلاً عمينهار.

كانت مريضة ولا تنتظر من كلام على قارعة الطريق أن يشفيها. سألتها إذا كانت تأخذ أقرصاً مهدّئة. قالت إنها تأخذ حبوباً كثيرة وإنها تشعر أنها تنام تقريباً وتعيش في كبسولة. «لا تنفعني» قالت «بتّ أخاف منها».

- كيف عمتهناري؟

- مش عم نام. صوتو بديتي ويقول لي حكيّ بحياتو ما سمعتو منو. مبارح سمعتو يقول حطو بيدر على بيدر وعادها ميت مرة وأكثر.

ثمّ قالت:

- ما بخاف من شي، لا مرض ولا موت ولا جنون. أنا مريضة بعازة حكيم.

ذهبنا معاً لزيارة الطبيب الذي عاجلني. مضت عليّ سنتان لم أره. لكنه بدا لي ودوداً فوق العادة. هل هذا تأثير ندى ولماذا قال بالفرنسية (هل أثّرت شُقرتها) إنني مُتعب. خرجت ولم تخبرني ماذا قال لها الطبيب. كان تعبها استحالة جسدياً ولم يعد في طاقتها أن تحمل نفسها، هي التي يُضنيها أي جهد. شبّهتها بالأميرة التي شعرت بحبة الحمّص تحت عشرين فراشاً. سألتها هل نعود إلى الجريدة، قالت:

- خذني لأي مطرح. المهمّ نقعد.

في سيارة الأجرة وضعت رأسها على مسند السيارة فأرخت جسمها.
خطر لي سمير.

أزوره في العادة. يقيم في عُلبته على السطوح. نباتات وسجاجيد
معلّقة ولوحات وطراريح ولا ينقص سوى البخور. لا شك أن ندى
ستحبّ هذا العش. لكنها عشرة طوابق. قلت لها قد نجد المصعد متوقفاً
فلم تعلق. حين صرنا في مدخل البناية الواسع وجدنا المصعد ساكناً في
الأسفل. كان أمامنا السلم العريض الذي يترامى من جهتين وتظهر
حلقاته ملتفة صاعدة إلى الأعلى مما زادنا إحساساً بالشهوق. أخذنا نصعد
وأعيننا معلّقة بالأعلى. استرحنا عند كل طابق تقريباً. ندى التي صعدت
والصداع يطحن رأسها وصدرها يزداد ضيقاً خارت في السابع. حين
وصلنا إلى العاشر تهاوت على أحد المقعدين المتروكين خارج الباب، ولما
فتح سمير دخلت لتتهاوى على طّراحته. كان لدى سمير زائر. لم يحتاجا
إلى كلمة. عرفا من وجهها. انسحبا إلى غرفة ثانية وتركاها تترتاح. أسندت
رأسها إلى وسادة وغطّيتها بغطاء انتزعته من على الطراريح. نامت سحابة
قصيرة. انتظم نفسها ثواني لكنها ما لبثت أن فتحت عينيها. أسندتها إلى
وسادة. كان فمها مرّاً، ولم تذق في يومها سوى القهوة. سألتني إذا كان
في البيت ما تكسر به صومها. حملت لها تفاحة من البرّاد وموزة. قشّرت
لها التفاحة فاكتفت بحزّين منها ولم تقترب من الموزة. للموز دسامة لا

تحبها. كانت الآن بحاجة إلى فنجان قهوة. حضر سمير مع صديقه وفي يده صينية عليها ركوة وفنجانان تركاها لنا وخرجا.

وحدنا الآن. امتلأت شفقة عليها وعلى نفسي. كنا معًا ضعيفين ومكسورين إلى درجة محزنة يجمعنا فقط النوم في كبسولة والخوف من الثقوب السوداء، وليس بعيدًا الوقت الذي نخاف فيه من بعضنا. ثم هناك عزيز الذي لا أعرف ماذا يفعل معنا. وجه ندى تغيّر حتى كأنه ليس هو. لم تظهر غضون فحسب، بل طيّات وسماكة وثقل في الأجفان والذقن، ولا ينقص سوى الدمع الذي انفجر غزيرًا. كان هذا فوق طاقتي. ليس لديّ ما أفعله هنا. جبل لا علم لي به ولا أنقله معي. لست في النهاية سوى طارئ، مجرد ملاطف. هي عشر سنوات مع عزيز لكنها عشر سنوات من حياة لا تذكر. حياة رخيصة نلتقطها عن الطريق أو نجتمعها كالصدقات يومًا بيوم. صداقة حقًا، لكنّ مياومي الحياة مثلي ليس عندهم ما لا ينسونه عند أول أو ثاني مفترق. شعرت أن هذه المرأة من غير عرقي. كان عليّ أن أفهم ذلك وأن لا أقبلها كهدية لا يمكن ردّها. استسلمت لدور البديل الذي يناسب كسلي.

وجدتُ عرضًا ولا أعرف ما أفعل بهذا الوجه الذي بدا فجأة كقرية تغطّيها الأوحال. شعرت بخوف لم أطقه. لست مستعدًا قلت في نفسي، وتحرّرت منها سريعًا. شعرت بالخفّة التي أحسّها كلّما فاتني موعد. لقد خلّصتُ وقتًا لي، قلت لها مهما حصل أنا صديقها الدائم.

- ما كان لازم يحصل . كنا وحدنا وكثير فاقدين وهيك دايمًا بيصير .
كنت أزداد اقتناعًا كلما تكلمت . لكنها انقلبت إلى جنبها ونظرت
إليّ، لم يكن ألمانًا فحسب بل رغبة . أراحت رأسها على صدري وأحطتها
بذراعي ثم كنا راقدين معاً متعانقين على الطراحة وتمددت بكامل ثيابي
فوقها .

لم تنهر ندى . لا تستطيع أن تخطو هذه الخطوة . أخذت حبة من دواء
الطبيب، وحين استيقظت نصف مبنّجة عافته .

وحين عدت إلى صور وجدتها شبه سعيدة . كانت لديها أخبار كثيرة .
علمت نجوى أن رائف يعرج على لطيفة في الطابق الثاني فبهلتهها وهددتها
بإبلاغ زوجها . أمّا عن نفسها فنوّاف صارحها .

- حرام تسكّري ع حالك . عيشي . الجسم بدو .

وهناك زميل جديد يغازلها :

- قولولا بس ترضى عليي، لا رح باكل ولا بنام إذا ما بترضى . اليوم
الي بتضحكي فيه بعمل حسنات .

لا تنسى أن تخبرني كل ذلك . قالت إن لها مشوارًا إلى بيروت .

وصلت بثوب عادي، كنزة على تنورة معرّقة واسعة تلبسها لعملها وزياراتها القريبة. أظنّها تعمّدت أن ترتديها. لا تريد أن تبدو في ثوب زفاف، لكنها عقدت على عنقها فولاً رائعا بكل الألوان، راقصا في عنقها لعبوا، وانعكس هذا على بقية ثيابها ووجهها. كان وصلها من أختها منذ شهر وظل في خزانته إلى الآن. وصلت ذابلة كالعادة لكنها استعادت لونها بعد فنجان القهوة الأول. ذهبنا إلى شقّة حسن. صغيرة كالقف. غرفها متداخلة مع بعضها كعلبة كرتون. وقفنا معاً أمام المرأة ونظرنا إلى وجهينا المتعاقبين. خطرت لي أن أحملها إلى الغرفة لكنها انفلتت من ذراعي صاحكة أمامي. أحطتها بذراعي من الخلف. سكنت حتى التصقّت بها تماماً ثم استدارت على مهل وتحجرت مني. كانت الشمس تماماً وسط الستارة، كلها هناك محبوسة في خيطان النسيج، متوهجة لكنّ شعاعها يصل أبيض بارداً وينعكس منه قرص بارد وسط السرير. وقفت جنب السرير وظهرها إليّ تخلع ثيابها، تفعل ذلك وكأنه ليس هناك مرّة أولى.. دهمني كتفاها المدوران وظهرها المضغوط تحت مشبك سوتيانها رأيت دون أن أتحمس لذلك. لم أر الجسد يطلع على مهل من الثياب. ضاع انتظاري لهذه اللحظة، لم أر الثوب ينقش ويخرج الجسد إلى النور، نور الأمكنة المغلقة، نور الحمام ونور المخدع، والأمكنة التي تشبه الثياب. كان أمامي الظهر والنور والفراغ يولدان في جورة الظهر، وفلقنا إجابة القفا، تولدان أيضاً في نحت الخصر والبطن. كان جسدها رُقاقة في الفضاء. بقيت بالسليب والسوتيان وهرعت تحتبي

في الفراش وتدير وجهها إلى الناحية المسقوفة برفّ الكتب. دخلت السرير ونظرت وأنا أشيل الغطاء مجددًا إلى ظهرها. رأيت غمّازتين تضحكان فوق الردف ويضحك الجسد بهما، ويتحرّر قليلاً من فتنه المنحوتة. كانت على جنبها رقاقة صلبة. جسد بدون غلطة تقريبًا. التصقنا وفجأة هطلت دموعها. احترت ولم يكن بوسعي أن أواسيها. لكن دموعها نشفت فجأة. مدّت يدها وشدّتني إليها فعانقتها. وسرعان ما تمدّدت لي، أدخلتني بيدها فيها، كأن رغبتها توفّزت في الخوف والحزن. كنت فوقها. انتزعتُ فمي من فمها ومالت برأسها جانبًا. كانت وحدها تسعى للذّتها، رأسها وجذعها بعيدان وهما في موضع لذّتها. كانت تلهو مع نفسها تقريبًا. تُشركني - كما قلت لها في ما بعد - في عاداتها السريّة. حين وصلتُ لم تنتظرنِي. باشرت فورًا لذّة ثانية. لم تهتم بي حين ارتخيت. بقيت على سعيها وحين وصلتُ ثانية تنفّست بعمق وافترقت عني وراحت في النوم.



أخيرًا أمسكوا الأستاذ مصطفى. لم يكن هذا صعبًا. أمسكوه على الطريق وهو في سيارته نحو بيروت. قال نوّاف إنهم يرصدون الطريق 24 على 24 الحقيقة أن هذا حصل بالصدفة. رآه واحد من مطرودي الميدان فركض إلى نوّاف، واتصل نوّاف بالجسر لكنه لم يكن متأكدًا. ليس له سوى واحد هناك، وحين لحقه إلى الجسر وجدهم يتجادلون وأكثرهم يريد أن يخلّيه. حين وصل تركوه له. لم يدعه لجماعته. وضع مسدسه في رأسه وساقه هكذا

إلى السيارة. قادها بنفسه إلى المخيم.

دخل بناء مظلمًا بلا نوافذ، وأسيره في يده والشبان حوله. أنزله أربع درجات وصاح في الحارس الذي حضر وهو يفحص بالبطارية سلسلة مفاتيحه. صرّ الباب طويلاً ودخل الأستاذ بحذر. اصطدم بما يشبه المصطبة فجلس عليها وترك هناك.

لم أستطع مجازاة نواف. كنت مستاءً لأن عليّ مجدّدًا أن أبدو مهتمًا، أن أحمل ثانية على عاتقي مسألة ارتحت منها. لم يكن لديّ حتى الفضول. لم يترك فيّ توقيف الأستاذ شعورًا محدّدًا ولست قادرًا على شيء في قوة الضغينة والتشفي. سألت نواف كيف توصّلوا إلى الأستاذ. وكنت أعرف أنه سيسرّ بالجواب.

- مرصودين 24 على 24 عرفنا مواعيدن كلها، عرفنا إنو سمير بو علي ييغط على بنت المختار. صار لها شهرين مطلّقة، يمكن بسببو. الأستاذ هيئتو مخبّي شي. رايح جايي على بيت محمود حسين عندو بنت أرملة جوزها راح بانفجار القاعدة. يمكن عمينطّ عليها.

سألته ماذا فعل الأستاذ حينما أوقفوه؟

- ولا شي، مثل البسين. الصبح قال بدو سيجارة.

- جبتولو؟

- مين فاضيلو .

- هلق وينو؟

- 20 متر تحت الأرض . موتور كهربا وإضاءة تامة . اليوم الصبح بلشو يحلقولو .

أرادني أن أذهب معه . كنت خائفاً لكنني صعدت إلى الجيب . قاد كالعادة بسرعة هائلة . كان يرمي سيارته فوق الجور . الطريق شبه خالية ، وحين انعطفنا إلى المخيم لم يقلل من سرعته . ظل يقفز فوق نتوءات وحفر الطريق . وصلنا إلى شارع عريض نسبياً وسط ركام الأكواخ . كان مكتظاً كالعادة ، نساء ورجال وأطفال وحيوانات أمام المحلات المسقوفة بالأتريت والمشييدة من إسمنت عار ، وعلى الأرض المحفرة المتبقعة بألوان وسوائل شتى قد يكون الدم أحدها . قطع نواف الشارع بسرعه ذاتها ووصل إلى بناء عادي : غرفتين من إسمنت عار . دخلنا وما إن صرت في الداخل حتى تنفست أقوى رائحة تشققتُها في حياتي . من الصعب تحديدها ، كانت رائحة من كل شيء ، من عطن ورطوبة وأقدار وطبخ ودخان وحتى دم ولحم نتن . رائحة كثيفة ، لدرجة أنني أخذت أسعى بيدي إلى إزاحتها عني وبات الهواء ثقيلاً بسببها . لم يبدُ على نواف أنه تأثر . اتجه فوراً إلى الدرج الدائري . نزلنا في الظلمة وظللنا نلفّ على الدرجات وقتاً قبل أن نصل إلى رواق مظلم أمام غرف مغلقة بعوارض حديدية من الخارج . كان هناك خمسة جالسون على كراس خشبية وحول قطعة توتياء محفورة في قاعها بقية فول وجنبها قطع

خبز كبيرة وقشور بصل وبقع زيت على سطح الفورمايكا المحفّر. كان أحدهم يكلّم آخر وراء الباب المغلق. وقف كبيرهم للترحيب بنا، ونزلنا معه درجًا قصيرًا. وصلنا إلى حجرة مقطوعة بستار من مشمّع مزخرف. بضع كؤوس مبعثرة. جلسنا. سمعنا ضجة مبهمة وصوتًا:

- ما إلك دخل يا ابن الشرموطة؟

صوت آخر بلهجة لبنانية:

- زودولو العيار.

أصوات أخرى لأشخاص يتسارعون. سمعت بعدها صوتًا مشروخًا كأنها نتأت منه شعيرات حادة، صوتًا لا يزال غير ناضج ولم يتخلص من نغمة أنثوية في قراره:

- ما إلي دخل.

وكلّما نطقها تسارعت إليه حركة لا تلبث أن تختفي في لحظة. كان يتكلم بهدوء لكن بمقاطع بطيئة وكأنها يقتلعها اقتلاعًا. الصوت الذي يكلّمه ليس أقوى. كان خاملاً ورخوًا ولا يستطيع أن يقوم بالألفاظ المفزعة التي يرسلها. ثم أصوات كثيرة تسارع إليه وضجة من عدّة جهات. أقدام وأشياء تُحمل وصرير آلة. فُسحة من صمت تقريبي تتبعه صيحات مبتورة للأستاذ كأنها تخرج من أظافره، صيحات إنسان يُقتل جسده ويُجذل. كان قتلاً مع معدن يصرّ بطيئًا. شعرت بأنني على وشك الإغماء. كنت أتساقط

من قدميَّ. خفت كثيرًا وقلت لنواف:

- خليّنا نطلع.

قال لي:

- وشك أصفر.

وتلقاني بيده. صعدنا معًا الدرج.

لدى وصولي دخلت الحمام لأتقيأ. كنت راغبًا في أن أتقيأ، بهذا الشعور المبهم بأن شيئًا ما تسمم فيَّ. لم يكن لديّ ما أتقيأه. وضعت إصبعيَّ في لهاتي وكدت أجرحها. كنت راغبًا في أن أخرج شيئًا مني، ولو قدرت شيئًا من جسدي، وأخيرًا وجدت قيئًا. شيئًا أبيض مع رائحة حامضة لاذعة نزلت إلى المbole. ظلّ الطعام الحامض في لهاتي وفي جسدي كلّهُ. نظرت إلى القيء في المbole شاعرًا بأنه لم يخرج كليًا. ما انتشر منه فيّ أكثر مما خرج. شعرت بأنني لم أفرغ. كان القيء كلّهُ في جسدي. كان الكثير منه فيّ ولا يخرج، واضطرت إلى أن أعيد ابتلاعه لأتخلّص من حموضته. الكثير مما تنشّفته في باطن الأرض متكتّل في جوفي وأنا أعيده إلى جوفي، أتفل بعضه.

تعبوا من هدوء الأستاذ مصطفى. قال ما عنده من المرة الأولى وظلّ

على كلمته، لم يخرج عن طوره مرة واحدة، لا يشكو ولا يطلب شيئاً. يشرب إذا حملوا إليه ماء ويكتفي بالقليل من طعامه، وحين أحضروه إلى صالة التعذيب رأى ما هو منصوب في السقف ومكتل في الأرض، نزل ببصره إلى الأرض، ولم يظهر عليه شيء. لم يتخيل أحد أنه قال كل ما عنده. علّقوه وشدّوه إلى الآلة البلغارية - كما كانوا يسمّونها - وعرضوه للفلق، لكنه لم يغيّر كلمة. ظلّ يقول إنه غير مسؤول. رأيه كان أن يطرد عزيز من الميدان لكن حسين عوض.

- دبّر القصة أنا ما رضيت.

وظلّ يكرّر:

- ما كان برضايي. الأستاذ عزيز ابن عمي وإلو فضل عليي. قالوا جاب السلاح بسيارتو ما صدّقت. هذه مش عوايدو. بعرفو بطفّش حكي. فلت الأمر مني. الشباب دمّن حامي. حسين عوض طبعو ناري. سمير بو علي ييمشي وراه. صادق العسّال راسو مش سايعو وابراهيم حسين قرابة حسن.

روى الأستاذ كيف حصل الحادث.

- الله يرحو ما كان محتاط. كمنوله. الساعة تسعة وشوي وصل. طلع له ابراهيم حسين تلميذه. حنّو مقطوع وقّف له. طبقو عليه. سمير بو علي حط الفرد براسو. طلّعوه بالجيب وساقوه ع مفرق طارا. مشوه بالهشير

تاوصلو عـ بورة عيسى. قال له حسين عوض ركاع ما ردّ. قوَسو سميـر بو علي وصادق العسّال. ابراهيم حسين ما استرجى يقرب. قعدو يحفرو قال له العسّال تعا ساعدنا. ما كان إلو صوت يجاوب. حسّو بطحشه رمو الجثة بالتراب ومشيو.

لم يطل سجن الأستاذ مصطفى. اتصل بنوّاف أمينه العام. قال له: أطلقه. لكنّ نوّاف ليس من الذين يصدعون بسهولة. قال لرئيسه إنه لا يستطيع أن يفكّ واحداً «في رقبتـه ثلاثة قتلى منا» وكأنه لم يدس نملة.

- مين بيعود بيحترمنا؟

سلّم قائده وقال:

- طيّب بس ما يطوّل. بيومين بالكثير.

كان تحت ضغط من ياسر عرفات نفسه. رئيس التنظيم قلب الأرض. لم يترك مسؤولاً فلسطينياً ولا لبنانياً لم يتصل به. في النهاية قرروا أن يبيعوها له. ثمّ إن الأستاذ كان نزل إلى بيروت بضمانة منهم. الجبهة الحمراء التي أودعوا الأستاذ عندها وقعت في حرج. هذه أمور لا تخفى والجميع علموا أن الأستاذ في عهدتها. اختفى الأمين العام يومين. اختفى نوّاف. لكنّ الجبهة الحمراء لم تعد تُطبق. أخيراً حضر الأمين العام وجمع نوّاف وبقية المنظمة واستمع إليهم بصبر، وفي النهاية تكلم ساعة واقتنع نوّاف والرفاق. ذهب بنفسه إلى المخيم وأحضر الأستاذ معه في سيارته وقال له:

- رئيسك صاحبنا لولاه كنت بالقبر.

وأضاف حازماً:

- كنت بتستاهل.

وجدتُ ندى مشغولة بنوَّاف. أشارت لي أن أجلس ووجهها وسمْعُها لنوَّاف.

منذ أمسكوا الأستاذ وهو كل يوم عندها. يتحدثان وكأنني لست ثالثهما. لم يزعجني أن أنسى هكذا. شعرت أن هذا يصحح خطأ. لم تعد صنعة الصديق لامعة. باتت أشبه بثوب رسمي لا بدّ أن أخلعه، كأنها مثلي ما عادا يباليان بها. كان نوَّاف يقول:

- الظرف حاكم، الفلسطينيين بدّن هيك وماحدا معنا.

ندى تكتفي كعادتها بأن تقول «مش صحيح» مع نظرة لاغية. لا تهتمّ بأن تبرّر. تقول «مش صحيح» وكأنها تصحّح خطأ إملائيّاً أو تضع زيجاً أحمر في دفتر طالب لها. جلستُ بالقدر الذي تستحقه إشارتها ثم تركتهما وأخذت أسيح في البيت، من غرفة الجلوس إلى غرفة النوم فغرفة الجلوس ثانية فالمطبخ حيث أتوقف لأشرب جرعة ماء فالبلكون وعوداً عن الطريق نفسه، وبسرعة آليّة مرّتين أو ثلاثاً، حتى انتبهت أنني أدور كحمار الناعورة فأمسكت نفسي.

كنت أعلم أن ندى لا تكاد تلحظني هذه الأيام. لا بأس. أجلس وهي تعمل وتقطّع خضارها وتتحرك في البيت. تصنع قهوة وتقدم لي فنجاناً دون أن نتكلم، وإذا تكلمت فكأنها تكلم بائعاً متجولاً. أجلس إلى أن أشعر أنني أخطأت بالجلوس أو أن وزني الآن أثقل من وجودي، لكن لا أجرؤ على الخروج. أبقى وثقلي يزداد في نظري وكأنني واقع تحت وطأة استحقاق كبير، ولا أتحرك من مكاني. أحس أن كل كلام أبله في هذا الجو وكل حركة خرقاء. لكنني أتكلم وسرعان ما أتبين أن كلامي بلا سبب، وإذا حاولت أن أعانقها تركتني أقع من نفسي وتظهر حركتي خرقاء وسخيفة.

كانت مشغولة بنواف. لست لامبالياً بالطبع لكن هذه لا تزال بذرة ولا يزال أمامي وقت. كنت أوّخر قلقي لما بعد. القلق لا يزال بذرة. وفي بطني، لم يحن أوان الإحساس به. بهذا الإهمال أترك له الوقت ليكبر ويصبح همّاً حقيقياً.

أتمهل أمام البرّاد. أشرب كل مرّة جرعة صغيرة. أتمهل أمام المكتبة التي لم يمتلئ منها سوى نصف رف، بقيت الرفوف الأخرى فارغة مع بعض التحف الصغيرة. أشيل كتاباً. أقلب بضع صفحات فيه وأتركه على الحافة أو الطاولة القريبة. أنظر في المرآة وأغيّر وجهي أمامها. تركت نواف يكرّر لها لماذا أدخلوا سبيل الأستاذ.

- أبو عمّار اتصل بأبو سالم وقلّو بتفلّتوه إنتو أو بنفلتو نحنا... الجبهة الحمر اقاتل خلص ما فينا نبقي نكفي معكم ولا خطوة. كلن قاموا علينا.

عدّها بالتأكيد المنظمات والأحزاب التي عارضت. فسر لماذا لم يستطيعوا تجاوزها كلّها. لكن ندى التي بقيت تردّ:

- مش صحيح.

قالتها هذه المرة بقوة وانفجرت.

- قولولي إنكن جُبنّا. وقتن قتلو عزيز طيّزو على كل القوى (لفظت «قوى» مطبوطة مفخمة). قتلوه قبل ما يدري حدا. إنتو كنتو قتلوه كمان وشوفو شو بيطلع من كل القوى (عوجت نطقها) شو بيطلع من أبو عمار. جُبنّا. جُبنّا..

وانفجرت فجأة بالبكاء. فجأة قطعت بكاءها وهو في أعلى وتيرته، وكأنها اختنقت به. تحشّب وجهها وجسدها في جلسته. تصالبت يداها على بطنها وانفتحت عيناها إلى آخرهما، لا تنظر ولا تتحرك ولا تكاد ترمش. اقترب نواف منها ولكنه فهم من نظرتها أنها لا تطيق أن يلمسها أحد. وقفنا سوياً لا نجرؤ على أن نتحرك، وحين لم يبقَ له إلا الارتباك الذي لا يجيده خرج، أمّا أنا فواصلت ارتباكي حتى ثقل عليّ فجلست، وهي ظلّت تعطي وجهها للجدار. انتظرتُ قليلاً ثم سألتها:

- بتشري قهوة؟

أشارت برأسها (نعم).

في المطبخ وجدت البنّ بسهولة لكنني لم أجد ملعقة، واضطرت إلى أن أغرف بالفنجان من العلبة. تمهّلت في صنع القهوة كعادي. أغليتها إلى أن تزول فقايقها وأذوقها فإن وجدت تحتاج إلى شيء أضفته وأعدتها إلى النار. قدّرت أنها تحتاج إلى مزيد من البنّ فأضفته. وضعت الركوة والفناجين وبحث عن السكر في خزائن المجلى إلى أن وجدت السكرية. حين رجعت بالقهوة رأيته وقد ارتاحت قليلاً.

ابتسمت لي بعينيهما. جلسنا على كنبين متلاصقتين في زاوية وأخذنا شرب صامتين. كنا متواجهين في جلستنا. انتبهت أن شعرها على وجهي تقريباً وصدرها قرب ذراعي. تحاشيت أن أنظر إليها مواجهة لكن عينيهما كانتا مصمّمتين وفيهما شيء من التحدي. عانقتها وأخذتني من فمي وبسرعة وقوة كانت أسنانها ولسانها في فمي. جذبتني إليها فصرت فوقها على الكنب، كان ثمة لهاث وشدة. فمها يأكلني من داخل فمي وذراعاها حول عنقي إلى حد الاختناق. تمسك رأسي وتفرك شعري بقوة. أسمع في صدغي صدى فركها. وحين أفرجت ساقيهما وجدت تنع نفسها فجأة وتقول «قرب يجي» فانفضت عنها. جلست ورأسها إلى الناحية الأخرى، وفي وجهها ثانية هذا الانفصال وتلك النظرة الفارغة. قالت لي:

- اطلع هلق وارجع الساعة ثلاثة عندو مشوار ع الميدان.

فتحت لي. تركتني أمر ثم أغلقت الباب. انتبهتُ إلى أنني تجاوزتها وبقيت خلفي. عدت خطوة ووقفت قربها. كان واضحًا أنها لا تريدني أقرب. بدت وحدها. كان وجهها أيضًا منطفئًا مسننًا عند الصدغ والخدين كأنها دخل فيه عظم أكثر، هيئة من لا تستطيع أن تحتال على تعبها. نظرت إليّ بحيرة وكأنها لا تعرف ماذا تفعل بي ثم سارت بدون أن تخطري إلى غرفة نومها. تبعتها. وقفت قريبًا من المرأة تخلع ثيابها. شالت قميصها ووضعتة بترتيب على الكرسي، في هذه الغرفة التي تعوم في جو ليلي. الستائر المحكمة والكرسيان الأسودان والبني القاتم للخزانة وحتى المرأة مشربة بالعمّة. في هذه الغرفة لاح ظهرها وكتفها وكأنها يستقبلان نورًا آخر. كانت الغلالة لا تزال تلف جسدها. عاجلت بسرعة تنورتها وخلعتها وشالت غلالتها. بدت كاملة وانغمرت عينا في زيح الردين. لكنها رمت نفسها على عرض السرير وبقيت أطراف قدميها خارجه. أكملتُ خلع ثيابي بسرعة ورميتها إلى أي مكان. اقتربت منها. كانت كاملة، نحيلة صلبة وممنوحة لي، أنا الذي لا أستطيع أن أمنع نفسي من الرغبة في أن أندس في فجوات جسدها وزيوحه، شاعرًا بألم أنني ما إن أفعل ذلك حتى أفقد هذا الكمال وأتبدد في تفاصيله. ما يملكه النظر يهرب من اللمس. اقتربت منها فأخذت أمتلى براحة يدي من جسدها، لكنها بنفاد صبر دسّت نفسها تحتي كأنها تخفي نفسها عني. كنت مغمضًا أحاول في عمائي أن أمتلى بدرجة ما من جورة الظهر وزيح الردين. أحسّ أحيانًا أنني أحوي باللمس

ما كنت رأيته. أحياناً لا. كانت هذه دقائق لذتي. بيدي، برأسي في شعرها، بإحساسي كله كنت أريد أن أنقل صورتها كاملة إلى جسمي. شعرت بها تتقلب بنوع من الضجر على بطنها. استعجلت أن أدخل فيها. انتظرت إلى أن وصلتُ وما إن أحسست بذلك حتى نفضتني عنها. كان واضحاً أنها لم تستمتع كفاية.

لبست بسرعة وأمرتني تقريباً أن أسرع في لبس ثيابي. أخذت جزدانها وفتحته وشالت منه مفاتيح سيارتها وتبعتها إلى الباب. بقينا صامتتين. قادت سيارتها بسرعة جامحة وكأنها تقود حصاناً، ترميها في الحفر وتصعد بها على الإسمنت وترتجّ السيارة وتهبط وتعلو. قطعت إلى طريق فرعي بين البساتين. مرّت السيارة بين صفّين من الأسوار وأشجار الليمون التي تكرّر قطعانها من وراء الأسوار. طريق صعب. كثيراً ما كانت السيارة تحيد إلى إسمنت الطريق لتتجنب حفراً كثيرة. كنا نبتعد في العبارة حين انعطفت إلى بوابة كبيرة مفتوحة. لم يكن في البستان سوى بضعة كراسٍ فارغة في ظل بناء مستطيل من إسمنت عار تعلّق بطرفه درج قصير. بقينا في السيارة. نظرت ندى حولها. التقت عينانا فبادلتني نظرة فيها قدر من استفزاز. حوّلت السيارة وعادت إلى الطريق. لتدخل بعد قليل في منعطف ترابي، ما إن اجتزناه حتى بتنا في الخلاء خارج البساتين.

اقتحمنا بالسيارة أرضاً وعرة غير مستوية، ولاح البحر أمامنا، لكن ظهوره لم يبدّل من وحشة المكان. سمعنا طشطشة الأمواج فوق الشاطئ

وبدا الساحل لأمر ما باهتاً ومهجوراً. ابتعدنا عن الحيطان الواطئة للبساتين التي لاحت من بُعد مخزنة. كان التراب يابساً وخفيفاً نتأت منه عظام الصخر وعلى وجهه نامت قطعات من عشب شائك خشن نما خاصة بين حدائد السكة المهجورة. بدا المكان مقفراً. خففت ندى سرعتها استعداداً للوقوف. لكن السيارة وقفت فجأة برجة.

سعت ندى لتشيلها من الرمل الذي انغرزت فيه. هدر الموتور ونتعت السيارة مرّات لكنها لم تخرج. كنا في الفلاة عالقين بالرمل كأننا في مصيدة. أشبه بمراهقين لم يجدا للذّتها سوى أن يلتجئاً إلى ظل الجدار. خرجتُ من السيارة لأرى الدولاب وهو يدور في الرمل، وبقيت هي في السيارة تحاول. لم يبدُ عليها ظل خوف ولم أنتظر خوفاً، بل خيل إليّ أن حنقها برد قليلاً.

لا أعرف شيئاً عن السيارات، وكالعديد من المرّات لم أكن مفيداً. كانت لا تزال تحاول حين لاحظنا عدداً من الأشخاص يخرجون من البساتين ومن عدّة نواح. اقتربوا منا وتجمّعوا. خمسة أشخاص حول السيارة. لم يسألوا شيئاً جرّبوا أن يزيحوا السيارة، أخذ أحدهم المفتاح من يد ندى وصعد إلى السيارة لكن الدولاب بقي يدور في الرمل. ذهب اثنان وعادا بلوحي خشب دسّاهما تحت الدولاب وصفاً أحجاراً، صعد أحدهما إلى السيارة وبدأت هذه تصعد ببطء على اللوحيتين. نزل من السيارة وأعطى المقعد لندى وابتعدوا.

جاءت ندى إلى بيتي في العطلة وقد ذهبت زوجتي إلى أهلها فخلا البيت. دخلت إلى غرفة النوم واسترعتها كتلة من الكلينكس الملبّد الملتصق ببعضه ببعض وكأنه من آثار جماع. لم أعرف كيف زرعت في الغرفة، نظرت إليها باشمئزاز. تركناها في أرض الغرفة والتجأنا إلى السرير.

حين رأيتهما ثانية في صور. انتظرت إلى أن حاولتُ عناقها فصدّني وقالت بعبارة جازمة إنها قررت أن تنتهي، سألتها لماذا. قالت إنها هكذا تحسّ. لا تريد أن تكمل. لم يكن لديها جواب آخر. وفي وسعها أن تكرره بالحرف:

- هيك بحسّ. ما بدي كفيّ.

في البدء لم أهتمّ. اعتبرت الأمر سطحيّاً. قالت «هيك بحسّ ما بدي». بدا لي هذا مجردّ خاطر وانتظرت أن تنساه في اليوم التالي. لم أصدّق أن الأحاسيس هكذا أمرة نطيعها ولا نسألها. فكرت أن الناس لا يصدّقون تماماً أحاسيسهم. يتركونها فقط تخدمهم. شعرت أن عبارة كهذه ليس فيها أي فكرة ومن الصعب دحضها بالنقاش، يمكن تبديدها بالمزاح أو الغضب لكن هذا لم ينجح. صمدت أمام مزاح بدا لذلك سقيماً حتى صعب المضي فيه. بدأت أردّ بالحجّة، لكنّ كلمة ليس فيها فكرة لا تستدعي فكرة. لعجبي وجدت نفسي بلا أفكار. أقول لها هذا تافه

وسخيف، ثمّ لا أعرف كيف يكون الشيء تافهًا وسخيفًا، ويصعب عليّ أن أبين لها ولنفسى أيضًا تفاوته وسخفه. كان عليها أن لا تجد فكرة بهذا السخف، أو أنّ على الفكرة أن تموت بسخفها. لكنّ هذا لم يحدث.

شعرت بالعجز. كانت تقول «هيك بحسّ» وكأنها تقول هكذا لا أحسّ. لم يكن هناك شيء في نظري. فرغت من كل شيء أو لم يكن هناك شيء على الإطلاق. كنت أصطدم بعظم جمجمتها، بخلاء نفسها، بعظمها الحقيقي، بالجدار.

بدأت تتعبني، كل يوم الدوران العقيم إياه. كانت جدارًا، وأنا معها أستحيل بعد ساعة كلام إلى جدار. أحسّ أنني موجود أيضًا بعظمي الصلب الذي لا يمكنني أن أستنبت منه فكرة. أشعر بأن لا معنى واحدًا وأن الأمر أبله وفارغ كجوابها تمامًا.

أعود إلى بيتي بتلك الحاجة الفظيعة إلى البقاء معها، وأحسّ أنني في نظرها لا شيء لذلك لا تحتاج إلى أن تقول كلمة لتطردني. بدأ الأمر يطحن في رأسي كل دقيقة تقريبًا. تفكير قهري مستمر. كل لحظة أعمرّ جوابًا لا يصمد كثيرًا. وكل لحظة أحطّم شيئًا غير منظور في رأسي. شيئًا يشبه جوابها الجليدي أو يشبهها. أفكر أنها تتركني لأنها لا تجدني جديرًا. وأنها طوال الوقت تعرف أنني لست كفؤًا لذا طردتني دون تفكير. عند ذاك أحجل من نفسي خجلًا مؤلمًا. أرى نفسي مهملاً. بجهد وآليّة أسعى لأن أضع في رأسي أنها سوقية جوفاء. أبحث عن سبب وأقول إنه نواف

أو جعفر زميلها الذي قالت إن مسحة وجهه تشبه مسحة وجه عزيز .
 أقضي وقتي في هذا الجدل الداخلي الذي يتحوّل ما إن أراها إلى رماد .
 لا أستطيع أن أصرخ أمامها، وأعمّر بالعكس حججاً متسلسلة أقولها
 بترتيب وهدوء. أقول لها ماذا خطر لك لتفعلي هذا والبارحة كنا معاً في
 السرير، وأثبت بصورة شبه حسابية أن أمراً كهذا يحتاج إلى وقت أطول .
 أقول لها إذا كان الندم هو المسألة فقد فات أوانه. إذا كانت صلتنا خيانة
 فعلاً فإنها حصلت وليس بعدها خيانات أخرى. أقول إن عزيز هو الثاني
 في مثلث الندم هذا وإذا هدمت المثلث فسيخرج. ربما تريدان أن تنتهي
 منه قبلي. أقول إذا كانت مسألة إحساس فالإحساس الصافي يا عزيزتي
 صعب، ليس من إحساس لا يقول شيئاً أو ثلاثة نختر منها ما نريده .
 أقول ذلك برتابة وصوت تلقينيّ. ربما لأرفع قليلاً من قدر نفسي، وتستمع
 وأشعر أنها لا تستطيع جواباً، وأن حججي تحيرها وربما استدرجتها إلى أن
 تقرّ بشيء. توافق على أن في الأمر ندمًا. لكنها في ما عدا ذلك لا تصدّق
 ما تسمعه. تقول لي تقريباً إنني أגרّش في المكان الخطأ، وأخيراً إنها هكذا
 تحسّ وتريد أن تنتهي .

ينهار بناء حُججي وأنهار معه تقريباً وأغضب. وإذ لا أجد جواباً
 أنكفئ حزينا، ويزورها آخرون فأنزوي على كرسيّ منتظراً بنفاد صبر أن
 يخرجوا، لأواصل أملي بالجواب الذي لن يأتي. كان أمامي الفراغ، وكنت
 تقريباً أفعل أي شيء. أحفر لأستخرج هذا الجواب لكنني أبقى دائماً في

الطبقة الأولى أو أصطدم بعظم الجواب. إنه حجر. ليس لديها سوى هذا الشيء، هذا الصفيح. لا شيء. لا شيء بعد ذلك. لا يرنّ شيء بعده. فقط صوت أصمّ. فقط صدى السؤال. فقط ذلك الكدح وذلك الشعور أنك تطحن في رأسك وفي لحمك.

كل هذا بدأ يُمرضني. أعود من عندها مضغوطاً إلى أبعد حد. أبتلع كلماتي مجدداً. أعيدها إلى جوفي. أكبسها في داخلي. أشعر أنني مدكوك بغضب لا أستطيع أن أخرجه أو أنه يخرج مني قطعاً. لا أدري في أي سنّ اكتشفت أنّ لي نفساً. حسبت يومها أنني وحدي أملك ذلك، ولم تبدر من أي من رفاقي إشارة إلى أنه يملك مثلي. كنت الآن، وبصورة مؤذية، مع شخص لا يملك نفساً أجلس وأتكلم كشخص يجب أن يرى قيئه. كان الأمر هكذا عقيماً كمضغ الخشب. أجلس وأتكلم حتى يغدو الكلام كالحكاك الذي يأكل الجلد ولا تستطيع أن توقفه، وكلما زدت كلاماً ازدادت حاجة إليه، وحين أسكت أشعر به عالقاً في حنجرتي، ولا يفعل الكلام سوى أن يراكم سوء التفاهم إلى حد يفقد معه موضوعه. في اليوم التالي أعود بصورة إدمانية إلى نقطة الصفر. إلى الحكاك حتى أكل الجلد. إلى الكلام حتى الإغماء. كم كرهت الكلام يومها. كم كرهت أن أستفرغ نفسي كل يوم، وألحس ما استفرغته في الصباح التالي.

عليّ أن أتركها. هكذا قرّرت وأنا عائد من عندها. فكرت أنها لن تنتبه لغيابي قبل صباح بعد غد. تمنّيت لو أبدأ غيابي من هذا الوقت. يومان مهدوران لن يضافا إلى هذا الغياب، لا أعرف كيف وصل صباح بعد غد لأبدأ عدّ أسبوعين. كان هذا كأيام الصوم. أعدّ الساعات إلى أن ينقضي النهار، وفي المساء أكون أنجزت يوم غياب آخر. لا أستطيع أن أتخيّل إحساسها بغيابي. لا أعرف إذا أحسّت به أصلاً. كل مساء أنجز يوم غياب وأضيفه إلى الأيام السابقة كما لو كنت أحفظها بعناية في خزانة. لم أنقطع عن عملي. بقيت أقرأ وأكتب وأذهب إلى الجريدة والمدرسة، لكنّ أكثر ما كنت أفعله هو الغياب. حين انتهى الأسبوع الأول شعرت بحجمه الفراغي. بقيت أجمعه يوماً بعد يوم إلى أن انتهى أسبوعان، استجمعت نفسي وأضفت يوماً آخر بل يومين. كفاني. آن أن أذهب إليها.

فتحت لي وهي شبه نائمة. تركتني على الباب ورجعت إلى غرفتها. لحظات وخرجت منها وهي تعقد رובהا. استراحت على الكنبه ومدّت رجلها على الأريكة. ألقت رأسها على المسند وأغمضت عينيها ثم فتحتها وهبّت وهي تقول بصوت لا يناسب هيئتها النائمة:

- شو وينك؟ هلّق خطرنا على بالك؟

ثمّ بصوت أعلى:

- وينك امبارح إجت نجوى تعزمك على السهرة؟

كان في صوتها لعبة عبث صغيرة.

- أوم تبوسك.

وقفت وعانقتني. كنت صامتاً وكأنني بهذا أو اصل غيابي. قمتُ لأعمل القهوة فأمسكتني من يدي.

- قعود. أنا بعملها. تشريفك غالي.

تبعتها صامتاً إلى المطبخ. بدأت وهي تملأ الركوة بالبنّ وتضعها على النار تخبرني عن سهرة أمس. وعن عملها أيضاً. ماذا قالت ماري وماذا قال لها نواف.

- ضاهرة لوحدك. ما بتخافي. عيون الناس فارغة.

تابعت أخبار إخوتها، وأمها. تدفقت الأخبار في انتعاش ظاهر فيما كنتُ أنا قابعاً في غيابي. اشتريت ثياباً. تاير وسكريينة أحضرتها لي. كان عليّ أن أبدي رأياً هذه المرة وفعلتُ. استمرت تخطر وتكلم بانسراح أزعجني. لم أطق أكثر. أخذت أعرض بصوت تلقينيّ حُججي الجديدة. حُجج أسبوعي غياب وأكثر. أصغت إلى أن ملّت. ثمّ قالت بشيء من ضجر:

- بعلمي انتهينا. ما يعني إني مابقا حبك. إنت صديقي ما إلي غيرك.
بس ما بدّي.

انهار أسبوعان من الغياب وتلاشيا دون صوت. أكملت فكري المكشوفة

مع ذلك ولم يكن بقي فيها روح. استفرغت نفسي مرّة أخرى، وكان قيئي أمامي، وكالعادة زادني الكلام عطشًا وإلحاحًا داخليًا. سعيْتُ إلى ضبط نفسي بعبارات مقطّعة رتيبة. لكنني تعثّرت بالكلمات كما أتعثّر بحجر. فجأة لمع حنقي وطار من فمي بسهولة كلمات لم أحسب لها حسابًا. قلت لها إنها محطّمة رجال (قلتُها بالفرنسية) وإنها حطّمت عزيز، وتريد أن تحطّمني. قلت لها إنها لا تحب أحدًا. «هَمْكُ في كبريائك. تريدننا راكعين. جعلتِ عزيز خرقه وتريدنني هكذا». خطرت لي أنها تركتني من أجل جعفر وتحوّل هذا فورًا إلى يقين ركني وجعلني أمتلئ كرهاً. سمعت مذهولة. قالت إنها تعلم أنني كرهتها كثيرًا في حياة عزيز، وفعلت الكثير لأبعده عنها. لا تهتم. أحببت عزيز كثيرًا. أعطته كل دقيقة من عشر سنوات. خافت كل لحظة أن لا يكون هذا حقيقة وصدق خوفها. كان أجمل من أن يتحقق. لا تهتم. تعرف ماذا يقولون. أكيد أنني أردّ ما أسمع. إنها لا تريدني أن أقرن نفسي بعزيز. لا أحد يمكن أن يساويه. لا تفكر في جعفر فهو زميل لا أكثر. وهي لا تحب كل يوم. بدت مجروحة. لا تريد أن يتصورها أحد صيّادة رجال وأن تُتهم بأول عابر. تكلمتُ وكأنني لا أعرفها. أسوأ من أي أعدائها. كانت متعبة. أخذت حبتي مهدّئ. تركتني في الصالون وذهبت إلى سريرها. أغلقت باب غرفتها وتركت لي فراغ منزلها. كانت هذه بالتأكيد أسوأ ساعة في العصر الذي غمر فجأة البيت. خرجتُ وتجوّلْتُ دون هدف في الشوارع حيث كان كل شيء معدّباً ومبلّلاً بطريقة ما. الأفق مسدود بغيم كثيف والسماء

ثقيلة ومقفلة تمامًا على البحر. نُقع الماء في أسفل المنحدر وحيدة وواسعة وتلمع بنوع من الوحشة قبيل الرصيف المطل على الشاطئ.

كنت أغدو أحيانًا قاسيًا، وإذا زدتها تبتلع حبتين وتتركني. أحاول عناقها فلا تبذل جهدًا لتصدني، تبقى فقط خارجي، لا أتمكن من فهمها فيقع فمي في أي ناحية من وجهها، وكأنه وقع في الخارج، ويبقى جسدها، بحركة ما، خارج ذراعيّ إلى أن أتعب وأفلتها. ما زالت تعرض عليّ الثياب الجديدة التي لم أعد أكيدًا أنها ترتديها لي. ما زلت أحمل كل اثنين المجلات الفنّية والرومان فوتو التي اعتدت أن أشتريها لها. لا أخجل أن يراها أحد في يدي، وربما رغبتُ أن يروها معي. تسرّني هذه المهانة الصغيرة في سبيلها. إنها إعلان صامت عن علاقتنا. كان في هذه المجلات التي ستغدو بعد قليل جنب وسادتها، وتحت سريرها وفي لحافها، ما يمتّ إلى حجرة النوم والسرير وإلى جماعنا نفسه. كما هي، لسبب لا أدريه، نظّاراتها الشمسيّتان. لم يكن هذا في المجلات وحدها. بل أيضًا في ملازمتي الصامته لها وكأنني كلبها. في احتمالي لنظرات زوّارها. في وجودي النابي وغير المحتمل من زوجها. في ذلك كلّ كنت أستعيد بمعنى ما جسدها. أرى في عيون هؤلاء ما يشبه رؤيتهم لنا في السرير.

المجلات التي أشتريها ذات معنى مزدوج، ليس فقط معنى السرير بل حسرة حرمانني منه أيضًا. هكذا كنت أتجول في بيتها كالمطروود منه. أدخل

غرفة النوم لأتأمل أدوات الزينة والمرآة والكرسيين الأسودين وكأني أتأمل عُرْيَا. أحاول أن أتذكر جسدها، لكن يصعب عليّ أن أتذكر شيئاً عن قدميها سوى الربوة التي تتأ من الحذاء الضيق. لا أذكر سوى لمحات كهذه. مثلث الساقين المتلاصقتين، رابية البطن الصغيرة. الحلمتين والزيج المصروور بين النهدين المضغوطين تحت الثوب والسوتيان، جورة الظهر وغمازي الردفين وفتحة الشفتين. لم تكن هذه كاملة ولا هي مجرد نُتْف. كانت صوراً منها لابسة وعارية. وربما اختلطت بالمرآة التي وقفنا أمامها مرّات متلاصقين، بالمقعد الأسود، باللون الأسود كلّ الذي يسيل من سوتيانها وسليبيها.

كان هذا كلّ، بمعنى ما، عُرْيَا. أشياء كثيرة، ولأسباب يصعب فهمها، تحمل ذكرى جسدها. في هذا الوقت يبدو العالم وكأنه صورة شخصية لنا. حياة سابقة لنا. الأشياء كلّها رسائل شخصية. عندئذ يمكن أن نتعذب لحجر أو لمنحدر عادي، أو نشعر أننا بطريقة ما نتعذب هناك. كان هذا أشبه بفراق بلد لا نعرف من فارقنا فيه. كلّما فكرت في أمر قادمي مباشرة إليها. بدا قريباً منها ومن جسدها. أفكر وأنا أسير، وفي الحقيقة كنت أسمع أو أتبلّغ دون تفكير.

بتّ أكثر حساسية للملمس الأشياء، ملمس الموبيليا السوداء والبرودة الخفيفة التي تصلني من نعومة الخشب والرخام. أمرّ براحتي على القماش مرّات، وأنتظر أن يدبّ دفء يدي ولينها في النسيج. بتّ أكثر حساسية

للروائح، روائح النساء خاصة. أشمّ العطر وآمل أن أتَنفّس فيه رائحة الشعر نفسه. أشمّ آخر العطر، رائحة أخفّ، رائحة البدن، أحمّن، ولو بالخيال، أن هذا من الإبطين أو العنق، أو البطن، رائحة أثقل من رائحة بحسب عمق المكان الذي تأتي منه. قطفت زهرة بَرّية نابّية في ربيع حقل على جنب الطريق، زهرة بنفسجية وبيضاء على شكل بوق. وضعت عرقها في فمي لأمتصّ منه رشفة حلاوة كما اعتدت منذ طفولتي. وجدت فيها طعمًا عشبيًا. رفعتها إلى أنفي فتتنفّست فيها رائحة ضئيلة تعبت حتى عثرت عليها. كان هذا أثرًا من جسدها.

في العديد من النساء أبحث عن أثر منها. في العين في الفم أو اللون أو المشية أو الصوت ودائمًا أجد. كأنها فجأة انتشرت. ثمّة أشياء تشبهها، ليست ملابس أو أحذية فحسب، ولكن أيضًا فنجان قهوة على شكل جرس بدمغة خضراء في الأسفل وتعاريج حمراء وخضراء على الحافة، ملأني حين أمسكته لهفة، تمهلّت على غير عادتي في الشرب منه. رشفات صغيرة، أحسّ فيها بطعم البنّ أكثر مما أحسّ بهادّته. أتملّ من الطعم وأتركه يشيع فيّ. ومرة بعد مرة أمتلئ بطراوة داخلية أحسّ معها أنني، بصورة ما، أستحضرها، في الرشفات البطيئة واللمسات المتكررة.

الأغاني تستحضرها بشكل مؤلم وأكثر مما أُطيق، حتى صرت أتجنّب سماعها وإن كنت أحيانًا أستشيرها. أبحث فيها عن نصيحة منقّدة، عن رسالة، عن معنى فاتني. فهذا الكلام الذي طالما اعتبرته عاميًا أجوف بدا

لي الآن محملاً بالحقائق التي هي بدون علمي عامية ومبدولة.

كنت أجدها فجأة في شجرة، مفرق طريق مستديرة، واجهة بيت، سوق تحت الأرض. أعرف أن صلتها بهذه أكيدة وشبه جدية، دون أن أعرف كيف. قبيل نومي أعقد عشرات الصلات، مصاهرات غريبة بين الأشياء لكنها حقيقية دون ذرة شك. تجرني السهولة التي أفعل بها ذلك وأسترسل فيها وأضيع وأضيع كل شيء تقريباً. فكرت أنني الآن عبارة عن معمل للصور. أجدها أو أستذكرها. ربما الشَّعر موجود هكذا وفاتني أن أبحث عنه هنا.

كنت أملس داخل بيجامتي على بطني وفخذي وحوضي بمتعة. أفعل ذلك بسهولة لا تتوافر لي حين أكتسي شيئاً يخصني. لا أشعر بهويته. أجده واضحاً وبسيطاً وكأنه ليس لأحد.

نزلت في المنحدر وشيء فيّ يتكلم طوال الوقت. أعمل في داخلي بسرعة وضجة. خلاياي تعمل كلها بصوت مسموع، وأفكر بطاقة عشرة أشخاص. أشعر أنني تقريباً على الطريق. العالم مملوء بمادة أخف. الهواء بارد وأتنفس بمتعة وبحاجة متزايدة إلى الهواء. كنت موجوداً في رأسي أكثر مما أنا موجود في الشارع، وللأشياء حولي وجود شبحي تقريباً، مجرد ديكورات غاطسة في لون زلالي حائل، في شبه كسوف. مع ذلك كانت قدرتي كبيرة على الألم. فكرة بسيطة، غير مؤكدة أحياناً... مشهد. صورة.. وبلا سبب واضح ألتهب بالألم. أرى الصيدلية التي اشتريت لها منها حبواً وانتظرت من البائعة أن

تلاحظ أنني اشتري حبوبًا مانعة للحمل لكنها لم تهتم. المكتبة التي اشتري منها المجلات. وصلتُ إلى المستديرة دون وعي. رأيت العشب والنخلة المقلوعة من ترابها، المزروعة حيث لم تنبت، تبدو عجوزًا وكبيرة على ذلك. لمع فيّ ألم كبير. كان العشب المجزوز يردّني بطريقة ما إلى شعرها. الكنيسة المخردقة المهجورة على جانب الطريق تمتّ إليها. هي مسيحية بمعنى ما. بصديقتها وزيارتها للحي المسيحي وربما بأسلوب حياتها. كانت اجتماعيًا مسيحية، اختلافها يجعلها على الدوام من طائفة أخرى، وربما أجنبية. الدكان الذي يبيع أشياء خفيفة للكأس يردّ إليها. إنها موجودة في نهايات السهرة، في تكسّر الجسد الرقيق، في الصحو والمتعة والتعب. الشبايبك والشرفات وخطوط السياج. هذه الخطوط الضئيلة والبسيطة لفراق ما. وحشة ولمعان الإسفلت عند العصر. كنت للغرابة أتذكر، وأخلق ذكرى لكل خطوة. أمام دكان الزهور أحسست أنني موجود في الدفلى أكثر مما أنا موجود في الورد. هي موجودة في الزنبق. في البرج الذي آلمني حقًا أن أراه. لم أحتمل رؤية الجدار الذي تقع خلفه مقبرة السيارات. كان في وسعي أن أذل نفسي لدرجة أن أراها هناك. رثيت لنفسي في الحطام المعدني. رأيتها في بناية «جاد» المهدامة منذ الاحتلال الإسرائيلي. في خط السكة المهجورة. يتزايد إشفافي على ذاتي إلى حدٍّ يملأ حلقي. لا أريد أن أرى شيئًا بعد.

لم تكلمني. تركت لي الباب لأغلقه ودخلت إلى غرفتها. مرّت مرّتين بقربي وأنا مغرور في الصالون ولم ترني. خرجت من غرفتها بثياب سوداء. وقفت تبحث عن مفاتيح السيارة في جزدانها.

- أنا راحجة.

فتحت الباب. وتركته لي مفتوحًا. كنا في أخريات تمّوز، يوم مقتل عزيز بالضبط ولا تريدني معها في هذا اليوم، بقيت مكاني ولم أردّ الباب. نفذت بنت الجيران من الباب المقابل وسألت عن أمّ أيمن، ولما وجدتني وحدي لم تكتف، قالت إنها تريد مكنسة الكهرباء وتركتها تدخل إلى المطبخ. وصلني صوت أطفال من كعب الدرج. مرّت المرأة الحمراء الخدين والثياب كحبة طماطم ونظرت إليّ بعينها الصغيرتين، وهي تمرّ جنب الباب صاعدة إلى الطابق الخامس. تراجعت ضجّة الدرج واختفت وانقطع المكان برهة شعرتُ بصمتها وتحوّلت إلى انتظار ثقيل بلا غاية. أغلقتُ الباب ورائي ونزلت. نظر إليّ صاحب الدكان الجالس أمام دكانه بتلك النظرة التي تتعمّد الغضب وعدم الانتباه. شعرتُ أن عليّ أن أصعد إلى الميدان. لا تريدني معها هناك وليس هذا سببًا لأبدو غير مهتم.

انتظرتُ ريثما يهَيّئون لي الإكليل. أحضرتُ سيارة نقلته من دكان الزهور في المقعد الخلفي. كانت الطريق لي وحدي. وجدتها أجمل مما عرفتها. البساتين في المقلب المقابل تبدو منقطة ومزيّحة بالسروات الرفيعة وقممها الإبرية، شبك البوابات المعدنية وتعاريج صفوف شجيرات البرتقال. كان على

الطريق أيضًا تشبيك بديع من هضبات متوازية وفُسحة في لحف الصخر تستظل بقمّته الشاهقة. هل أجروا على القول إنني كنت فرحًا هذه الصبيحة. الطريق تنمو أمامي والريح تصطفق في نافذة السيارة المفتوحة.

نزلت عند أول الهضبة. أحرقت شمس تموز الهشير الذي يتسلق الهضبة فتكّوم القش والشوك على حافتها. كان هناك خلاء واسع حتى مقلع الصخور في الطرف الثاني، خلاء تراب وحجر ناعم تنتأ أضلاعه من التراب والعشب المحترق. لم أستحب أن أنزل عند البيت وأحمل الإكليل كأنه مجرد غرض. نزلت عند بيت شقيقته بخطى بطيئة متساوية كأنني أخطو على إيقاع ما. أسير وحيدًا حاسرًا في صمت الهواء وعيون التراجيديا التي تتأملني من أعالي السماء. كان البيت مرفوعًا على أعمدة بيضاء وبلا حيطان، وربما أزالوا ما بني منها. في الداخل رخامة على مستوى الأرض نقش فيها اسم عزيز عون وتاريخ وفاته 1980 الأرض مبلّطة ببلاط أبيض ذي مربّعات كبيرة، وحول الرخامة ثلاث شجيرات خضراء، وغير بعيد منها بركة مربّعة على مستوى الأرض والماء يُنوفر منها، فيما يعكس سطحه الصافي قاعها الأزرق. كان الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني مبلّطًا أيضًا ببلاط أبيض وعليه درابزين معدني أزرق نيلي بزخارف جميلة، وعلى مدى السقف كلّه زرق نيلية. هذا بعد الهشير والشوك والخلاء الترابي واحة حقًا.

وضعتُ إكليلي جنب إكليل ندى الذي كُتب على شريطه «من ندى» فقط. لم يكن على شريط إكليلي كتابة مختلفة «من بسام». استلقيتُ جنب

الرخامة بين الشجيرات الثلاث والماء ينوفر دون أن أراه. تنفّستُ رائحة عطرية من شجيرة الريحان وأغمضتُ عينيَّ. حُيِّلَ إليَّ أي غفوت. درت بنظري في المكان. كانت الحيطان قائمة في الجهات الثلاث الباقية. الأبواب في مواضعها من خشب بني داكن. كنت أشعر أن عزيز مثلي يستلقي بين الشجيرات الثلاث وقرب الماء. إنه بيته ولا يحتاج إلى أكثر من حياة شجرة وجدول، إلى أكثر من صوت الماء المنوفر في البركة. لم أكن أنا أحتاج إلى أكثر.

حين جاءت أنيسة ابنة شقيقة عزيز لأخذي وجدتي شبه نائم. كنت فقدت انفعالي بما حولي وبتّ مستعداً للخروج. قمت قبل أن أسمع صوتها. الشمس التي فاجأتني على المدخل جعلتني أشعر بأنني عائد من مكان غير قريب. دخلنا من بين الأشجار طريقاً إسمتية الحصى مزروعة فيها. وعن يميني حقل صغير فيه مزروعات مستلقية على الأرض ومفصولة بحائط واطئ عن الحقل. وجدتُ ركوة القهوة وبضعة فناجين في صينية على طاولة واطئة. جلستُ على كرسي من أسلاك بلاستيكية. جاءت منيرة أخت عزيز وقبّلتني من كتفي. جلست ومعهما زوجها وابنتها وشربنا القهوة. لم تحضر ندى، اختفت من البيت. لم أسمع لها حسّاً رغم إصغائي العميق. كان داخل البيت ميتاً تماماً.

حملت الابنة الفناجين إلى الباب ودخلت. أحضرت ماء وعادت فأحضرت فاكهة. سألني أبو محمد علي زوج منيرة عن الأحوال (السياسية طبعاً).

السياسة وحدها تُكَنِّي هكذا. كان كبقية الفلاحين يحسب أن علم المتعلمين لا يفوته شيء، ولم أخيبه. قلت إن الأمور صعبة. فتح ما بين رجليه وحنى ظهره نحوي. تكذّرت منيرة. ليست السياسة لها سوى المحل الذي نفدت منه الرصاصة إلى أخيها. قلت إن الأمور ليست صعبة ولكنها غالبًا بلا حل، فسّرني عن أبو محمد علي لأنه لا يرى الأمور أقل من ذلك. كنت أجد جُملاً. جُملاً لطيفة وفكري في محل آخر. تدرّبت على ذلك. اعتدت أن أداري هكذا الوسواس القهري التي تطحن رأسي. أحصر هكذا فوضاي الداخلية فلا تتسرّب إلى عينيّ ولساني. كان الكلام المرتّب نوعاً من عقل خارجي يحميني منها، قشرة خارجية فحسب. أعرف الآن لماذا يؤذيني الحديث عن جوف الأرض. أخشى في الغالب أن في داخلي مادّة عمياء مثله.

كنت أشرح ويجزّني الكلام إلى شيء من فكاهة، حينما رأيت ندى على الباب بشباب سوداء ووجه كبسه النوم. أسرع إلى السطّيحة ولم تنتظر. صبّت من الركوة الباردة قهوة مختلطة بتفل وذاقتها. كانت ثمة ركوة أخرى على النار. أحضرتها أنيسة بسرعة وجلست قرب ندى، قريبة جداً وكأنها تشتهي لمسها. ارتاحت قسمات منيرة وقامت واحتضنتها وهي ترشف قهوتها. كان في خدّها خط بارز من أثر الضغط على الوسادة واختفى بالتدريج. لم تقل شيئاً. تلقّت فقط من منيرة وابتنها رعاية صامتة. أنا أيضاً أحسست أن قلب الأخت اللحيمة يرعاني. تشاغل ندى بقهوتها وكمين يداري حرجاً سألت منيرة عن ابنها الدركي الذي تزوج حديثاً من ابنة قرية

في الشمال. أثنت منيرة على كتّتها كمن يتبرأ من مشاعر سيئة تجاهها. ساعة الحب هذه التي جمعتنا لم تطاوعها على إبداء حذرهما، لكنّ ندى تطوّعت بصوت عالٍ للدفاع عنها. زارتها في بيتها وهي:

- مربّاية وتعمل له بيت.

كرّر أبو محمد علي بالحرف فاستلمت زوجته كلامه.

- والله مربّاية.

أرض السطيحة الإسمتية التي ترك فيها المالح تموجات ظاهرة، لم تكن بلونها الرصاصي الضارب إلى الخضرة وملاستها الخامدة ملائمة لتصريف الحساسية التي عيينا فجأة بها. كان ظهري إلى الحائط تقريباً وأمامي الطاولة الصغيرة المقشورة اللون. كنت مستقراً في مطرحي. إذ غالباً ما أشعر أنني لا أعرف ماذا أفعل بيديّ. ندى وأنيسة ولطيفة يجلسن في ظلّ الحائط. لم أكن قد تكلمت منذ وصلت. فجأة رفعت رأسها وتجاوزت الجميع ونظرت إليّ نظرة استردّتها بسرعة. لم تكن مغناطيسية لكنها خليعة تقريباً، حرة ولاعبة كأنها تعيد ليلة حب.

لا أتكلم في العادة على راحتني إلا حين يكون مستمعي عديم الإرادة حيال كلامي، ميتاً تقريباً إلا من الإصغاء إليّ. يكفي أن يتنفس بقوة أو يتململ لتتهدد سيطرتي على حديثي. تكلمتُ على السطيحة بطلاقة فاجأتني. تمتعتُ خاصة بالجمال الاعتراضية والتذييلات الفكّية التي أعلم أنها عادة

تَضَيِّعُ المستمع. جاوبتني ندى بنظرة طويلة. جلست ويدها في حِجرها تنظر إليّ. لم يكن هذا مجرد إصغاء. بقيت نظرتها واحدة لا تتلوّن بها أقوله. أقصد بقيت لمعتها واحدة كأنها تتجاوز حديثي. كانت تقصّدي مباشرة. تزداد نظرتها سكوناً كلّما طالت، كأنها هكذا تتشرّبيني على مهل، أو تتيح لي أن أتدفق كثير إلى سائل عينيها. كنت أكثر فأكثر داخل عينيها، حتى أنها حين وقفت لتغادر شعرت أني أنزع بصعوبة قوّتي منها.

رافقتها إلى السيارة واسترخت جنبها. كنا منفصلين من جديد. أنا غارق في المقعد وهي مستقيمة على المقود. عيناها على الطريق. تنوّرتها ملفوفة على خصرها في أسفلها فتحة ومثلث أبيض محصور فيها، هل كان عليّ أن أتحمّسها بيدي وهي هكذا لا تدير وجهها إليّ.

كم يكون هذا أخرق إن أزاحت جسمها وبقيت عيناها على الطريق. حركة خرقاء واحدة، وأفقدتها ثانية. كيف أكلف يدي ما تفعله عيناها. جعلت الحيرة جسدي كلّهُ أخرق. كتلة من خرق تجمّعت على مقعدي. لكي لا أتعثر تشاغلّت بالنظر إلى جانبي. لم يكن لديّ الكثير لأراه. كانت وراء رأسي، وأنا أنظر.

كتمرين مهدّئ أخذت أتأمل صفحة وجهها وأستعيد تسليّة طفولية، ففي سنوات صغري اعتدت أن أحرّك إصبعي بما أراه على ثيابي وعلى أي شيء. أرسّم بإصبعي في الفضاء ما أراه دون أن أنظر إلى يدي. أخذت أحرّك إصبعي بقسماتها على المقعد، جبينها، أنفها، فمها، ذقنها، عنقها. كرّرت

ذلك مرارًا. لا أحرّك إصبعي كثيرًا. أرسم به في موضعه كأنني أنحت أكثر مما أرسم. أدارت وجهها فجأة ونظرت إليّ تلك النظرة اللعوب:
- دير وشك عني.

قالت باحتجاج تمثيلي. جاءت الإشارة. لم أنتظر. وضعت كفي على كفها التي نامت تقريبًا. تحسّستُ جسدها باليد التي تعبت من رسم قسّمتها على المقعد. مررت بها على لفّة حوضها فخصرها فصدرها الذي فردت عليه راحتي وأدريتها مرارًا على القماش الذي يضغط ثديها فشعرت أن شيئًا يستفيق تحت راحتي. صعدتُ إلى عنقها فصفحة وجهها. كنت أتفقدها. أعيد رسمها تقريبًا.

ظلت ساكنة لكنها نفضتني فجأة. لاحت سيارة في المنعطف. مرّت السيارة، فعدت أملّس بكفي دوائر على بطنها، ولم أملك حين شعرت بمنابت فخذيها، إلا أن أدسّ كفي بينهما. أوقفت السيارة ومالت إليّ سلّمتني شفيتها وعُنقها، ثم سوّت شعرها بطرف يدها وعادت إلى المقود. كنا صرنا في السهل فجلست أأمل البساتين. رأيت الخضرة الواسعة وأشكالًا مثلثة لأشجار. كان هذا تبسيطًا هندسيًا شاهدته بانسراح. انشاحت لرؤية الخارج لمّا مرّتبًا نظيفًا، خارجًا بحثًا كامل الخضرة واضح الأشكال، لا يلتبس بفكرة ولا بأحد.

صعدتُ وأنا خلفها. انغلق الباب. صارت بين ذراعي. كانت فتحة

الثوب لا تزال تفوح في رأسي، ولا أعرف كيف ارتفع الثوب عن بطنها، وكيف خرج الثدي من الياقة التي تعصره، وكيف تجمّع فستانها أخيراً في وسطها. على هذه الحال وصلنا إلى السرير متعاليين وسقطنا عليه معاً. لحظة كبيرة وأنا أكلها من داخل فمها وأقتلع تقريباً فرجها وحلمتها. انتهينا في وسط ذلك. فجأة لمعت عيناها كثيراً واتسع فمها حول فمي وامتلاّت برطوبتها. بقينا هكذا وقتاً. نظرت إليّ نظرة خليعة وكنت ملأت أذنيها قبل قليل بأفحش الألفاظ. لم تتركني أنزحزح عنها. شدّت جسدها وجعلته مطابقاً لجسدي. بدأت تدفع قليلاً. كنت رخوّاً لكنها لم تُبال. قالت بصوت عالٍ وضحكة فاسقة:

- أكلة وانسمت عليك. كول وغمّض عينيك.

كنت فوقها، قطعة منفصلة عنها. شعوري بذلك أقوى مما عداه، لكنها تابعت دفعها. كنت رخوّاً ومبللاً، وهي أيضاً مبللة، وفي هذه الرطوبة لا يتوقع أن تخرج شرارة ولا أن يقسو شيء، لكنها واصلت دفعها. تصلني بها بأصابعها، وتعيد وصلي كلما أفلتت، وتضحك عندما تراني أفلت. ضايقتني ذلك أول الأمر، ذكرت مداعبات البالغة التي كانت في طفولتي ترفع لي عضوي بعود، بل تذكرت زميلاً حاول أن يجامع دمية. بدالي أن شيئاً من السخرية، وأكثر منها، في هذه المنطقة المبللة. استمرت في الدفع والضحك إلى أن بدالي، بعد قليل، أنني أستطيع أن أفعل مثلها. أخذنا نحن الاثنين نضحك وتبادل الدفع. شعرت أنني أتحرك فوقها كقطعة لا تركز

على الأخرى، راقني هذا التشبيه ثم غمرنا اللعب. أخذ جسدي يركّز أكثر على جسدها وشيء ما غداً أكثر عضوية وقساوة في المنطقة المبللة. ولدت الشرارة. أخذتها بهدوء وهي لم تتوقف، إلا قبيل قليل، عن الضحك.

لمست ثوبها الذي عاد - للغرابة - مرتباً. أصلحت شعرها وعادت بسرعة إلى طبيعتها. وقفت أمام المرأة تسوّي مظهرها وتتحدث عن منيرة ولطيفة. لحظة طويلة وعادت بوجه ليس فيه أثر طفيف لما حصل قبيل قليل. تقدّمتني إلى الصلاة وجلسنا صامتين فترة ثم قالت دون أن تنظر إليّ وكأنها لا تخاطب أحداً:

- هذي نزوة.

وكرّرت لنفسها:

- هذي نزوة.

في اليوم التالي وما بعده صدّنتي بالعبارة نفسها:

- هذي نزوة.

وجدوا سمير بو علي مقتولاً في حقل بطّيح بين الصعبية والميدان. الصعبية جنة إذا قيس بالميدان. تتلون الأراضي بدءاً من مشارفها ببنفسجي وأصفر وتظهر أسراب الشجر. لم يعلم أحد ما الذي جرّ سمير إلى الصعبية لكنها

في الغالب بنت، والقتلة الذين لم يُعنوا كثيرًا بإخفاء أمرهم، تركوها ترجع وحيدة إلى البيت. بقي الأمر مع ذلك سرًّا.

كان سمير بو علي راقدًا على وجهه فوق التراب الجافّ. قليل من تراب ناعم وشفّاف على كمّه وذراعه الممدودة، وعندما قلبوه وجدوا أن ثمة من أطعمه ترابًا في فمه وأنفه. كان واضحًا من الأثر أنهم جرّوه على وجهه مسافة على التراب.

لم يكن اصطياد سمير بو علي صعبًا. لكنهم فكروا فيه متأخرين بعد أن يؤسوا من مصطفى بو غانم الكهربجي وحسين عوض والأستاذ. حين أمسكوا به لم يقاوم وسار بينهم تحت الأشجار. لدى خروجهم من الشجر وقعت الشمس في عينيه فلوّح بكمّه أمام عينيه ورفرف قميصه الحريري الأبيض. كان شعره عاليًا مردودًا إلى الخلف بعقارب على صدغيه وجبينه وعنقه. بقي ساهمًا لكنه رمق حواليه بطرف عينه ولمعت نظرتة اللعوب والأسرة. كان أطول قامة لكن شبهه بعزيز لا يخفى.

لم ينشأ سمير في الضيعة. جاءها من كوناكري وصار بسرعة «فاتن» الميدان. لم يكن له رأي، وقلّمًا يناقش بل يتسم ويلوّح بيديه ويفعل كما يشاء. عطره ولمعة شعره وقميصه الحريري الذي يرفّ حوله وبنطلونه الضيّق وخاتمه الذهبي وكاسيتاته الأجنبية، كل ذلك لم يمنعه من أن يكون قريبًا من الأستاذ ومن حسين عوض المتجهّم بوجه خاص. وحده

صادق العسال لم يكن يطيقه، وبدون أن يكون له موقع في التنظيم، صار شريكاً في كل شيء.

لم يمنعه سحره من أن يكون بلا رحمة. يذهب معطراً وأنيقاً لكنه لا يتردد لحظة.

انحدر معهم ناحية النهر، وحين اقتربوا من كهف خرج لهم نواف مع اثنين من جماعته. رآه سمير فارتجفت شفته. جمد في مكانه لكنه لم يانع. حين دفعوه إلى الكهف وتركوه في وسطه، هرب إلى الداخل لكن رصاصة رمته أرضاً. بعدها تقدّم نواف بخطوات غير مسموعة من حذائه المطاط وأفرغ في رأس الجريح رصاصة. لم يسلم دم كثير. زاد فم سمير بو علي إطباقاً، لكن وجهه، حتى بعد أن جُرّ طويلاً على الأرض، لم يتشجّع.

لم يمت وهيب فوراً. بقي يتلعلل أسبوعاً كاملاً على سريريه. لم تكفه سبع رصاصات اثنتان منها استقرّتا في عنقه ومعدته. ظلّ يشفط الهواء بشهيق عال ويعيش برئته وحدها. علم الجميع طبعاً أنه اختلف مع حزبه بعد حادثة علي ماضي. وتُرك بلا حراسة في الديرة القفراء التي بنى فيها بيتاً انتقل إليه منذ شهر واحد. كان فيه مع ابنه الأكبر وحدهما. هجرته امرأته القديمة مع أولادها منذ انكشف أمره مع الجديدة ولم تغادر الجديدة بيتها. استعان بابني أخيه وأقاربه الذين اختلفوا أيضاً مع الحزب. هؤلاء

يتوافدون إليه في أوليات المساء عادة وقلما يخلو البيت من واحد منهم في النهار. لكن الأمر جرى في العصر وصادف أن لم يوجد سواهما. كان أكل وشرب ونام القيلولة، حينما أيقظه ابنه. وقفت سياراتهم خارج السور بصوت مخنوق، وسمعهم ينزلون مع أسلحتهم وتفرق خطاهم حول البيت وينادون بأصوات عالية.

عجل في إحضار كلاشنكوفه ورمى على الباب. زاد تصايحهم وحركتهم «وقاف هون، زيح من هون. ابعده عن الباب. ما تطلع قلتلك. ما تطلع انظر شوي». رمى مجدداً على الباب وفعل ابنه مثله. جاوبتهم طلاقات كثيرة من وراء السور وارتفع صوت آمر:

- خلص يا الله ولا رصاصة.

هدأ الرصاص تقريباً لكن حركتهم لم تسكت وإن خفت. خاف من الهدوء فأطلق بغزارة وابنه معه. انتبه أن ذخيره تنفذ فصاح بابنه أن يقتصد في الطلاقات. هدأ الجو. طلقة بين اللحظة واللحظة. ماتت الحركة في الجهة المقابلة. شعر بالخطر. عاد إلى الإطلاق الغزير في الهواء وعلى الباب الذي انفتح فجأة بعد أن طار قفله ومزلاجه وانثقب من كل مكان. ارتعب وهيب وهو يرى الباب مشرعاً. ظل يطلق بجنون على هذه الناحية، بجنون ويأس. سمع الضجّة تعلو من جديد وتتجمع في جهة واحدة خلف السور. أخذ يطلق بدون تحديد. كانت ذخيره على وشك النفاد وزاد يأسه. ترك ابنه يبدّر الطلاقات. ولم يطل الأمر. قفز عشرة مرّة واحدة عن السور وحصدوه

برصاصهم. هرب ابنه باتجاههم لكنهم أمسكوه. أمرهم منعهم من أن يجهزوا عليه وكان ينزف من رصاصة في الكتف. صرخ أمرهم بثبات: - اتركوه.

تركوه فعلاً وهرب. لكن رصاصات كثيرة مرقّت من فوقه. سقط على الأرض وسمع ضحكهم وصوت أمرهم. انتظر قليلاً وعاد فنهض، لكن رصاصة كوّمته هذه المرّة نهائياً على الأرض.

الميدان

كنا نمرّ جنب المخيم ولا يخيفنا أن نرى الدخان لا يزال يصعد من وسطه، فالمدينة التي يحيطها من أربعة أيام زّار من القصف آمنة في الداخل. نظرنا غالباً بلا رحمة إلى ما ينزل بساكني المخيم الفلسطينيين، كأنه مجرد عقاب. عاشوا دائماً تحت الخطر حتى بات تقريباً وباءهم الخاص الذي تتجنّب. لم يستمرّ هذا. في اليوم الخامس وقعت قذيفة عند الفجر وسط الشارع. وقعت أخرى عند الضحى وسط السوق. ووقعت الثالثة في حي سكني فقتلت ابنة بائع البوظة. بدأ الناس يتراجعون بالتدريج ويسلمون بالخطر بوصة بوصة. تعودوا أن يحتموا من القذائف بأي سقف كما يحتمون من المطر. نزلوا من الطوابق وتجمّعوا في مداخل البنايات. وحين حلّ الغداء أكلوا جميعاً على طاولة واحدة. نغل الحي بهم. لم يطل انتظارنا على كل حال. حوّمت ثلاث طائرات عن قرب وأهالت في الفضاء غباراً تحوّل إلى غمام ملوّنة اتسعت بقعها إلى أن فقدت حدودها. ضاعت في السماء برهة ثم امتلأ الجو فوقنا بعاصفة أوراق أخذت تخطّ على مهل. كانت تنبئ بأن الجيش الإسرائيلي في الطريق إلينا وتعلّمنا كيف نتصرف عند

وصوله. ارم سلاحك فورًا وأدر ظهرك إلى أقرب حائط. كانت مكتوبة بعربية صحيحة، لكنها ليست عربيتنا تمامًا، عربية أجنبية تقريبًا، لم تجعل الكلام أقل دقة بل جعلته أكثر سلطة. ما كان بوسعنا أن نلعب مع كلام لا نعرف كيف ننطقه. غريب ومكسر كأنه وُجد ليحكم فقط.

قرأت القصاصة. سيأتون بدون شك ما داموا قالوا إنهم آتون. كنا، بمعنى ما، ننتظرهم كما ينتظر المرء، بصبر لا يتعب، أحداثًا مقدرة. كانت القصاصة نذيرًا بحدث قضينا حياتنا في انتظاره. وأخيرًا سيأتون. لم أشعر بشيء. ما حصل كان في جسدي. توترت كل عضلاتي دفعة واحدة. وبات كل عضوفي محصورًا إلى حد لا يطاق. شعرت أن كل عضو في جسدي يعمل تبعًا لحركته الخاصة وإرادته. بات جسدي آليًا كَلَّه وغدا للأطراف خاصة هذه الحركة غير المسموعة التي للقلب والمعدة. كان هذا فوق طاقتي. أخذت أتمشى في فناء المدخل غير منتبه للأحاديث التي نشأت بعد قراءة القصاصات. لا أعرف ماذا أفعل غير ذلك بهذا الجسد الممسوس، وكيف أفعل لتصريف هذه الطاقة التي احتشدت فيّ. فكرت أنني لن أتخلص إذا لم ألق نفسي تحت العجلات. لم أشعر بأنني تخلصت على كل حال، لكنني نسيت فقط في الحديث والاستعداد للملجأ.

زين الذي كان مسؤولًا عسكريًا في أحد التنظيمات قدّر أن بيته أكثر أمنًا من الملاجئ التي لم تكن أساسًا سوى طوابق أرضية أو مستودعات في مبان قيد البناء. بقيت معه. أغلق زين الأباجور وفرش على الأرض

بساطاً ووسادة، فيما استلقيت أنا على الكنبه وبدأ القصف. أغمض عينيهِ
وبدا قادراً على النوم. لم أكن بالطبع قادراً مثله. اقتربت القذائف إلى أن
دوّت واحدة شعرنا أنها سقطت في أرض الغرفة وأضاءتها بالنور الأحمر
الوهّاج الذي سطع به خشب الأباجور. لم أشعر إلا وأنا على الدرج
المنحدر إلى المستودع. على الدرج التقيت ندى، كانت طالعة مسرعة. لم
أنتبه، إلا وأنا تحت، أنها قالت بصوت عال:

- بيبي. مش لاقية بيبي.

تركتها تصعد وحدها. خجلتُ، حين وصلتُ إلى كعب الدرج، من
أن أبدو جباناً أمامها. صعدتُ بعد وقت أبحث عنها. لم أجدها في الملجأ،
رأيتها في الطابق الأرضي لبناية مجاورة. كانت على طراحة بين النساء
الكثيرات اللواتي بدّون متشابهات، ولم أتعرف إليها بسهولة. حرصتُ
على أن تراني قربها. الأرجح أنها رأتني ولم يبدُ عليها أنها أحسّت بي. تلاقى
الجميع بالتدريج في المستودع. كنا في بطن البناية. تراب رطب وصفرة
ضخمة بدت في الضوء الضعيف للمصابيح عميقة أكبر من الحقيقة، بل
ظهرت أطرافها ضائعة غير مرئية. كانت الظلمة تنحل رويداً في ضوء
المصابيح الذي يخالطها وتتكثّف إلى أن تتحوّل إلى ضباب وإلى دوّامات
غامضة تدور على نفسها وتتحرك في عمق غير منظور. توزعت في الأنحاء
جماعات جعلها لونها الفحمي وسيولة أشكالها أشدّ ظلمة من الليل الذي
يحيطها كالكسوة. كأن كلا منها جعل من الليل حجرة، فبدا القبو مليئاً

بهذه الكوى التي تلعب بينها سيولات عتم ودخان وضباب. كان هذا القاع الرطب مسكوناً بخيالات ووجوه زرقاء ونحاسية غريبة، كأنه أحد الأمكنة الأولى للإنسان.

كانت ندى فجأة أمامي في جمع من قريباتها. محاسن كالعادة تلوح بذراعين واسعتين ويعلو صوتها. ليلي متهاوية على صدور الجالسات اللواتي توقفن عن الترويح عنها ونسيتها في أحاديثهن. إنه جزءها العادي الذي ترمي نفسها فيه بصورة أقرب إلى اللعب. مع ذلك ترفع رأسها من وقت لآخر لتشارك بكلمة في الحديث، ثم ترخي أجفانها مجدداً. ندى تضحك كثيراً لمحاسن التي تشير إلى ليلي بإصبعها وكأنها تدلّ على شيء فيها. جنبها نجوى زوجة رائف التي تشمّع وجهها وترقق كأنه ذاب من داخله. كانت وحدها تماماً، لا يكاد أحد يلحظ تحشّبها.

وقفت في المدخل أنظر بدون هدى إلى الجالسين. أنتقل بدون قصد من صورة إلى صورة. أرى ندى، ثم تغيب عن عيني لأراها بعد قليل في جمع آخر وسط عائلتها، طعان وأولادها، على الأرض. لم يكن ثمة اتصال. فقط صور تلمع في أمكنة مختلفة كأنها في شريط سينمائي. فجأة خلا المكان من الأصوات، صارت الصور صامتة تقريباً. محاسن هدأت حركتها وليلي متخشّبة جنبها وزهرة نائمة في الوسط. ندى على الأرض تحيط قدميها بيديها وطعان كالعادة سادر في سحبات دخان سيكارتته، حتى الصغار تبعوا أو سكتوا. لاحظت رجلاً طويلاً واقفاً جنبها. أعرفه لكنني لم أشاهده

يومًا عندها. قدّرت أنه جار من الحي القديم الذي غادروه من زمن. أحببت أن أفتش عنها في الظلام، أحببت أن أكون الوحيد الذي يفتش عن امرأة في هذه الساعة.

إنها الثالثة غالبًا. دعا التعب الأكثرين إلى أن يستلقوا. كانوا يتمددون كيفما اتفق. استلقت ندى وفردت عليها شرشفًا. الأرجح أنها دعت الرجل الطويل إلى أن يستلقي جنبها ففعل ودخل وإياها تحت غطاء واحد، فيما كان طعان دون غطاء يستلقي جنبها في الجانب الثاني. رأيتهما هكذا دون غيرة، لكنني أحببت كثيرًا أن أكون معها تحت الغطاء.

صعدت ندى في فترة هداً فيها القصف إلى البيت لتحضر أغطية. صعدتُ معها وفي بالي كيف خذلتُها، حين تركتُها تذهب وحدها للبحث عن أبيها. دخلنا معًا البيت. كانت الأغطية محفوظة في التختية فطلبت مني أن أساعدها لتعربش إليها. وقفت على أطراف قدميها وأمسكت حافة السدة بكفيها ورفعتها أنا بكلتا يديّ، ثم عربشتُ وراءها. ها نحن معًا في التختية بين الحقائق والأغراض، لا نكاد نجد مكانًا لأنفسنا. كانت تختية نظيفة جدًا كأنها معقّمة، صغيرة بالطبع كأنها علبة أوبيت للدمى. لم أشعر أنها نظرت إليّ. لكن في علبة كهذه لم يكن ذلك ضروريًا. كنت بحاجة إلى أن أتأكد أن ليس ورائي ستمتر واحد من الفراغ، وأنا صرنا بدون أن نرى بعضنا، بل بدون أن نحتاج إلى ذلك، متماسين كأننا ولدنا معًا. أطفأنا. وما إن صرنا على أرض البيت، حتى وضعت الأغطية على يديّ.

سألتها إذا كان لديها مهديّ. قالت: لا، لكن ليلى لديها بالتأكيد. جلبت لي منها حبتي «ترانكسين». كنت الآن معها. طعان غافٍ وهو جالس كأنه لا يحتاج إلى أن يتمدد لكي ينام. فرشت الغطاء ورقدت تحته. قالت لي تعال. رقدتُ وأغمضتُ عينيّ. كان القصف الجوي عاد بانتظام، يبدأ بعيداً كصوت عجلات تقلع ويتضخم فوراً كأنه بلغ قوس السماء في اللحظة التي يقع فيها الانفجار. نسمع فوراً من الناحية الثانية الونين يتضخم بسرعة خيالية وهكذا دواليك، مرّة بعد مرّة. لم يكن لذلك نهاية. كأن الثواني تنفجر وسط السماء وعلينا أن نسمع الانفجار بانتظام دقائق الساعة، الانفجارات التي هي تماماً فوقنا. ربما تهبط سقفاً بعد سقف، ولا بدّ أن تصل إلينا. أيقنت أنها لا بدّ أن تنفذ إلينا في لحظة ما. أيقنت أنني لن أنجو.

لم أتوتّر مع ذلك. كانت ندى في الجانب الثاني من الغطاء. لم أطمع في قرب أكثر لكنني أعلم أنها موجودة في الجهة الأخرى. موجودة بدون أن أسمع لها نفساً. أو أتنفّس لها رائحة. بيننا تلك المسافة التي لا أطمع في تحطّيتها، باقية لا تتغير وأنا أبلع فيها. كانت فراغاً سعيدياً يحضر وكأنه شخص ثالث بيننا. سلّمتُ أنني لن أنجو. مع ذلك أخذت تتوارد عليّ من الترانكسين صور مبهمة، لكن ملوّنة: بنفسجي رطب وأخضر معصور وأصفر شمسي. لوحات أصنعها بسهولة فائقة. كانت موجودة في رأسي ولا أحتاج أن أستدعيها. كان شيء فيّ يضخّ هذه السعادة، يضخّها جنب الموت الذي هو أيضاً حفرة في رأسي، أنحاشي النظر فيها. كل ذلك كان موجوداً قريباً جداً كأنه على عدسة عيني.

قامت ضجّة وتدافع أشخاص إلى الدرج. علا هدير موتور وتدفّق نور سيارة. دوّت قذيفة وانطفأ النور وعادت الخطوات تتدافع نزولاً. مات الأب الذي كان جالساً غير بعيد بيني وبين أبنائه وكنّاته وأحفاده، عادوا به وأرقدوه وسطهم. فكرت في عبارة لسان جون برس لست أكيداً من صياغتها (نام الموتى والأحياء معاً).

بدأت الظلمة تحفّ ومضى الليل وانكشف فجر رمادي وسخ. وصل رهط من صبايا وشبان وصغار إلى المستودع. الصبية التي هي أسرعهم إلى الكلام أخبرت أن الملجأ دُمّر عليهم، أبو حسن جعفر توفي. كانت هذه هي الأخبار الأولى.

نظرت إلى الميت وسط عائلته، كان كالنائم. لم يتغير شيء في وجهه المربع. حتى حلقة الشعر الرمادية لا تزال للماعة على جبينه. يرقد تقريباً على جنبه، والسير يكثر بالقرب منه، دون أن يظهر في ذلك أي مفارقة. الطائرات لا تزال تطلع وتهوي بانتظام الساعة. شعرت بأن في فمي ما يشبه طعم الوحل. كان الطعم ذاته موجوداً في نفسي وفي الفجر. انتهت مكابدات الليل وليس هنا الآن سوى هذا اللغو الماصل وذلك التفل الأسود على الأرض.

هدأ القصف ومات. لكننا لم نتحرك من أماكننا. أطلّت علينا امرأة وقالت إن المعركة انتهت. الإسرائيليون دخلوا ودعوا الجميع إلى السير صوب البحر. تدافعوا صعوداً، والتفتّ قبل أن أصعد عن يميني. كانوا لا يزالون، والميت وسطهم، ينظرون بحيرة إلى الصاعدين، وقريباً منهم

السلاح الذي تركه نواف وجماعته حينما مروا وودّعونا عند الفجر.

جعلت أعرج في مشيتي وأبتعد عن ندى وعائلتها بمقدار. أحببت أن أبدو أعرج، وطالما أحسست أنني هكذا أشبه نفسي أكثر. بدا الشارع هزيلًا وسط الرمال التي تذرّت على جنباته وأوساطه وبار بها سواده. على طوله جمعات مشرورة تتقدّم قطعًا متفرقة تتحاشى أن تتراصّ. جمهور ممزق بل فلول يرفع بعضها خرقًا بيضاء ويسير خلفها. في الأيدي أشياء مصرورة أو خارجة من أكياس. ينجرون متجاورين في خطوط متعرجة متقطعة صامتين في الغالب وبلا مبالة. لم يلق مشهد نساء منفردات يلوّحن بأيديهنّ ويصرخن في وجه السماء انتباهًا من أحد. كان صمتًا لا تؤثر فيه الأصوات، ويبقى بالرغم منها صلبًا ومديدًا.

دخلنا من ذلك المبنى الذي كان في يوم ما استراحة واستحال نوعًا من بوابة للشاطئ. لم نتوقف. نفذنا إلى الرمل. لم نجد على الشاطئ جنديًا واحدًا. فقط خمس دبابات راسية. وقفنا قربها ولم نجرؤ على أن نتجاوز أكثر. أخذ الوافدون يدخلون في الجمع الذي بدأ يتراصّ ويتحوّل شيئًا فشيئًا إلى حشد صلب أخرس. حصل ذلك بصمت. والقوة التي تشكّل بها أشبه بالقوة التي تعمل في جدار. كان ذلك حاصل جمع هائل لغياب الإرادة.

في الدبابات، التي كانت مدافعها مصوّبة في اتجاهنا، لم نر سوى رؤوس في خوذات. ما كان ممكنًا مواجهة عيونها، فهي وراء زجاج الدبابة ووراء

العدسات المكبرة السميكة بلا وجوه. كانت قُبالتنا رؤوسًا ضخمة على أجساد ضئيلة ضامرة في الدبابة، كتلك الرؤوس الضخمة التي تعلو تماثيل بدائية، وكأنها تجسيد قزمي للقوة. لم نكن خائفين ولا مضطربين فللدبابات الخمس حضور متقشّف وصامت لم نستطع تجاوزه، وحاكيناه بقتل كل صوت في داخلنا. لم نسمع شيئاً من هناك. حتى حاجاتنا البيولوجية امتثلت فلم نشعر بحاجة إلى الشرب أو التبول. الليلة التي قضيناها في الملجأ سوّتنا بالأرض، وكنا على سويّة التراب حين وصلنا.

طال وقوفنا دون أن نحسّ ضجرًا. فالزمن مرّ علينا كما يمرّ على الرمل والأمواج والحجارة. كنا هكذا دون انتظار، ولا أعرف كيف بلغنا أمر بأن نقرب من الدبابات فاقتربنا وضاعت الدبابات بين الجموع التي أخذت تطوف حولها كالحيج. لا أعرف كيف بُلّغنا أن يفترق الرجال عن النساء، ولا كيف بُلّغنا أن تبقى النساء ويتابع الرجال التقدّم إلى الشاطئ. سرنا جميعًا بهذا الأمر غير المسموع، وبقوّة خمس دبابات، مضينا في سيرنا البطيء على أرض الشاطئ دون أن يخطر لنا النظر إلى الخلف.

شعرت فقط بمقاومة الرمل الرطب والمتماسك لطريقة حداثي. بلغنا أول الموج وصرنا نخوض في الزبد. كنا في عرض هواء البحر وضوء الظهيرة الذي يلعب على طول لسان الشاطئ. أحياني قليلاً هذا الهواء الحارّ، شاعرًا أنني أتلخّص بذلك من قساوة ثيابي التي غدت ثقيلة بنوم الملجأ ورطوبة تراه. لاح لنا رتل دبابات وسمعت دويّ انفجارات مكتوم. كان صوتًا

ينتهي بشبه اختناق ويتبدّد كأن الرمل يمتصّه ويمتصّ معه كل صوت آخر. كنا وراء الدبابات التي تقصف المخيم المقابل، نوعاً من جدار بشري لحمايتها. فجأة رأيت ندى جنبي. أخذتني من يدي وأخرجتني من الصف. أخذت خطواتي تنغرز في الرمل الجاف وأنا أتبعها عائداً.

جاءت دبابات كثيرة من جهة الرمل مسرعة ووقفت بنظام خلف الدبابات الخمس، تبعثر حولها شبّان تغلّبوا على صمت الجنود الذين فيها وتبادلوا معهم إشارات وكلمات. كان بعضهم يلكن بالعربية متوقعاً أن تكون هذه لغة الإسرائيليين. انتشرنا في العراء وجلسنا على بُسط مُدّت على الرمل. رأينا الدبابات بعد وقت، تنتظم أزواجاً خلف بعضها البعض وتخرج ببطء من خلف الاستراحة وتنعطف إلى الشارع. رأيناها من حيث كنا مجتمعين على الرمل، تتابع إلى الشارع إلى أن تبلغ أطراف المدينة. تتوقف هناك وتتوزع على نصف قوس وتبدأ برمي مركز على أول بناية تواجهها. رمي منتظم: واحد، اثنان، واحد، اثنان، انتظام الخطوات العسكرية.

كان هذا -أكاد أقول- شيقاً، أن نرى، ونحن في أمان تام، الحرب نفسها التي دوّختنا البارحة. لم تجب البناية. كانت مجرد بناية حمقاء وقييحة من تلك البنايات التي طالما كرهتها. أخذت الدبابات تصيب تماماً حيث توقّعنا وكأننا نحركها بأيدينا. وقوفها الآلي جعلني أفكر في ذلك. تحرّكت الدبابة الأولى وتبعتها الأخريات وانسابت جميعاً حتى بلغت المستديرة وانعطفت إلى شارع منخفض، رأيناها تتوغل فيه وتقف أمام بناية ع.س،

أقدم بناية في أقدم أحياء المدينة الجديدة. بني يوم لم يكن الشاطئ قريباً إلى هذا الحد، وبدا مع ذلك مذعوراً من أن ينكشف للبحر فأدارت مبانيه ظهورها للشاطئ وكأنها تقف جداراً دونه وأطلت بشرقاتها على الشارع. بدأت الدبابات ترمي على البناية. كنا نرى ذلك وكأنه في لوحة صينية. لم يخطر لي أن المدينة مكشوفة إلى هذا الحد، وبوسعنا أن نتابعها شارعاً شارعاً كأنها على شاشة كبيرة. بدت لي من هنا مبنية في استديو، وبدا البحر عازلاً ننظر منه إلى المدينة كما ننظر من زجاج. طارت شرارة من بناية ع.س. واندفعت النار.

بدأت أشعر بضيق وكأنني أطرد عني ذكرى. لم أشعر في يوم أنني أودعت شيئاً من حياتي هذه المدينة التي عشت فيها كل عمري تقريباً، فهذه لم يوجد فيها محل يقترن بذكرى. عشت بدونها تقريباً، ليس لديّ فيها مكان مفضل أو خاص. ولا أُميّز فيها بوضوح بين بيتي وبيوت أصحابي، وربما لا أُميّز بين نفسي وبينهم وحياتي وحياتهم. لم أكن واعياً للشيطان المقشورة ولا الرائحة التتنة. اعتدت ذلك حتى أنه يملأ رأسي بالتأكيد. إنها رائحتي وشبكية عيني. رأيت جيوشاً من الذباب، وتنفست كثيراً من روائح السمك المتعفن، ولن أرى أو أتفّس بعد دون أن يكون أثر من ذلك راسباً في رثتي. ربما لذلك تبدو لي ذكرياتي هنا عائمة مبهمه كالأحلام. كأنها ولدت على الماء. باختصار، لا حاجة بي إلى مدينة ويمكنني أن أتذكر -هل من حاجة إلى التذكر- بدونها.

مع ذلك شعرت بحرق وأنا أرى الدبابة تقصف. حرق استعصى فوراً

في رأسي. لم أعرف له سببًا، لكنه لم يأتِ بالتأكيد من الشمس والتعب. سرى في الجميع على الأغلب شعور مماثل. انتشر بسرعة أن بيار ضومط لا يزال في المدينة يرمي على الإسرائيليين. بعضهم قال إن بلال الفلسطيني هو الباقي. قالوا أيضًا إن جماعة من الجبهة الحمراء رفضت الخروج. كانت لدينا الجرأة لنفكر في ذلك ونتكلم هكذا. بيار ضومط وحده، يرمي وحده من نافذة إلى نافذة من مبنى إلى مبنى، كأن المدينة قطعة واحدة، النار تدفقت من النافذة وشبحه خلفها وخلالها.

مالت الشمس وصرنا في الظل، ولا تزال الدبابات تتغلغل وتبتعد في الليل. كانت شُعل صغيرة لا تزال في النوافذ. سمحوا لمن بيوتهم في أطراف المدينة أن يعودوا إليها. ذهبت مع ندى والعائلة إلى بيتها. حين رجعنا صباحًا متحممين حليقي الذقون، كانت السيارات، على جنب الطريق المؤدية إلى الاستراحة، مموسة تمامًا فقد ركبتها الدبابات في طريقها.

لم نصدّق حين أقلعت بنا الشاحنات باتجاه الحدود. أيقنت أنني لن أعود. كان هذا بالتأكيد شعور الذين أرخوا أنفسهم على حاجز الشاحنة باكين، ورموا هوياتهم خلفهم. لن أعود. شعور جعلني في لحظة مجرّد جسد للتوسيع والإهانة والتعذيب والسقوط بعد ذلك جثة في حُفرة. جسد للعطش الهائل الذي كسحنا فبقينا أيامًا نشرب من الفتحة الكبيرة لغالون العشرين لترًا ونصارع على الماء ولا نرتوي، كأنه موجود في جذورنا. جسد للعمى الذي

صرنا إليه بعد أن عصبونا في كريات شمونة، بقمصاننا أحياناً، وسيرونا في قطارات، يدا الواحد منا مكبلتان بقيد بلاستيكي يحزّ العظم. كنت وراء رجل يجزّ رجلاً خشبية. خضعنا لصوت يقول لنا بلكنة «امش، اوقف. فيه درجة قدام، اقعد على ركبتك، كل من إيدي...». تحركنا كالروبوتات، سمعنا من كل مكان نباحاً. كنا عمياناً ونتقدّم وسط الأنباب.

خفت كثيراً من التعذيب. لم يعد لي طاقة على أن أكون مجدداً لعبة قسوة الآخرين. كانت البوادر واضحة. اصطفوا على مسافات متباعدة وتداولونا بالعصي لنركض كالقطيع إلى الباحة. تركونا ساعات قاعدين وأجسادنا مصلوبة بعضها على بعض كأنها في ملزمة.

منعونا من الذهاب إلى الحمام بعد نهار العطش، وحين سمحوا لنا وجدنا السطل الذي تسبح فيه بقايا الآخرين. حملونا بعد ذلك إلى خلاء غير ممهد ورأينا الجرافات تمهد لنا شيئاً لا نعرفه والهاكل منصوبة في العتمة أشبه بآلات تعذيب. فكرت مجدداً أن أهرب أمامهم إذا حان الوقت ليطلقوا عليّ. كان الموت خلاصاً هذه المرة وفقد كل رهبة ميتافيزيقية.

بقينا أياماً تحت الشمس التي دخلت كلّها فينا. ذهبنا للتحقيق بعد التحقيق. ثم كان الاحتفال. وقفنا على ربوة وخلعنا ثيابنا كلّها أمام الجمعات المتناثرة تحتنا، ورشنا ممرضون بثياب بيضاء في عاناتنا وأباطنا وبين أردافنا. استحققنا بعد ذلك صحن تنك مطعّجاً وبسطارين ثقيلين وحرامين وثياباً مرقطّة وحبّتي بندورة وخياراً. انتقلنا سعداء إلى تلك الناحية من الخلاء

التي اعتُبرت اللجنة الحالية لغير المدانين.

لا نعرف أين نحن. تحتنا بحيرة وفوقنا ربوة قصيرة بلا رأس وأشجار خفيفة هابطة منها. نرى أمواج السجناء الآتية لتعسكر قربنا، ونشم صباحاً رائحة القهوة النفاذة من خيمة الحراس المنصوبة خارج السياج. نقضي حاجتنا في السطل الطافح حواليه، وننام ورائحته في أحلامنا. رفعنا بأنفسنا خيمتنا والعلم الإسرائيلي عليها. كان علينا أن نتأول الإشارات. لماذا نقلونا من العراء إلى خيمة، أحجية أخرى. لماذا تركونا نذهب إلى الحنفيات دون إذن. لماذا فتحوا لنا الحمامات وتركونا نستحم كلما أردنا. لماذا أعطونا قطعة صابون، ولماذا جاءوا لنا أخيراً بشفرات الخلاقة. هل فعلوا ذلك لأنهم سيستبقوننا طويلاً هنا. «ما رأيك يا أستاذ؟» يسألني سجناء معظمهم ممن ملته المنظمات الفلسطينية من القاع.

كنت دائم القلق. لكنني، دون أن أقصد، عشت على موجتين وأكثر. يعمل القلق باستمرار وأفكر مع ذلك في ابني. أراه قريباً وكأنه على عدسة عيني. أفكر دائماً في ندى في الليالي التي أُسند فيها رأسي إلى حذائي القلق وأنام صاحباً تقريباً، أو يكون نومي أشبه بشرود وسهو، لا أُميّز بين النوم واليقظة وتترأى لي أحلامي صاحبة. فكرت في ندى دائماً. في هذا العلن والخارج الدائمين حاجة إلى سرّ خاص، إلى بيت للحنين وإلى نذر غير محدود. السجناء يصنعون أصنامهم: حامل سيجارة من قش. سكيناً من حافة صحن تنك، وريقة متروكة، وحتى نظارتين لعبة فارغتين. أنا أيضاً

صنعت لعبتي الخاصة، وجدت اسماً أناديه.

كنت لأول مرة في حياتي متأكداً واضحاً. تكفيني أي حياة أي عمر،
مع هذه المرأة أقبل الحياة والموت معاً.

كان معنا المخبول الذي ينشد التواشيح ويصلي لأي قُبلة. المخبول
الآخر الذي سقط عن عينيه إطار النظارتين اللعبة الفارغ. المجنون الذي
هرب وعُثر عليه بعد ساعة وُضرب بأربع خشبات عريضة وتكوّم وحُمِل
ولم نرَ له بعد ذلك وجهًا. كان معنا النصاب الذي يقرأ الكفّ ويخطّ كتب
المحبة ويتبجّح بتهريب الكوكابين الألماني والتغريب بالثريات ولا يتكلم
إلا بسيجارة مدفوعة مقدّمًا، ناهيك عن اللصوص السير لانكيين الذين
ضوتهم فتح، والمخبرين طبعًا. سيرك واحتفال دائم. تعداد الصباح والمساء.
العقوبات، والأسرار، والإشارات.

بعد تحقيق ثانٍ، فقد البعض تبرئته، وتجددت براءة البعض. دعونا إلى
البوابة وسرنا جمعًا في طرقات وأفردنا في ناحية أخرى.

بعد ليلة لم نمها، أعطونا ثيابًا كاكية وردّوا لنا متعلقاتنا وأعادونا
معصوبين إلى ديارنا.

أخذوني إليها بمشاية وبنطلون كاكي واسع مربوط من وسطي بخيط
كتان. كانت تنتظرنني من الصباح، وحين خرجت من الحمام وجدت الصالون

ممثلًا بنجوى ومحاسن وزين. خرجت برائحة طيبة وجسد سعيد يتنفس بحرية تحت قميصي. النسيم والغسل يجعلان له نعومة ورائحة جسد آخر. حرّكت رقبتى بغبطة من ياقتي. لم يكن في قصتي قطار ولا حُجرات. ثلاثة أسابيع في خيم أشبه برحلة كشفية. لم أجد الكثير لأرويه. حضر رائف. وقف قلقلًا كطير بجع. عانقني بلا اكتراث وأخذ يخاطب ندى. جاء جعفر وحاولت أن أميّز أين يشبه عزيز. لم أكن ناجحًا في رصد الشبه. أعرف قريبة تجد شبهًا أكيدًا بين حذاء وصبيّة. جلس جعفر جنب نجوى التي منحته فورًا عينيها الخاشعتين كما هو شأنها مع مَنْ تصطفيهن ندى. مرّت ندى وسألته عن أبيه. أجابها أنه أفضل حالًا. كان راجعًا من زيارته. توجّست، لكن سعادتي جعلتني ضحلاً وخاملاً كشبر ماء، فطردت وسواسي.

في الصباح وجدت جعفر وصاحبه حسيب في مطبخها. سألتها بعد أن خرجا. قالت إن غرفتهما دمّرت ولم تجد بداً من دعوتها إلى بيتها. قالت هذا من وراء المحلى ويدها في الماء. زميلها ولا يجوز أن تتركه في الطريق. كان هذا كل ما لديها. وجدتُ غضبًا وتحرقًا داخليًا ولم أجد حجة. لم أقل إنها تكذب. لم أقل لها أن تطرد زميلها وصاحبه. لا أستطيع أن أقول شيئًا كهذا دون أن أبدو أبله غيور.

حين عدت إلى صور في بداية الأسبوع، وجدت جعفر وحده في مطبخها. ذهب صاحبه إلى زيارة جدّه في قرية حدودية. جلست ثالثًا لهما وأنا أغدّي إحساسي بأي مجرد ثالث. تركتهما يتحادثان بدوني تقريبًا. يتحادثان ويتراشقان

المزاح. تركتها تدفعه من كتفه بيد مبللة أو ترشقه من بعيد برذاذ يديها. لم أفعل شيئاً. تركت نفسي أغدو مبعداً أكثر فأكثر. حين خرج جعفر وتركني، شعرت بالتأكيد أنني غاضب فاحتاطت:

- ليش مكشّر، مبارح بصرتك بنومي.

تركت المجلى وجلست إلى جنبي. كانت مهمومة حقاً، واحدة من اللحظات التي تظهر فيها على وجهها أماراة العمر. لم تكن تعدت الرابعة والثلاثين، لكنها بعد تعب وغمّ يظهر على وجهها الخيال البعيد للأربعين.

- مش لوحذك مش طايقو. إمي قالتلي شو عميعمل هون. طعان مبوّز وما بيرد له المرحبا. شو بعمل. هوّي كمان حاسس وعميدور على بيت.

لم تعد لي حجة، جعلتني جنب طعان. هذا أكثر ما أخافه، أن أتحول إلى خامل آخر لا يفعل سوى انتظارها. جعلتني جنب طعان، مجرد عبء آخر. كوم لحم مفروض عليها. فعلت هذا بطعان وتريد أن تفعله بي. أحسست بتعب شديد. كان غضبي ثقيلاً على جسمي. لم تشعر. حملت الكوسى المنقور وجلست تملأه جنبي. جعلها هذا العمل الشبيه باللعب تسترخي، فصارت تحكي أخباراً من الحي. لم أكن قادراً على متابعتها، ولم تسألني بل رفعت صوتها بعد قليل بأغنية، وكنت حينها طعاناً آخر. أشعر بثقل جسمي وأغرق في لحمي. دخلت بعد قليل نجوى وجارات أخريات فانقلتُ بجسد طعان إلى الصالون وجلست معهنّ أشرب القهوة وأنظر إلى الجميع برأس بعيد.

ابتعدت. عليّ هذه المرّة أيضاً أن أبتعد، أن أعدّ أربعة أسابيع ابتداءً من صباح اليوم التالي، أربعة أسابيع كاملة كل يوم. كان عليّ أن أنتظر أربعة أسابيع كاملة كل يوم. هذا تقريباً عمل. أعمل في رأسي. أنام مهدوداً في العاشرة وأستيقظ في الواحدة ورأسي يعمل. الضجة تملأه. أبقى عينيّ مغمضتين حتى لا يبقى تحتها شيء فأفتحهما. الجميع نائمون والمدينة نائمة لكن الليل حيّ للغاية. إنه موجود كقوّة سائلة. أصحو أكثر حتى لا يبقى فيّ تقريباً نبض. أغدو نظيفاً من الداخل كزجاجة، مضاء من الداخل كمحطة. أحاول أن أقرأ، لكن ما في رأسي لا يترك لي لحظة للقراءة. إنه محطة تعمل. أتمشى ولا أستطيع أن أضبط خطواتي. الليل قويّ وحيّ وعليّ أن أغزله كما تفعل تلك المرأة في الحكاية بكوم القش. أغزل الأربعة أسابيع الموجودة ككوم أمامي.

بعد عودتي من الاعتقال انتبهت -ليس قبل وقت- أنني ارتحت من خوفي. كنت أتأرق وأنعمّ دون خوف تقريباً، دون خوف من فقدان النوم نهائياً، دون خوف من أن لا أرجع من كآبتي. كنت أبقى صاحياً كعظم. الأرق والغمّ يجعلانني غير محتاج إلى شيء، متكاملًا ومرصوَصًا كالمعدن. طوال أسابيع السجن بقيت في حالة كتابة، أفكارٍ تتصور وكأنها مكتوبة. أحدث نفسي بعبارات مطبوعة تقريباً. اعتدت الكتابة في رأسي حتى أنني حين قعدت أول مرّة إلى الورقة فزعت. تجربة السجن لم تتمّ بعد ولا تزال بحاجة إلى عمل إضافي، أمّا عذابي مع ندى فلم يكن من طبيعة أخرى.

حلّ مرّة واحدة وكأنه إرث. أخيراً اقتلعت أول كلمة وكتبت بقوة غلبتني. كنت أرى المراحيض والبواليع والفضلات وأدوات التعذيب مباشرة أمامي، وحين استفرغت قسوتي عثرت على شفقة مؤلمة، على لوعة أخافتني. تذكرت عزيز. كنت أول مرّة وحدي مع غيابه.

لم يكن ممكناً ردّ محاسن عن الضحك في هذه الساعة التي كان فيها «الغارسون» نفسه مقطّباً والطاولات القليلة مشغولة بصامتين يلجأون إلى جرائدهم وإلى فنجان القهوة الوحيد، الذي يبدو تعويذة لليقظة. أصرت على الضحك من ندى «المقزوعة والدلوعة». قلّدتها متكلّفة كسر نظرها وصوتها، ثمّ قالت لي إنها هنا. أبدت تعجّبها من أنني لا أعرف. صادفتها في المقهى، قالت إنها تنتظر زوجها.

قالت: ندى من يومين عند عمّها. الصبح كنا سوى. عملنا برمة بالسوق.

لم أجد ميلاً إلى رؤية زين في المقهى فتركتهما إلى الجريدة. كان مضى أسبوعان من الانتظار وأريد أن أتمّ الأربعة. لم أفكر أبداً في أن أقطع لأي سبب. لذا لم أقم وزناً لكون ندى تجنّبتني. بدا لي هذا موازياً لغيابي.

ندى هي التي نقلت في سيارتها نواف و خليل زوج بنت عمّها. لم تنقلهما

فحسب، بل دبرت أوراق الإذن بالمرور وسلّمتها لآخرين بدّلوا الأسماء التي عليها، ففي المخيمات الفلسطينية حرفة التزوير متقنة وهناك مَنْ يحسنون تزوير أي شيء.

أقام نوّاف و خليل في بيت كبير بقرميد أحمر وثلاث طبقات. بيت سياسي غادر البلاد ووضعت المنظمة يدها عليه. لم يكونوا وحدهم بالطبع. أقام معهم أربعة من كوادر المنظمة، نزحوا مع عائلاتهم من مناطق الاحتلال. اشتغل نوّاف كالعادة فوراً بتدبير المكان. يده ويد ناهدة زوجة خليل. ربّما الأثاث الذي عومل بقساوة وإهمال من قبل الذين سبقوهم. مدّ نوّاف سلّكاً كهربائياً إلى البستان وجعل في الأشجار مصابيح مضاءة وفي المساء نفسه اجتمعت العائلات الست حول الشواء.

غدا المنزل الكبير نوعاً من استراحة لأعضاء القيادة الشبان. لم يكن الأمين العام الكهل يتردّد كثيراً، لكن بقية القيادة تتوافد في المساء مع الزوجات والعشيقات والمرافقين. هكذا يتحوّل البستان إلى مقصف كبير في السهرة ويمتلئ بالأكليين والمتناقشين والمغنين والمازحين. جاءت ندى بعد إلحاح ناهدة ونوّاف. ليلة وصولها أعدّوا وليمة حقيقية، لم يفكروا في لون إلا وأحضروه وصنعوه. دعوا القيادة كلّها ومعها الأمين العام. أحضروا كل من له صوت أو فكاهة. ربّبوها تقريباً برنامج رقص وغناء وتقليد، وحتى اسكتشات صغيرة. فضلا عن ذلك، زيّنوا المنزل بالزهور والأوراق الملوّنة والبالونات وثبّتوا على المدخل يافطة كرتونية كتبت عليها

بخط مقبول «أهلاً بندق»، وحين أطلت ندى على الحديقة أطفأوا المصابيح وأشعلوا الشموع على المائدة وغنّوا لها، وجلست بينهم كالمملكة وهو أكثر ما تحسنه. استمعت بتفضّل وابتسمت للجميع ورقصت حين ألحّوا عليها بخفة طائر.

جاء الأمين العام برفقة الشخص الثاني في المنظمة، قال معذراً بأنها الظروف.

- بذلك تقعد وتسمع كل شي بالدنيا فيه هبل. لا عارف تستهبل وخايف يلقطو إنك مش أهبل. خلاصتو أهلاً ندى. ما صدّقنا إنو صور بتطلّع متلك. بعلمنا ما فيها إلا سمك وفول ونوّاف طبعاً.

أمّا الرجل الثاني في المنظمة فحنى قامته الطويلة بحركة مدرّبة وشال زهرة من باقة وقدمها بصوت أرقّ من العادة إلى «بطلة حقيقية». ارتبكت ندى، لم تكن مستعدة لتستمع إلى أنها بطلة، تصدّى نوّاف مازحاً:

- شو بيك فزّعت البنت. بطلة قال. الأبطال بيفزّعو فيهن الولاد، قول ست الحلوين.

كان قريباً منها. أمسك طرف يدها فتركها له. شربت الكأس الثانية وهي لا تعرف إلى أين تأخذها. رأت نوّاف منهمكاً بتدبير النار فاستدعته بنظرة منها. نادى واحداً يحل محله وجاء إليها. كان الأمين العام جنبها هو الآخر والكلام له من مدّة، والجميع لا يتنفّسون من شدّة الإصغاء. لم تكن

تصغي. كان الضحك يتساقط من الأشجار، والكلام يبتعد ويقترب بقوة الوميض الذي ينبعث من الجمر ويتلامح على أطراف شجرة الكوتشوك العريضة الأوراق. وكانت نفسها تأتي وتذهب مع النسيم والوميض إلى ما وراء الشجر. رأى نواف نظرتها ترفّ على وجهه بعيدة وقريبة. رأى هذا الوعد يوم حمل إليها خبر سمير بو علي، وأرخت يومها رأسها طويلاً على كتفه وهي تتنهد. نظرت إليه من أقرب، من بياض عينيها الذي تعكّر بالحمرة الشفقية ومن خديها الملتهبين وزمّات شفيتها وفتحة صدرها.

- هيئتك نعستِ قومي نامي.

رفضت بعناد. بدا لها قليل الحيلة إذا جازف بحملها إلى السرير أمام الجميع.

حين بقيا وحدهما تحت الأشجار، قال برقة:

- بدك تنامي.

وقفت ووقف. أمسكها من ذراعها لكنها أرخت نفسها عليه. سارت وهي معلقة بعنقه. كان الدرج عريضاً، وهو عند كل درجة يرفعها إلى الأعلى وذراعها حول عنقه، إلى أن يعود فيلتحم بها. هكذا يفترقان ويلتحم كل لحظة، وكأنهما إبان توالد طويل للرغبة. عند كل طابق يقفان متلاحمين، ويستديران هكذا على مهل إلى أن يجدا أول الدرج، حتى بلغا الطابق الثالث أخيراً، ونواف الذي خاف فوق كل درجة من أن «يصل» وحده «وصل»

فعلاً على باب المخدع. كان متوتراً، وعلى أمل أن لا يكون الأمر فاته تماماً بدا خشناً بل آمراً وهو يطلب منها أن تخلع ثيابها. انقبضت لكنها في لحظة الكرم هذه لم تأبه. خلعت ثيابها ورقدت على بطنها. أحسّت بخطواته قريبة وسمعت صوته.

- يللا ع النية...

لم تكن تكره هذا الكلام إذا خرج تماماً من المحل الذي يخرج منه العرق واللعب والمنى، حين يقذفه الفم كما يقذف الجسد هذا كله. لكنه قاله بغناء، بلهجة قريبة إلى اللعب، بنوع من الهزء مما يحصل

- يللا ع النية...

كرّر وارتمى جنبها. تركته يضع قبضته بين فخذيها. قبضته وكأنه يلكمها في فرجها. أو يضع بقبضته عضواً عملاقاً وهمياً. انقلبت على ظهرها فشعرت أنه لا ينظر إليها. كان تقريباً يتشمّمها. ارتمى عليها وحاول أن يدفع فيها عضواً صغيراً مبللاً. ساعدته بأصابعها. حاول أن يستعيد رغبته. حاولت أن تستمتع وحدها. لكنها لم تجد رغبة كافية. كلمها ودعاها إلى أن تهتم بمتعته. لكنها شعرت أنه لا يضع يده بل قبضته عليها. قبضته التي هي عضوه المزعوم.

سعت «لتصل» بأي شكل ووصلت أخيراً باستجابة بيولوجية دنيا. سرّى ذلك عنه فجلس وبدأ يتكلم كالمتنصر.

- هلكتيني شو هالمرا ما بتشبع من الني...-

لم تجب. وضع قبضته ثانية بين فخذيه. لم تقل شيئاً.

- يا عيني عليه.

قامت. ناداها.

- تعي بدناني... بعد.

قالت إنها متعبة. ذهبت إلى الحمام ثم إلى غرفة النوم المعدّة لها. حضر إليها في الغرفة لكنها قالت إنها متعبة. وضع يده في صدرها وبطنها لكنها لم تستجب.

في الصباح جمعت ثيابها وأصرت بأعذار كثيرة على أن تعود.

كنت وحدي عندما دقت زاهية. قالت وهي تمرّ «بدي قهوة» دخلنا متخاصرين إلى المطبخ وشربنا القهوة على مقعد واحد. بقيت تتكلم عن حياتها في دبي. لم أسمع دائماً ولم أكن واثقاً مما تقول. كانت بالساري الهندي ودائرة صغيرة حمراء بين حاجبيها. لا تزال ترتدي كممثلة وتستجّر النكات كمقدّم سهرة. كنا سعيدين معاً، ولم أدرِ بذلك إلا حين أغلقت عليها المصعد قبل أربع سنوات وتركتها تعود إلى زوجها. الحياة معها عطلة، دائماً في الشارع أو المقهى أو عند أصدقاء وإذا خلونا فلننام معاً.

كانت الثالثة من أخواتها التي أغرمت بها، ولو لم تضعني بنفسها في فراشها لما حصل ذلك. هي الآن بالساري النيلي تحكي عن بيوت بومباي وقصة حب أثيرية مع شاب هندي وأماكن لا توصف. كان سخيلاً أن أتحرى ما في كلامها. يكفي أنها تملك ما أفقده بالضبط: المخيلة. بسبب هذا الكلام بدأت أرى في زاهية شيئاً أجنبياً. كان طولها جديداً في الساري وكذلك صدرها تحت القماش الملفوف وفاضل الجلد العاري القمحي اللون عند البطن. كانت دائماً مبعوثة من مكان ما. عندما كنا نتردد إلى مقهى الأكسبرس، باتت فتاة الأكسبرس، ومن الصعب أن تراها دون أن تحس أنها آتية من مكان آخر. لم أشأ أن أجازف بتقيلها مبكراً. تركتها تتكلم على الكنبه وتتكامل في طولها وساريا ولونها القمحي. وحين ارتمت على السرير عارية واستقبلتني لم أكن في نظرها غير ما كنته دائماً، شعرتُ فجأة أنني مريض فعلاً بالعزلة في المطبخ وأني منذ وقت لم أتنفس كفاية ولم أفعل سوى الانتظار.

تمددت جنبها. لم تكن تنتظر شيئاً كانت تريد الفم الذي تعرفه، القضيب الذي تعرفه. الرائحة التي تعرفها. حين دخلتها بذلك العضو الذي لا أشك أنها سئمت منه والذي سئمته أنا نفسي، ارتفعت صيحاتها كالمعتاد، زغاريد أكثر منها صيحات. كانت تقريباً تزغرد. تطلق كرات طويلة كالحسون، أعلى وأطول من أي لذة. كرات تتلاحق فجأة وتتسارع ثم تسكت فجأة كأنها بلغت نشوتها. بقيت في موت قصير برهة ثم عادت ثانية إلى الصراخ

لتصل إلى نشوة ثالثة ورابعة. وأنا، أثناء ذلك، ترميني موجة لترفعني موجة. كانت هكذا نوعاً من معمل اللذة. لذة في حال توالد مستمرة ولا بأس من أن أكون أنا عطوباً سريع الانطفاء. كنا من قبل نُمضي ساعات هكذا. المخدع، ما إن تصل إليه زاهية حتّى يتحوّل إلى غرفة معتمة مع عازل للصوت. الجنس معها أكثره لعب ورياضة.

لم أكن مستعداً لزغردة زاهية. لم تكن لي قدرة على هذا الزفاف، الذي هو الآن فوق قدرتي. جعلت الأصوات تتوالى حتى ملأت سمعي وأرهقته، دون أن أستطيع مجاراتها. كنت تقريباً أتعثر تحت الأمواج. تبدو فكرة اللذة اللامنقضية سقيمة. بل فكّرت فجأة في ندى التي تنام غير واعية إلا لتنفسها، والتي ترمي نفسها بعيداً عني، بمجرد أن تصل.

قلت لندى إنني أنام مع زاهية. قالت إنها جميلة. لم تتركني أنهي الأربعة أسابيع. أرسلت جعفر ورائي. لم يقل ذلك، قال فقط إن ندى تفتقدني. لم يسبق له أن زارني. أرسلته بالتأكيد ودلّته على بيتي.

صرخت ندى ما إن وجدتني في الباب:

- مش معقول.

واستدركت:

- ما بدّي إحكي معك.

لوت رأسها غضباً وتراجعت من الغرفة وكأنها تهمّ بتركي فيها. أسرع
إليها وقبّلتها على وجهها الذي جذبته عني. قالت بضع كلمات عن الذين لا
يستحون ولا يعقلون. لم تجد لغيابي سبباً قالت. كان عليّ أنا أن أذكرها به.
عدت إلى لجاجتي المحزنة. قالت إنها لم تصدّق أنني غبت لهذا السبب.

- هذا شي انتهينا منو.

انتهت منه. لم تحتج إلى أن تكمل عبارتها. انتقلت إلى الحديث عن حرق
أصاها من الماء المغلي الذي سقط عليها «ركضت ع التّلج». سألتها إذا
كان الحرق في وجهها.

- وشي! بفضل موت على إئو يتشوّه وشي. لأ بفخذي.

وامتدت يدها إلى جلبابها فرفعته وأرتني أثراً ضعيفاً لحرق. قالت إنها
ذاهبة إلى تعزية وتنتظر نجوى ليذهبها معاً. قامت إلى غرفتها ولم تتأخّر.
عادت في ثوب أسود ملفوف على جسمها. لم يبق لي وقت لأفرغ لجاجتي.
تجعلني كالعادة أبعد كلّما تكلمت. كل هذا الكلام المكبوس في داخلي لم
تعد له مناسبة، استحال جفافاً. كل هذا الانتظار لا يدلّ على شيء. فقد
فجأة قوّته واسمه واستحال عطشاً. كنت أتكلم بعياء، كما لو كنت أجمع
حطباً. دقّ الباب وجاءت نجوى.

صعدتُ إليها في الصباح لأشاركها قهوتها. كانت لا تزال في مزاج
اليقظة مكمودة صامتة. صنعت القهوة وأخذتها من يدي، وهي لا تزال

على الكنبه في وسطها وعلى طرفها ووجهها إلى الأمام كأنها سقطت عرضاً هنا. جلستُ في مواجهتها. بقيت تشرب فنجاناً واثنين قبل أن ترتاح في جلستها. لم أنتظر أن تغدو مستعدة. كنت محتقناً بالكلام وبدأت أغضب. قلت لها هناك رجل آخر بالتأكيد. لماذا لا تقولين لي. لا أصدق أنك تفعلين ذلك إكراماً لذكرى. أنت تلعين بذكرى عزيز كما تلعين بي. لم تعاملي ذكراه بأفضل مما تعامليني الآن. كانت مستفزة «خلصنا»، تابعت متألمة. قالت بعناد إنها أحبتّ عزيز وحده ولا تستطيع أن تحب سواه.

- جعفر خاٲب إذا بذك تعرف. طلع من عندي، شو بٲرق إٲ عن طعان، شو بٲفهم أكثر منو. ما في ببالك إلا رجال تاني. شو بٲعرف عني.

قامت إلى غرفتها. عند الظهر رأيتها على الدرج خارجة. سألتها إلى أين؟
- ما بخصّك. زهقت منك ومن طعان ومن الناس كلّها.

ذهبت في سيارتها. أكلني وسواسي وجعلني أبحث عن سيارتها حيث انتقل جعفر وزميله. وجدت فعلاً سيارة تويوتا بيضاء اللون تحت البناية. عادت قبيل المساء في سيارتها فسألتها أين كانت قالت إنها ذهبت إلى البحر. رجعت إلى بناية جعفر فوجدت سيارة التويوتا إياها لا تزال تحتها. أضفت هذه الحادثة إلى العار الذي أربّبه بصمت، ولا يُبقيني هنا سوى أن أحداً لا يدري به سوى.

جمع حسين عوض عشرة فتيان من ملازميه وأقام مخفراً. جعل قيادته الحسينية أولاً، ولما احتجّ الشيخ والأستاذ مصطفى نقله إلى بيت غير مأهول في أول القرية. كان أحد مراكز التنظيم ولا يزال علمه عليه. أرسل فتيانه فجمعوا له حزبيي القرية مع نسائهم وأولادهم، فتركهم في الشمس إلى الظهر وكان يخرج إليهم من المركز كل ربع ساعة ليقول لهم بإشارات يديه وحركة رجله بأنه سيحطّم رؤوسهم. لم يكن نطقه نفسه سوى تحطيم للكلام وعنف على الألفاظ.

نزل إلى الصعبية. زاد فتيانه على العشرين والتحق به شبّان من الصعبية نفسها. بقي في الساحة وطلب من فتيانه أن يخرجوا كل حيّ في القرية. صرخوا بالناس من ميكروفون الجامع أن يتجمّعوا في الساحة «واللي ما بينزل بيعرف حالو». دار الفتيان بعد ذلك على القرية يطردون الناس تقريباً من منازلهم «اطلع من بيتك». أو يدقّون على الأبواب «اطلع من بيتك» ويركضون كالمجانين في دروب القرية بل صعد بعضهم إلى السطوح وقفز على الحوائط طارداً الناس بالصيحة نفسها «اطلع من بيتك» الصيحة التي لا يحاكون فيها لُكنة الإسرائيليين فحسب، وإنما أيضاً أصواتهم وتسكينهم الفجّ للحروف.

أخذ الناس يتجمّعون في الساحة والفتيان حولهم على حالهم من الركض. ينتقلون ركضاً من جانب إلى جانب ويدورون مسرعين حول الجمع وكأنهم يملأون مشيهم رقصاً. كانت النساء آخر من وصل مصحوبات غالباً

بالشيوخ. أخذوا يجادلون الفتيان ولا يردّ هؤلاء إلا بالشدّ على أسنانهم. ولما كثر الجدل واللفظ صاحت امرأة وهي تصل:

- يا ويلك يا حسين عوض.

قام حسين عوض من جلسته على كرسيّ وتقدّم ورفع سلاحه بأعلى يده ولوّح به من فوق الحشد فسكتوا. أمرهم بالجلوس على الأرض، وكان شيخ القرية آخر من جلس. بقي واقفاً يسمل ويحمدل ويشدّ أطراف عباءته على وسطه ويعدّل عمامته ويرفع جلبابه منتظراً أن ينتبه له حسين عوض ويعفيه. لكنه لم ينتبه فبسمل وحمدل وجلس.

جلسوا، لم يبرد حسين عوض لكن لم يؤاته أمر جديد بعد الجلوس. فرغت مخيلته. لو كان الإسرائيليون هنا لوجدوا مئة وسيلة للعب بالجمع. في الأساس كانت فكرة تجميع مدينة مستحيلة قبلهم. وحدهم يستطيعون أن يجمعوا مدينة في أي مكان ولو في فصل مدرسي.

تركهم يجلسون وهو يهرول أمامهم. في البداية كان يصوّب عينين قريبتين من الجحوظ إلى كل حسّ يسمعه. لكن الشيخ مع ذلك أخذ يحدث جاره، والكهول بدأوا يتحادثون ودار اللغط بسرعة بين النساء، وحسين عوض ساهٍ عن ذلك، إلى أن نهر أحد فتياته الجمع صارخاً:

- سكوت.

فأدرك حرج الوضع. قال له الفتى نفسه أن لا حاجة إلى الأولاد والنساء هنا فصرخ:

- النسوان، الولاد، الاختيارية يطلعوا.

خرجوا، لكنهم تجمّعوا على مقربة وزاد لغطهم، كما زادت حركة الأولاد ومنازعاتهم واندفاعهم من الحلقة بعضهم خلف بعض. فطردهم الفتيان من وسط الساحة وساروا خلفهم، لكنهم كلّما توقّف الفتيان توقّفوا قريباً منهم فيعاود هؤلاء طردهم إلى أبعد. وفي النهاية تركوهم يتجمّعون في أقصى الساحة على مداخل الزوارب.

اتّبه حسين عوض إلى شيخ البلدة أخيراً، فناداه «تفضل سيدنا» فقام وسوّى ثيابه وابتسم لحسين عوض وهو يجلس على الكرسي الذي حمّله إليه بيده. وبقي وسط الفوضى متلّلاً على الكرسي مخفياً وراء عدساته السوداء العاكسة، إلى أن أبعدوا الشيوخ والنساء فلم يدر ماذا يفعل، وغلبه الحرج ونسيه حسين عوض، فبقي مزروعاً مكانه. صرخ حسين عوض.

- اركعوا ولاه.

فركعوا إلاّ ابن الشيخ وجاراه اثنان وُجدا جنبه. بقي الثلاثة مستريحين على أفقيتهم، إلى أن لاحظ الشيخ، فصاح من وراء نظّارته:

- اركع يا محمد.

فرّكع ومعه رفيقاه.

جعل مشهد الراكعين حسين عوض أكثر هياجًا، فزاد تلويحه بكلاشينكوفه وهرولته أمام الجمع واندفع بكلام محطّم النطق لم يبق منه سوى عينات وحاءات راعدة وتأتأة مدوّية، ولا يفهم منه سوى أواخر جملة التي يجمد عندها فجأة، ولم تكن هذه سوى شتائم وتهديدات.

- شرموطة. روسكم. عكاريت. بإجري. بذبح. الله ما خلقكن.

استمر هذا وقتًا بدا فيه كأن الشيخ نام في الشمس والفتيان توقفوا حول الجمع والراكعين صمتوا بلا نفّس واحد.

فجأة وقف وقال بصوت أقلّ هياجًا:

- يا عكاريت مين قتل سمير بو علي. مين قتل. هلق بدي الي قتلوه.

تبع ذلك رشق من كلام غير مفهوم توقّف عند كلمة «بشنقكن. بشنقكن». واستمر يردّد «كلكن. كلكن... كلكن».

كان حسن بو زينب وعبّاس طرفة وعلي بو زينب وبقية شبّان المنظمة في بيروت. لم يبق منهم سوى فرخ ابن 15 سنة استمر يرتجف في مكانه. ظلّ الأمر هكذا إلى العصر. الرابعة تقريبًا، دخلت القرية عربات للجيش الإسرائيلي. ثلاث عربات توقفت في الساحة وخرج منها جنود انتشروا في وضع قتالي. تقدّم الضابط من حسين عوض وقال له:

- شو بتعمل هون؟

والتفت إلى الجمع

- يللا روجو ع البيت.

ملاً الجنود الإسرائيليون السوق. يدخلون إلى الدكاكين ليتفَرَّجوا لا ليشتروا، مبهورين بالوفرة التي وجدوها في المحلات والمنازل. تركوهم يتفَرَّجون وتندَّروا على كونهم يتفَرَّجون ولا يشترون. ما كانوا يقبلون منهم عُمَلتهم على كل حال، لكنهم أحبُّوا أن يروهم يشترون أشياء لا يملكون نقوداً لشرائها. وحين يرونهم فرادى على جنبات الطريق يستوقفون المارّة يحسبون أنَّهم يُنعمون عليهم بأخذهم في سيارات لم يعتادوا مثلها من قبل. لم نجدهم يستحقون خوفنا ولا خجلنا. كان في بشرتهم المحروقة ولا استواء ملاحظهم ولهجتهم الفلسطينية القديمة، التي لم تهذب من خمسين عاماً، ما يذكر بفلسطينيَّي الغور وأهل حوران الذين نراهم أدنى منا بدرجات.

عندما نزل ثلاثة بهدوء من سيّارة عاديّة واعتمدوا عليها ليطلقوا على عربية جندي إسرائيلية واختفوا بهدوء مخلفين في السيارة المصعوقة، التي لم يحرق سائقها حركة، قتيلاً وجريحاً. عندها اختفى الجند من الشوارع والأحياء وما عدنا نراهم إلا وأيديهم في أسلحتهم، من فوق الأبراج المحصّنة وفي عداد الدوريات المسلّحة.

إذا مرّوا في عربة سابقت الريح في سرعتها، وأجبروا السيارات التي خلفها على أن تبقى وراءهم بمسافة. قطعوا الأشجار من البساتين المطلة على الطرق. افتعلوا عجقات سير فظيعة تدوم ساعات. جعلوا الانتقال بين بيروت والمنطقة المحتلّة صعباً يحتاج إلى انتظار أيام، ومنعوا السير أياً ما على طرق رئيسية. كانوا في مراكزهم والخطر من حولهم. الخطر يزداد بمقدار ما كانت هناك حياة وتنقل وأسواق وأشجار وناس، لذا سعوا ليجعلوا كل ذلك قليلاً، ليجعلوا الحياة في أقل وتيرة ممكنة. خفّت الحركة على الطرقات الرئيسة وانحصرت أسواق المدن وانتقل السير أحياناً كثيرة إلى طرق داخلية: دروب زراعية وطرق مهجورة من زمن، ولزم الناس قراهم وبيوتهم، لا يغادر الواحد قريته العام والعامين، وتستقل أصغر قرية بطبيب وصيدلية ومحل أثاث وبائع أجهزة إلكترونية.

بعد العملية الأولى بات الإسرائيليون لمهمة واحدة هي الدفاع عن أنفسهم. هذه مهمتهم ومهمة أصدقائهم، وبالطبع مهمة الناس كلّهم والطبيعة والطرق. كان هذا قريباً من الهذيان. لم يعودوا يهتمون بأي أرض لا يقفون عليها، ويفضّلونها بالطبع خالية ميّنة. أما الناس الذين زفروا حين ارتاحوا من الفلسطينيين فتغيّروا بسرعة. لم يصدّقوا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك بالإسرائيليين، أن يفعلوا ذلك بأي أحد. لم يكونوا حتى العملية الأولى ينتظرون شيئاً مثلها. لكنها حصلت، وثلاثة شبان فعلوا ذلك في عرض النهار وانسحبوا دون خوف. ما كان بوسعهم أن يرفضوا

هذه المنحة، بعد كل هذه المذلّات التي هي تقريباً دهمهم. ما كانت لديهم فرصة ليرفضوا ويفكروا. لم يريدوا الموت للإسرائيليين، لكنّ الشجاعة هي التي فتنتهم. طبعاً في العملية السابعة أو العاشرة بدأوا يتمنون الموت للإسرائيليين المختبئين في قلاعهم. انتهت المسامحة العابرة وعادوا إلى إرث العداوة القديم.

لم يكره أهل الميدان حسين عوض. صحيح أنه كسب من تهريب التبغ والويسكي وسلّم شاباً للإسرائيليين لكنهم لم يكونوا من القرية. حمى في الحقيقة شاباً من الضيعة. أخذ على عاتقه حزبي البلدة وصار في وقت قصير حامياً لهم. استرضى الشيخ وردّه إلى منبره في الحسينية. أبدى لكبار السنّ وأبناء وحفدة الشيخ السابق احتراماً خاصاً، بل أبدى لمعلمي المدرسة ما يجدر بتلميذ كسول بليد أن يبديه لأساتذته القدامى، ليحسنوا الظن به. لكن عندما انفجرت سيارة حسين عوض ما إن وضع قدمه فيها، وقبل أن يوافيه إليها ابنه البكر، حمدوا الله على أن شيئاً آخر الابن عن أبيه.

لم يكرهوا حسين عوض، لكنهم عندما أتوا من كل مكان في الضيعة وجوارها ليشاهدوا السيارة التي طار مقدمها وتحول باقيها إلى مصفاة، لم يخفوا إعجابهم بالعملية التي كان جسد حسين عوض المنشور في الشارع مصداق براعتها. لقد جمعوا دماغه عن الإسفلت، وعثر طفل على إبهام قدمه الملتصق بسبّابته على بعد ثلاثين متراً تقريباً بين أوراق الشجرة التي

ذهب يلعب تحتها، لكن الله سلّم ونجا الابن الذي تأخر عن أبيه. كانوا يصفّرون عند رؤية السيارة ويقول أحدهم بصوت عال دون أن يخاطب أحداً:

- يا لطيف شو ه الدقة. تحتو تماماً لو إجا من الباب الثاني يمكن كان سلم.

يقول ذلك، لا يخاطب أحداً، يلقيه في الريح التي ربما، تحمله إلى أصحابه الخفيين الذين لا يعرف وجوهمهم. في الأيام التالية بدأوا يتكلمون - لا ندري من أين نبت الكلام - عن تحذيرات متواترة دسوها حسين عوض، لكنه لم يرتدع. عند ذلك بدأ الناس يغسلون ضمائرهم من مقتل حسين عوض ويلومونه بطريقة ما.

- ما ردّ، كان لازم يردّ.

ولم يمر الأسبوع حتى كان المخفر قد أغلق. عاد الفتیان إلى بيوتهم وسلّم كبيرهم المفتاح للأستاذ مصطفى.

شبان التنظيم وشوشوا بأن الكهربي رتب العملية. أما الأستاذ مصطفى فقبض بإبهامه على مسبحة وأخرج كفيه من كم عباءته التي لم يخلعها منذ دخول الإسرائيليين.

- معاذ الله. نحن ما قتلنا حسين. حسين ما خان. بعد، بس ظل قلبو معانا.

لكنّ شباب التنظيم استمروا يوشوشون بأن العملية من تدبير الكهربي، مشفقين من أن تنسب إلى غيرهم. لم يكن استغفار الأستاذ كلّما ذكر حسين عوض وخشوع صوته، كأنه يتكلم في جنازته، يغيّر أحدًا من هؤلاء. الكهربي هو الذي دبر العملية. وحده يعرف أن يدبر عملية كهذه. استلم الأستاذ على كل حال مفتاح المركز وانتظر أن يمر أسبوع حسين عوض حتى يبادر إلى فتحه. دخله مع صادق العسال. ولحقتهم عند الظهر أخته مريم مع فتاتين فأمضين النهار في تنظيف المكان.

لم يخطب الأستاذ في الأسبوع لكنه وقف للعزاء مع أهل حسين عوض. أما أسبوع إبراهيم السنكري المهاجر الذي عاد من الولايات المتحدة ليعيش وحيدًا بعد أن خاصم عائلته وتفرغ للشرب كل ليلة وكلما حدثوه عن الحساب قال ضاحكًا:

- ساعتها منعرف مين بيعاسب مين.

فحضره الأستاذ، ودُعي أدبًا إلى الكلام، فتكلم وأكثر من ذكر الجهاد. ازداد رواد المركز يومًا بعد يوم، حتى غصّ بالداخلين والخارجين والمجتمعين على سطيحته والجالسين تحت الشجيرات المجاورة له. لم يكن البيت الذي أعاره للتنظيم أخ يعيش في بيروت سوى ثلاث غرف بحذاء بعضها البعض وبئر وسور من حجارة مسفطة، ولم يكن في أحاديث الجالسين فيه شيء غير عادي. إنها أحاديث البيوت والساحة وكيفيههم هنا

الأُنْس باجتماعهم. وليس التنظيم شيئاً سوى هذا الاجتماع. لم يقل الأستاذ شيئاً خاصاً لكنّه تكلم كثيراً، كان كلامه هو التنظيم أيضاً. حديثه عن الحسين وشهداء الشيعة ومعاركهم ضد العثمانيين. ليس علمه بالتاريخ جيداً وغالباً ما خلط بين شيوخ دين وشيوخ عشائر. ليسوا سمّية ممتازين، لكنّ كلامه أشبه بنفير. إنه نوع من طبل اجتماع. لذا يسمعون ولا يسمعون، لكنهم يبقون متأهّبين. حضر الكهربجي. وجدوه في الحسينية صباحاً في زيّ كاكي. لم يتغيّر فيه شيء سوى أن عظام خديه برزت أكثر، فزاد وجهه الطويل التواء وبدت رقبته النحيلة أطول. طال ساقاه وجذعه فبدا كأنه يعربش في الفضاء. جلس ويداه على ركبتيه ورأسه ساقط إلى أسفل وكتفاه مرتفعان كأنهما سنامان صغيران. جلس جنب الأستاذ الذي، كلما اقترب واحد للسلام على الكهربجي، بشّ له بكل وجهه غير مخفٍ سعادته بعودته، فيما الكهربجي يتململ في ثيابه الواسعة عليه كنبته كبيرة صفراء، وجوزة عنقه تتحرّك بلا انقطاع. كان شعره يُنَوَّر في رأسه كالهشيم باهتاً بلون عينيه وقريباً من لون بشرته نفسها. نظراته وحدها تلعب باستمرار كجوزة عنقه بحيث تصعب ملاحظتها. الجميع سلّموا عليه. طبعاً كان الأستاذ يسلم ويودّع فيما هو يتخلّص بـ «إنشاء الله - ياذن الله».

أطلقوا عليه في مهنيّة الرضا اسم الكهربجي. كان تقريباً معجزة المدرسة. يحلّ في رأسه أصعب المسائل الحسابية ويعطي الجواب في لحظة. أساتذته

أنفسهم يؤسوا من منافسته. حين كبر قليلاً صنع تقريباً كل الآلات التي يحتاج إليها. لم يشكّ أحد في أنه يستطيع لو أراد أن يصنع طائرة، ويتحدث الجميع أنه الآن عائد من دورة متفجرات.

كانت مهنية الرضا في الحقيقة ميثماً وليس الكهربجي يتيماً، والده غانم أبو غانم لا يزال حياً، وإن كان مكانه مجهولاً. تاه من الولايات المتحدة إلى كندا إلى أميركا اللاتينية ويقال إنه الآن في استراليا.

تركه جنيئاً ليجرّ حياته في كل مكان، وحين عاد في إحدى توهاته إلى لبنان، لم تحتمله نفسه أكثر من شهرين. كانت أم مصطفى ذبلت قبل الأربعين، وحملوها إليه بحجاب أسود وثياب سوداء ويدين تشققتا من العمل في الحقل، فهجرها بعد بضع ليال وصار يمضي ليلاليه في بيت إبراهيم السنكري ويعود سكران عند الفجر، وجميلة أم مصطفى ترتجف منه وتقفل عليها وعلى ولدها بالفتاح وتنتظر إلى أن يرتفع شخيره من غرفة المعيشة. تنفّست وتنفس ابنها عندما غادر إلى أميركا.

لم يكن غانم أبو غانم مع ذلك عنيفاً في سُكره، لكنّ أم مصطفى تربّت على خوف السكرارى وخوف العين والحسد والشر والحيوانات والكتب والإشارات الخطرة. لا تغسل يوم الخميس ولا ترتدي جديداً يوم السبت ولا تأكل بيضاً عند طلوع القمر ولا أحمر في آخر الشهر. ترتدي ثيابها بالمقلوب لكي لا ينفذ فيها السحر وتخصص لكل يوم «حجاباً» ولا تنام إلا بعد أن تطرد العين والشر والعفاريت، وتسمّي على كل ما حواه بيتها

مرعوبة من أن يَخْلَفَ زائر شيئاً لم يُسمَّ عليه فيسكنه عفريت أو أن يدسَّ لها حاسد شيئاً. تخاف من الفذارة والنجاسة والفوضى، وطالما هرت جلد ابنها بالفرك عند الحَمَام أو سكبت عليه الماء مرّات بلا عدد، حتى يقتله السّام فييكي، وطالما نَبّهته أن فُصاصة صغيرة مرسومة قد تخلف مصيبة.

الغريب أن الابن نشأ تقريباً لا يعرف الخوف. يُحكى أنهم تركوه وهو في السابعة مع ابنة خاله الرضيع النائمة وعادوا إليه بعد ساعتين، فوجدوه جنب سرير الطفل واقفاً لا يرفع بصره عن حية في السقف، والحية تشخص إليه غير قادرة على التحرك من موضعها. لم يرفض أبداً تحدّياً، يصعد إلى أعلى شجرة كالعصفور ويرمي نفسه من أعلى سطح، وكأنه نسمة أو طائر، لا يصاب بجرح أو كسر. وحين طلبوا منه أن يمشي على حبل معلق قام فوراً ومشى بسهولة، ولم يكن فعل ذلك من قبل. كان واضحاً أن في يديه وجسده استعداداً ليس عند غيره. كان طريّاً كنبته ومسالماً كنبته. حين يتحدّاه طفل للشجار يمشي أمامه على يديه ويلوي جسده ليغدو كأنشوطة فيندھش الآخر وينسى الشجار. يقال إنه هكذا واجه كلباً مسعوراً وجعله يبتعد عنه.

لم يصعب عليه سوى الكلام. يحب أن يسمع، لكنه يجد مشقة كبيرة في أن يتكلم. أصعب شيء عليه أن يروي حكاية، كلما اضطرَّ إلى ذلك لم يعرف من أين يبدأ. لا يجد جدوى في أن يقول الواحد كل صباح إن الشمس أشرقت، وكلما أكل إنه أكل وكلما جاء إنه جاء. لا يطمئن

إلى الكلمات. كانت بالنسبة إليه كالأشياء الغريبة التي تخشى والدته أن يندسّ فيها شيء.

لم يسأله أحد إذا كان حقاً «صانع متفجرات»، مع أنهم قضوا نصف الوقت في الحديث عن ذلك، وسلّموا عليه باحتراس كأنهم يخشون الضغط على يديه، كما يخشون أن يضغطوا على متفجرة.

جاءت مريم وجلست على كرسيّ قريب منهما. لم تعتن كثيراً بحجابها فمنابت شعرها المردودة إلى الخلف ظاهرة منه. قال لها الأستاذ ذلك فشددت حجابها ضاحكة. سأله إذا كانت المرأة الحليقة تحتاج إلى حجاب.

- كنت قصّيت شعري وخلصت.

لم تحلّ نكتتها للأستاذ، أما الكهربجي فابتسم، وما كانوا يتحرّجون من الكهربجي، فهو كل يوم تقريباً عندهم. جاءت والدتها وسأله عن والدته. كانوا يعرفون أنها تنسى نفسها وما حولها أياماً لا تمدّ فيها يداً إلى غرض في البيت ولا تتكلم ولا تسمع، تحدّث نفسها عن رجل خفيّ تسمّيه حسن المصطفى يزورها ويترك لها رسائل وإشارات. لذا كان الكهربجي يعود إلى الميتم ولو في أخريات الليل، أو يقضي ليلته في المركز أو في بيت الأستاذ.

عندما تعب من الخُصلة التي رفضت والدته أن يقصّها مع أنه بلغ الثالثة عشرة، ومن كونها لا تزال تُلبسه ثوباً أليق بفتاة وتجبره على أن يبحث طول

النهار عن آثار تركها مجهولون، قصد بنفسه «مهنية الرضا» وقال للمدير إنه يريد أن يعيش هنا. سأله المدير إذا كان يتيمًا.

كان يرتدي ثيابًا ممنوحة من أشخاص ذوي أعمار وأحجام مختلفة، بل كان قميصه بناتيًا وكذلك خُصلته المدلاة على كتفيه. لم يجب عن سؤال المدير لكنّ معلّم النجارة الذي صادف دخوله هذه اللحظة أخبر المدير أنه بمثابة اليتيم وامتدح ذكاه.

في الميتم أحب كثيرًا المنامة الطويلة التي تمتد فيها أربعة صفوف متقابلة بشر اشف بيضاء. سُرّ بخزائنه الصغيرة وأخذ على عاتقه من الأسبوع الأول أن يهتم بالمنامة كلها. يحمل سطلا كل يوم ويفتش تحت الأسرة. أصلح الشبابيك والحنفيات ورشاشات الحمام المعطلة. زَيّن الميتم في عيد المولد النبوي بأشرطةٍ وسُعف نخل ومصابيح وأزهار وآيات قرآنية مضاءة صنعها من النيون. اعتبر الميتم ببساطة بيته. دخل التنظيم لأن الميتم تابع له، ولما تخرج من الميتم بقي فيه أستاذًا. ولما بات الميتم مركز قيادة التنظيم، وجد نفسه بصورة آلية في القيادة.

سألته مريم ماذا فعل في غيابه. حاول أن يتخلص على طريقته:

- بإذن الله. الي الله بيقدرنا عليه.

كانت عادته أن يدسّ في كلامه ماركات كلامية تنوب عن أي جواب،

لكن مريم أوقفته ضاحكة:

- خلص . بلشنا نلفّ . الحكاية وما فيها . قللي بالضبط شو عملت .
بالضبط . هذا ما لا يستطيعه مصطفى أبو غانم . كلامه لا يكون أبداً على
مقاس ما يعرفه . لكنّ مريم لن ترحمه حتى يتكلم . قال بما يشبه الهمس :
- متفجّرات .

قالت مستهجنة:

- متفجّرات ه المّرّة كمان؟

كانت تشعر أنهم زادوها معه . يعاملونه كما لو كان حفرة يدفنون فيها
أي شيء . كان ما يجعله صامتاً أكثر يفعلونه له . كل ما يجعله أبعد ويبقيه
وحده .

- شو صار فيك تعمل لغم؟

أجاب دون اعتداد:

- كل شيء .

شعرت بحق لم تدر سببه . أحسّت أنهم يريدونه رأساً صامتاً يعمل بلا
نوم . كل شيء لديه : الحسابات ، النظام الداخلي ، العسكر ، والآن العمليات ،
كل شيء تقريباً . كل مقبرة التنظيم ، أمّا هم فلهم المسرح . لم تعرف لماذا فكرت

هكذا، سُرّت عندما غادر لدورة المتفجرات. أما اليوم فتشعر أنهم يحولونه مهجوراً وساكتاً كلغم. لم تعرف لم هي غاضبة. هو أيضاً حيرته لهجتها. لم يتدخل الأستاذ الذي تسلى بمحاكة مريم، لكنّ أمّه دخلت بصينية الغداء ولما سمعت مريم تقول له:

- شو بيك كامى متل اللغم. اتحرك.

ورأت الكهربجي كالعادة لا يحير بين يدي مريم. قالت لها بنبر:

- خليه ياكل.

أخذ الأستاذ يعدّ ردود أهل الضيعة على مقتل حسين عوض والكهربجي يأكل وينظر ولا يبدو عليه اهتمام. لكنه حين سمع أن عشرة من فتيانه يريدون العودة إلى التنظيم، انتبه فجأة. سأل:

- كم قطعة معهن؟

- حوالي تماني.

- كم قطعة عنا؟

- يمكن عشرة.

- وين؟

- بس بدّنا.

- هَلِّقْ.

فهمت مريم أنها الساعة وفكرت: لو كان بابًا لأغلقتَه دون تردد.

وصل الإسرائيليون ولم يجدوا أحدًا. كان الأستاذ والكهربجي وبقية الشبان غادروا الوديان بعد عشر ليال قضتها الضيعة بدون نوم. تناد في الظلمة وأشياء تُنقل مع صياح الذين يحملونها «خذها عالشمال. شدّ من ورا. تحرّك لقدّام» وأضواء تسطع وتختفي مع حراسات عند كل خمسين مترًا تقريبًا، بحيث تبدو القرية وكأنها أحبولة. علم الناس أنهم ينقلون السلاح وتبلّغوا أيضًا أن عملية بستان الشاي من صنع الكهربجي، بل صارت تفاصيل دقيقة منها على كل لسان. الكل يعلمون أنه حين رأى السيارة تنفجر قال: «الحمد لله» وأدار ظهره ومشى، فيما بقي الاثنان اللذان معه وقتًا يتأملان الدخان قبل أن يلحقا به.

وصلوا في ثلاث دبابات وشاحتين وطوّقوا القرية، وعندما طلبوا من الأهالي أن ينزلوا جميعًا إلى الساحة كالعادة لم يتوقعوا أن تفتح الأبواب كلها تقريبًا في وقت واحد وتخرج منها نساء لابسات سوادًا. وصلت طليعتهنّ إلى وسط الساحة ووقفت خلفها نساء من كل الأعمار. كنّ قبالة الجنود الذين تراجعوا إلى آخر الساحة. فجأة بدأت النساء ترميهنّ بالأحجار،

والصبية يجمعونها ويحملونها إليهنّ. بعضهنّ تسلحنّ بما وقعت عليه أيديهنّ في أرض الساحة، أخشاب وأحجار كبيرة. كانت بعض النساء ما زلنّ يصارعنّ الجنود الذين ينتشرون في الساحة، حين صعدت نساء أخريات إلى السطوح والشرفات حاملات طناجر وأواني وسكين الماء والزيت المغليين على الجنود.

كانت مريم القائدة تقريباً. كل هذا أُعدّ منذ الليل. من لم تجد عندها ثوباً أسود استعارته. الماء والزيت على النار والحجارة مجموعة من أمس ومكوّمة في أطراف الساحة، وفي اللحظة التي حمي فيها العراقيّ كان مقدّراً أن يرتفع الأذان، لكنه لم يرتفع لُعطل في الميكروفون.

عاد الكهربيّجي. كانت انقضت أيام كثيرة على غيبته. الآخرون يعودون كل ليلة تقريباً وبعضهم ينزل إلى الساحة ويتجول في دروب الضيعة. الأستاذ يغير مرقده كل ليلة ويستدعي من يريده لكنه يفاجئ بزيارات. يظهر أحياناً على باب الحسينية وقد يلقي كلمة ويخرج قبل أن ينفُض الناس.

الكهربيّجي وحده انتظر كل هذا الوقت. قالوا إنه يتنقل على طول الساحل. ينظّم خلايا مسلّحة، وإنه بعد عملية بستان الشايب نفذ عمليتين. قالوا إنه طوال هذه المدة لم ينم في بيت، وبات ليلاليه كلّها في المغاور والبساتين.

نزل الكهربي في بيت رعيان، في طرف القرية، فقدوا صغيرهم في حادث المعسكر. جلس في الغرفة الواسعة التي كان حجزها الإسمتي عاريًا، وتوسّطها عمود ملطّخ بالكلس علّق عليه لوكس مشعّ ينعكس اصفراره على الحُصَر المفروشة، التي يبدو لونها في هالته هوائيًا خفيفًا ويغدو بعد الهالة ذهبيًا لماعًا ويخالطه لون دخاني في الزوايا. كانت الغرفة نظيفة كما يدلّ لمعان أرضها الإسمتية، لكنها تتنفس رائحة جلود وروث من باحتها المقوّرة، التي يُربط فيها من حين لآخر رأس ماشية. استقر الكهربي على مرتبة فُرشت في صدر الغرفة وعلى جنبه الأيمن الحاج الكبير بعقال أسود وعينين مستنّتين بزرقة جارحة ولحية بيضاء رمادية مشعّثة. جلس على جنبه الشمال قاسم جلبوط المنضمّ حديثًا إلى قيادة التنظيم. ترك الاثنان الوسط واسعًا للكهربي كأنها يحترسان من لمسه، وجلس حوله على مساند عدد من قيادة التنظيم العسكرية. كان وحده بينهم، ما كان لأحد أن ينظر بلا تهيّب إلى اليد التي تلعب بالمتفجرات، والتي بإصبع واحد تنزع الحياة عن الموت. كانوا ينظرون إليه بذلك الخوف الذي ينظرون به إلى السحرة فهو يكلم الألغام كما يكلم هؤلاء الجنّ والموتى. هم على كل حال قادته العسكريون، عيّنهم بنفسه، وما إن شربوا الشاي وخرج الحاج الكبير بإيعاز من ابنه، حتى دار الحديث بدون سؤال. عدّوا واحدًا بعد الآخر قطع السلاح وعدد المقاتلين و... و... في الحصيلة لم يكن الكهربي راضيًا فهو يتودد جيشًا معظمه لا يعرف أكثر من فكّ السلاح وجمعه.

أخذ يملّس على صدره من دون أن ينتبه لكلام أصغرهم الذي عيّنه ليقى في رفقته. بقي ينظر إلى طرف حذائه المدبّب الموجود على خط نظره. لاحظ فراشة تطير في الضوء الهوائي الخفيف حول اللوكس. كل شيء خفيف هنا إلى درجة جعلته فجأة يحسّ بساكة ثيابه وقوة الرائحة المنبعثة من الباحة. أحسّ أن شيئاً في ثيابه وربما في عظامه نفسها يُثقله. بحث عن الفراشة. حين لم يجدها شعر بحسرة، كما لو أنه فقد شيئاً.

قام الأستاذ والكهربجي إلى زاوية وترك مريم وحدها على المسند، وهي لا تحب قعدة المسند إذ عليها أن تجمع نفسها وثيابها بحرص عليه. لم تدر لماذا جاءت. حتى أخوها لم ينتظر ذلك منها. شعرت بحرج من ينتظر موعداً. لم يبدُ على الكهربجي أنه لا يتوقعها، لكنّ ما يبدو على الكهربجي في العادة قليل. كان نحل واسمرّ قليلاً إلا أنه أنشد - كأنها كثر عظمه. ظهرت في خديه عروق يابسة وبرزت حافة وجهه. وجدته أفضل، لكنها شعرت أنه هكذا ينتمي أكثر إلى البرية.

عندما شاهدت مرّة عزيز بسالفين طويلين وقميص معرّق وبنطلون بثنيات، أحبّت منظره هكذا. لكنّها شعرت أن هيئته هذه ليست لها. لم تحب عزيز لكنها توقعت أن يختارها. كان أفضل شاب في القرية وهي أفضل بنت. لم تغضب حين وصلتها أخباره مع ندى ولا حين وصلتها سخرياته منها ومن أخيها، لكن أصابها حين علمت بمقتله الشعور نفسه الذي تحسّسه الآن. شعور أشبه بالترمل. طوال هذا الوقت نمت وقست

كزوجة مهجورة. كانت ترتدي أجمل الثياب وتسافر وحدها في سيارتها وتجالس الرجال لكنّ أحداً، حتى أخاها، لم يعد يفكر فيها كامرأة. أخوها والكهربجي الآن جنباً إلى جنب على الفراش الممدود ولا يزالان في حديثهما، ولا تأمل أن يجد الكهربجي كلمة يبدأ بها حديثاً معها. تمتّ لو تسأله عن استمراره ونحوه، إنما لا تستطيع في أي حال أن تسأله عن أمر يتصل بجسده. سألته مواربة أين ينام؟

- بالمغاور والبساتين، والبيوت حسب.

- فيك تنام بمغارة؟

- أريح من النوم ببستان.

لم يقل لها إن الأشجار تظل تتكلم طوال الليل ولا يستطيع أن ينام جيداً تحتها، وإنه لا ينام بملء جفونه إلى الصباح إلا في مغارة.

- ما بتخاف من الوحوش؟

- ما في وحوش. بخاف من الناس.

انتبهت أن لسانه انفكّ قليلاً لكن ضايقها أنه انفكّ في البرية. لم تحب قوله إن الناس يخيفون أكثر من الحيوانات، وكأنه لم يُربّ في صمته كلاماً أفضل.

- شو صاير تخاف من الناس يا أستاذ؟

بدأت المباحكة:

- حبيّ البراري - ناوي تصير ذيب؟

لم يُجر جوابًا كالعادة، لكنه ابتسم سعيدًا بمباحكتها. أما هي فاستمرت:

- منيح اللي بعد فيك تحكي.

بدا أخوها محرّجًا، لم يرد لها أن تكلم الكهربجي هكذا في محضر من الناس، فهي الآن الشخص الوحيد الذي يكلمه هكذا. سمعت على غير توقع الكهربجي يقول جازمًا:

- مش رح صير ذيب.

لم تواصل كلامها - شعرت أنها محشّوة غضبًا، أنهم بالفعل يمنحونه للبريّة، يجعلون منه ذئبًا.

في الليلة نفسها رأت الكهربجي طويلًا جدًّا ينمو في كل اتجاه كنبته معرّشة. بل هو نبته حقيقية دخلت فيها دون خوف لأنه الكهربجي. كانت في طول الساق تقريبًا. لاحظت مزقًا في الساق. لم يكن فيه دم. لكنها حاولت أن تلطمه بيدها بقوة وضغط أصابعها، انفتح من الجهة المقابلة مزق آخر. سمعت عزيز يقول: إنه لا يستحق. لا بد أنه يختبئ منها. أمسكت المزق الثاني بيدها الأخرى لكنّ المزق يبقى هكذا مفتوحًا.

ينبغي عمل شيء. أمسكت المزق بفمها وبدأت تخطيه بأسنانها، فيما بدأ المزق الثاني يلتحم وحده، تحت أصابعها. رأت طيراً يتبعها، طيراً مؤنساً جداً. كان شعرها مكشوفاً وكثيفاً جداً، ممتلئاً بالحب. وعندما مرّت قرب المغارة شدّت السير فرعاً ولم تلتفت إلى الخلف وسمعت عزيز يقول: إنه لم ينضج. عبرت جسراً وجسراً، ووجدت نفسها في المغارة. دخلت بين أغصان شائكة ملتفة، دون خوف، لأنه الكهربجي، لكنّ الأغصان زادت تشابكاً والتفافاً حتى شعرت بدوار شديد. على أرض إسمنتية شاسعة، كان الطير المؤنس لا يزال يتبعها. جلست في الحوض وشعرها ينمو حولها بكثافة، أسود ومجعداً وهي تخلص منه كلّما مشطته بأصابعها خواتم كبيرة قديمة ومتآكلة، ومرّت أمام المغارة ولم تسمع أحداً. حين استيقظت لم تذكر، إلا أنها بقيت طوال الليل تفكر في الكهربجي.

بقي الكهربجي بعد أن غادر الأستاذ ومريم. انتظر إلى أن يتقدم الليل ليخرج. لا يزال إحساسه قوياً بلمعان عيني مريم. شعر أن شيئاً اختلف فيهما. حتى نبرة صوتها كانت تقول شيئاً آخر. فكّر في تلك البدوية ذات اللون المحروق التي جاءت وهو في حفرة البستان. نظرت إليه بعينين بلون وجهها، وماؤهما على اصفرار. لمعتا فجأة وسط وجهها، كما تحيا جمرة وقالت له:

- من إيش خايف؟

وحين نظرت إليه مستويًا بطوله قالت:

- ما شاء الله!

تركت له ماء ليستحمّ في حَمّام القصب الصغير، وحين رآته وقد ازداد
بياضًا بعد الغسل، قالت له وعيناها تلمعان:

- نعيمًا.

فرشت له وسط الغرفة وأطفأت المصباح، وشعر بها ترفع يديها في
الظلمة إلى أعلى من رأسها، ثم أحسّ بها تندسّ جنبه في الفراش وتضع
يدها، بعد أن تحسّست صدره وبطنه، تمامًا بين فخذيه.

فوجئت ندى حين علمت أنني منذ ثلاثة أيام في صور ولم أزرها.

أوقفت سيارتها فجأة على الطريق.

- شو عمتعمل هون؟

أخذتني في السيّارة وحملتني إلى بيتها. جلستُ على كرسي وجدته جنب
الكنبة كمن ينفي نفسه من المكان. لم ألحقها إلى غرفتها. لم أتحرك كعادي في
أرض البيت. جاءت ويداها من خلف شعرها تنزعان الدبابيس وتحلان
الحُصّلات. قالت ويداها لا تزالان في شعرها:

- شو قصتك ليش مش عم تحي؟

غيّرت نبرتها:

- قالتلي نجوى أنو شافتك. استنيتك طول السهرة ما جيت لا بعدا ولا بعد بعدا.

قلتُ بهدوءٍ إنني تعبت وأفكر في أن أطلق وأتزوج صديقة قديمة لا تزال عزباء. استمعت. وللحال شعرت أنها لم تعد محمية.

أعرف الآن كيف أنتظر. أجد الأمر يستحق. تصحبني في سيارتها إلى زيارة أختها المتزوجة في جون بعد صيدا. تنتظرنني واقفة تلوح بمفاتيحها دون أن تعطي بالآ لزوجتي. أجلس جنبها دون أن أخاف صمتنا. أنا مل سهلاً واسعاً تحت الطريق وأكتفي بأن أغيب في سرعة السيارة وهواء الخريف اللاعب حولي، ولا تفعل شيئاً حين أمسك أصابعها بل تترك لي أصابع ناعمة، وإذا ملت عليها صرخت مقلدة الاحتجاج: - هيك رح نهوّر.

ثم توقف السيارة لحظة وتتركني ألامس شفيتها. انتظمت زيارتها إلى أختها مرة في الأسبوع وكان هذا في الغالب مقصوداً نوعاً من روزنامة. لنا الآن وقت لا نسرقه من أحد. قررت فجأة أن تسجّل في الديبلوم. لم تسأل أحداً ولا أنا. ولم يبدُ عليها من قبل أنها تفكر في دراستها. نالت ليسانسها بين الأطباق والحفازات كما تقول، ولم تفتح بعدها كتاباً. فضّلت مجلات

النجوم والأفلام المصرية وأصرت على ألا تصدع رأسها بأكثر من ذلك، أن لا تستمع إلى فكرة صعبة حتى. اختارت هكذا أن تسخر من كل الأفكار، ولم تكن مع ذلك تنام بسهولة ولا تعيش بسهولة، بل تحتاج في ليالٍ إلى ثلاث حبات ترانكسين ليأتيها النوم.

تتعذب ليلياً على سرير الأرق ولا تريد أن تفكر، لأن التفكير يزيد ألمها. تسجلت في الديبلوم. حُجّة لتحضر أسبوعياً إلى بيروت. رتبت روزنامة للقاءاتنا ولم تقل لي، كأنها تفعل ذلك لنفسها وحدها. التزمت على كل حال بدرسها، وبت أنظرها قبل الدرس وبعده. تصل في الثانية بعد الظهر. تلقي بنفسها على الكرسي، وتضع نظاراتها وحقيبتها وتعطيني خدها وهي جالسة. لو استطاعت وضعت تعبها ورأسها على الطاولة. تتركني قبل الثالثة وتعود في الخامسة. قالت إن الأستاذ يشبه عزيز. أخبرني أن نواف أرسل يطلب رؤيتها. تريدي أن أسمح لها بلقائه. قالت إنها وجدته وحده وطلب منها أن تكون صيلة وصل بينهم وبين جماعتهم هناك. أجبْتُ أنها فعلت ما يكفي لنواف وجماعته. سألتُ إذا تركت وشاحها هناك فضحكت من جنوني وأوشكت أن تغضب.

لم أستعجل. كنت لأول مرة حراً بوقتي. لا أسرقه من أحد. ولا أدور كالأعمى، أصطدم بالزائرات والجيران وطعان والأهل وقطع الأثاث. استرخيت، حتى أن ندى نفسها استبطأتني فسألتني إذا كنت لم أعد أفكر في أن نختلي.

وصلنا مبكرين إلى الدير. بقيت ندى لهذا في بيروت تلك الليلة. دخلتُ
ومعي نجوى وبيار إلى غرفة جانبية ودخلت معنا. لم نكن وحدنا، وجدناها
ملاى بشبان الجمعية. جلسنا ثلاثتنا على مقعد واحد وأخذنا نتوزع النصوص
التي سنلقيها سوياً. بقي الباب يفتح وينغلق والحركة لا تنقطع في الغرفة
وكذلك الأصوات، مما زادنا تجمّعاً وتماساً لنخلص أصواتنا من الضجة.
نسيْتُ ندى ورائي وفي ملء العمل شعرتُ بها تنحني عليّ من الخلف
وتضغط نهدياً في ظهري. خرجنا من الغرفة إلى القاعة فرأيت زاهية تدخل
بصحبة حسن. قالت لي مستفزة إنها علمت من الأصحاب بالأمسية، ولم
تطاولها نفسها أن لا تأتي، ونظرت إلى ندى بكرهية واضحة. دعوني إلى
صدر المجلس حيث جلستُ بين الأب بيار من اليمين وبيار ونجوى من
اليسار وأخذ النبيذ يروح ويحيي. قرأنا وقرأ سوانا. تحدث الشاعر العجوز
الذي يتكلم مادحاً في كل أمسية كعاداته بلغة منمّقة موزونة تقريباً. تكلم
رئيس الدير كجدّ طيّب، أما الخوري الشاب، الذي يبدو محرّك المجموعة،
فتكلم ببراءة جورناجي. بقي النبيذ يروح ويحيي وأمامي والناس يتناقصون
حتى وجدّني وندى والخوري الشاب والشاعر العجوز وحدنا. كان الشاعر
يتكلم وعيناه إلى ناحية أخرى كأنهما تقلّبان كتاباً خفياً في الرأس. قلت له
إن الأفضل له أن يكتفي بشعره. لا شك أنني زدت استغزاً، هذه أمسيّتي
أنا، وجاءت امرأتان من أجلي، وشربت كثيراً، فلماذا لا أبصق على كلامه
ونظرته الغائبة وشيئته التي هي من فضة زائفة. سخرتُ أيضاً من المذيع

الذي حمل إليّ كُناسة كاملة من الأسئلة. وأخيراً عند منتصف الليل جلست جنب ندى في السيارة واهتديت فعلاً إلى ذلك المكان، فعلت ذلك أفضل مما لو كنت صاحباً.

طيلة الطريق كنت أتحسّس المفتاح في جيبِي، ولما وصلنا كانت البوّابة الخارجية مغلقة بسلسلة، ولم يكن معي مفتاحها والبناية مطفأة تماماً، مجرد جدار كبير مظلم. هزرت قضبان البوابة وبقيت أهرّ إلى أن أُضيئت أمامي شقّة وخرج البوّاب وهو يفرد جلبابه على جسمه بيده ويغالب نومه. قلت له إننا زوجان جئنا إلى بيروت لغرض، وأعارنا حسين نصّار شقّة أهله. فتح البوّاب دون سؤال وأدخلنا وقال لي أن أمرّ عليه في الصباح ليعطيني مفتاح البوّابة كي أستنسخه.

صعدنا طابقين أو ثلاثة لا أذكر. وضعتُ المفتاح في القفل لكنه لم يطاوع. عاجلتُ القفل وحركت المفتاح يميناً ويساراً من أمام ووراء، ولم أدر إلا والباب انفتح.

وجدت ندى مفتاح الضوء لكن الغرفة لم تضيء خشيت أن تعيا برائحة الغبار الكثيفة التي أيقظناها بحركة أقدامنا لكنها كانت في شاغل آخر. قبل أن تعتاد العتمة وجدت الحائط حيث توقعته، فيما كنت أنا لا أزال يابساً في محلي أنتظر أن يهدأ فوران الظلام، وحين تحرّكتُ على هدي يدي المتحسّسة دلفتُ من فتحة لم أبتعد فيها، حتى اصطدمت بركام من الأشياء. جمدتُ مكاني وأحسستُ بها قريبة مني، وفجأة لمع عود ثقاب من علبة

وجدتها على المجلى. شع العود فرأينا في أرض المجلى مادةً بنية قائمة وكمخة بيضاء على كؤوس متروكة. غادرتُ بالعود المشتعل وحين لَوَّح بالانطفاء أشعلتُ سواه. وجدتُ في الغرفة المقابلة مفتاح الضوء وشعّ النور. رأينا في الغرفة سريراً واحداً تكوّم عليه عدد كبير من الألفه والوسائد والشراشف البيضاء، وجنبه ركام من طاولة وكنبات وكراس مقلوبة. لم يبدُ عليها أنها نظرت إلى السرير، خلعت جاكيتها وكنزتها وسوّتها ببطء وتركتها على حافة الطاولة، بعد أن مسحها بقطعة من نسيج. خلعت، بسرعة أكبر، قميصها وتنورتها وركضت إلى السرير.

أتساءل إذا كانت الرواية تبدأ من هنا، وهذا بالضبط يجعلني غير قادر على متابعتها. لا أعرف كيف جمعت هذه الصفحات. من القليل من الذاكرة، والقليل من الرواية. لو أنني أحسنُ روايةً أو أفضلُ ذاكرةً أكنت احتجت إلى أن أكتب. كتبت فقط لأسجّل هذه القصة قبل أن تُنسى. أردت أن أمنحها حياة ثانية. لكنني لم أجِد منها شيئاً كثيراً. تحللت بسرعة أو انتقلت إلى هذا القاع الذي لا يتكلّم في أنفسنا، ونزداد مع العمر شعوراً بحجمه وعمقه مع أننا لا نعرف منه سوى العمق والحجم. عمق، مجرد صمت متكاثف يوشك أن ينبس لكنه لا يتكلّم. كأنه تكلم مرة ولم يبق أثر لكلامه. سرّ نحمله ولا نعرفه. سرّ يكبر مع العمر إلى أن يستولي على أكثر كياننا. هل هذه هي الحكمة، اسم آخر لذلك المجهول الذي يجعلنا مجهولين أكثر

فأكثر من أنفسنا؟ هل تغدو الوقائع نفسها مع الوقت أسراراً؟ هل القاع صامت بما تحلل من حياة كانت معروفة وعلمية؟ هل نعيد رؤية حياتنا بوصفها صمتاً وعمقاً وسراً ليس إلا؟ هل هذه هي الحياة الثانية التي لا نريدها لأنفسنا؟

أمسكت هذه القصة قبل أن تتحلل، ولم أجد فيها شيئاً لم يتأثر، لكنها قصة حياتي وأنا أراها تقريباً على الحال التي أرى فيها أخي الميت في الحلم: نصف حيّ، نصف ميت، نصف إنسان، نصف نبتة. إنه هكذا يخضع للموت دون أن يلزمه ذلك بالرحيل. هذه الوقائع تتماوت دون أن تضطرّ إلى الرحيل، وأنا أرويه نصف ميتة تقريباً.

كان هذا من البداية. قلت إن ندى شقراء وليست شقراء. أذكر نُكْتة شائعة عن الذي نسي عيني امرأته. لم أنس لون شعرها وعينيها فحسب ولكن كل تفصيل آخر تقريباً. مع ذلك كانت الوقائع هنا لا تحتاج إلى صفات ولا معالم. كانت الوقائع بأي لون شعر ولون عيني وأي تفصيل.

عند عودتنا ذلك الصباح أرّنتي دمغة تركتها شفتاي وربما أسناني على عنقها، بقعة من لون زهري مائل إلى بُني وسط العنق. لامتنى على قلّة حذري.

- بتعرف أنو كل شيء بيعلم على جلدي.

لكنها لم تكن ساخطة. حملت معها أثراً من ليلتها، هي التي أخبرني عن النساء اللواتي يخرجن مبلولات الشعر في الصباح قاصدات أن تعلم الجارات كيف قضين ليلتهنّ. كانت هي تسرّب بعد كل متعة تفصيلاً إلى زميلاتهما:

- جرّبوا النومه بالحّمّام.

سرنا ذلك الصباح الشتائي على أرض محفّرة. كانت إلى يميننا بورة مسيّجة تلمع من مطر البارحة. في الناحية الثانية وحلة حمراء شققتهادوا اليب وأقدام كبيرة وبقع مطر واسعة. السماء تتكاثف بلون ترابي وتبدو بطريقة ما محفّرة وسخة. الهواء، الذي بقي يعصف حوالى الشبايك طوال الليل، بدا الآن أقل قوة وظهرت لمعته صهباء على أطراف الأشجار البعيدة وحواف الغيوم. كنا نسير متباعدين وعلى عنقها شال ملفوف. اضطرت إلى أن تلبس ياقة عالية إلى أن زال الأثر. أحسب أنها تركت الشال يسقط عفواً أمام محاسن وقالت لها إنها اصطدمت بشيء.

لم نعد المفتاح إلى البوّاب، فقدته في النهاية، بعد أن تكاسلت طويلاً عن استنساخه. أيقظناه مرة ثانية، ثم علمنا أن أهل حسين نصّار عادوا إلى بيتهم فبحثت عن غرفة في فندق.

أمضيت ليلتي الأولى في الغرفة وحدي، وفي الصباح وجدت بنطلوني

مرمياً في أرض الغرفة ومعاش شهر كامل طار منه. شكوت إلى موظف الاستقبال، فقال إنه لا يشك في عمال الفندق، ولما جادلته تخلص بالقول إن هذا ليس من شأنه.

كان فندقاً رخيصاً من تلك التي تؤجّر بالساعة وتعجّ في الغالب بمومسات ولصوص وقوادين، أو هكذا تراءى لي، حين لاحظت غالباً وأنا أعود ظهراً أو بعد الظهر غرقاً مفتوحة على وسعها كأنهم يهوّونها من نوم استيقظوا منه لتوهم، وفي أبوابها ودواخلها متبرّجات داكنات الوجه غالباً، نساء من مختلف الجنسيات وعمال يكلمنهنّ بمونةٍ وتفاهم يتجاوزان الخدمة الفندقية. تساءلت ماذا يحصل في ليل الفندق، إذ يتأخر الصباح هنا ويمضي النهار كسولاً جداً، ماذا يغدو موظف الاستقبال وعمال الفندق في الليل؟

صحبت ندى إلى الفندق مرّات، لكنها بعد أسابيع أبدت رغبة في أن تبتي في الغرفة. تكررت هذه بعد ذلك، وجاوزت أحياناً الليلة إلى اثنتين وأكثر.

هل كانت سعيدة بهذه الغرفة. لا بد أنها لاحظت متبرّجات الغرف الأخرى وألوانهنّ وجنسياتهنّ، لكنها مع ذلك تسبقني إلى الغرفة وأجدها مرتاحة على السرير، غير آبهة بأن توجد وحدها في مركب الفجور هذا، وأن تدخل بصورة ما في حياته الليلية. كانت تستقبلني بثوب نوم شفاف تظهر من خلاله طبعتا نهديها، بوردة في سوتيانها أحياناً، وحمّالات جوارب بأشرطة ملوّنة أو قبعة بأرياش. وحين ننام، تهمس بكلمات فاجرة وتغرس

أسنانها فيّ وحين لاحظت أنها تركت في عضوي خدوشاً واضحة ملأها السرور. توقظني بجسدها الذي ترتمي به عليّ وتبدأ وهي لا تزال نعسانة وأنا نائم تقريباً، تتحرك ببطء ورتابة فوقِي.

لم يحزني شتاء هذا العام كالعادة. لم تحزني رؤية المدينة مبلّلة ولا مختنقة بالغيم الذي يشعّ منه النور باهتاً ووسخاً، ولا رؤية الهواء والنور مبلّلين وسخين. كرهت دائماً أن أدوس بحذائي في الماء وطالما شعرت أن نفاذ الماء إلى جوربي وقدمي ومشبي بعد ذلك بجورب مبلول وحذاء يخب ماء، مهين ومثير للشفقة. تبدو لي المدينة بعد المطر مثل جورب مبلول أو أسمال. يمكن أن أسجّل هنا رعب من الرطوبة فالماء لا يبقى نظيفاً، يتسخ بسرعة وأسرع من أي شيء آخر، بل هو وحده قادر على أن يحمل الوسخ والعدوى إلى كل مكان. بيروت، بعد المطر، تعوم في هذا الوسخ الذي يطفح فوق أرصفتها ويتبرّك في أسافل الطرق، أو يخرج حرّاً مثيراً للغیظ في منحدراتها.

ذلك يجعل الطرق مملوءة بهذه المادّة الثخينة التي توشك أن تكون نزفاً وتلصق وتوحد وتخلط. تلك سيولة تخيفني كما يخيفني الاختلاط والعماء. حين علمت أن الجسد أكثره ماء خفت. شعرت أن الشكل مجرد وعاء. حين أعرق، أكره نفسي. أشعر أن الجسد يسيل ويتحلل. وعندما يعرق الجسدان في الجماع لا أعود أجد طعماً لجسد الآخر ولا ملمساً. أجد ماء لزجاً يختلط بهائي. كأننا أثناء ذلك نفرز أنفسنا.

لم يحزنيّ شتاء هذا العالم. رغم أنني رثيت لنفسي مرارًا في السماء التي تسحّ والأرض مبلّلة. كآبتي تجعلني أعيش في المرايا. أحزن لنفسي في الشارع والطبيعة وحتى في مجرّد حجر. أفكر أن هذا لا يحصل مصادفة. نجد أنفسنا عند كل فترة في حياتنا في شيء. في البحر أو الشجرة أو البيت. هذا ليس مجرّد تشبيه، إنه تراسل مستمر. نوع من بناء المرأة. ذاتي المكروهة موجودة في الشتاء وأنا الآن لا أصادفها كثيرًا. لقد ابتعدت عن هذه المرأة.

تأذيت دائماً من قلة اعتيادي للأشياء، فأن تعتاد شيئاً يعني أن تأمن له وتساها، وأنا لا أعتاد ولا آمن بسهولة. الكل يتطلب مني يقظة واستعداداً إلى درجة التعب والارتباك. ما لم أعتده أبداً هو الجنس، أبداً كل مرة من الصفر وأنتظر فقط من المصادفة أن تكون رحيمة. أتصرف بآليّة وكأنني أساعد شريكتي. وكل مرة يبدو وصولي خطراً حملني إليه سوء الحظ أو قلة التدبير، لكنّ الحظ وحده هو الذي جعل الأمور أقلّ سوءاً. ندى لذلك شريكة مناسبة، فهي لا تعتمد عليّ بل تحصّل لذتها بنفسها. قلت لها إنها تلعب عاداتها السريّة معي. لم تكن تنتظر شيئاً كثيراً من الرجال، الجنس نفسه بالنسبة إليها أكلة تُقبل عليها بنهم طفولي وعجلة طفولية. في الفندق اختلف الأمر قليلاً. وجدنا وقتاً للعب، اللسان واليد والتعرّي البطيء والتمرّغ في شعر الصدر وشعر الجسد كلّ. في الفندق شربت منّي لأول مرّة، ووصلت وأنا لا أزال أدفع لساني فيها، وطلبت مني في لحظة غريبة أن أسقيها في عينيها، ومسحته براحتها على وجهها وشعرها. في الفندق كان

التعري في ضوء النواصة الأصفر والحب إلى الفجر أحياناً، واليقظة عند الضحى، والجسد شبهان نومًا وحبًا، وكسل الجسد صباحًا والحمّام دون ستارة والعناق تحت ماء الرشاش، حيث الجسد مسنون واللذة لا تولد من النار.

لم أقبل حين ألحّت عليّ صديقتي الأولى أن تُمضي الليل في سريري. فقد كان رُقاد ليلٍ كامل مع امرأة عذابًا. ليست ندى أول امرأة أرقد الليل معها، لكنّ النوم مع شلي، في 14 شارع تولبياك، على حد السرير الضيق، لم يمتّع أيّا منا، ولم يفدنا أيضًا أن ننزع الفراش عن الرفاص، فالنوم على الرفاص الصلب دفع في أضلاعي مربّعات الفولاذ، فكنت أنام، إذا استطعت، نومًا صعبًا.

بدّلنا منزلنا وجمّعنا سريرًا واسعًا. لكنني، من يومنا الأول في المنطقة السابعة عشرة في باريس، أحسست على درج البناية بعياء لم يلبث أن تحوّل شعورًا بالضعف إلى حد الخوف من الانهيار، ومعدة تبتلع دون انقطاع لتموّن الجسد وتمنع انهياره. قالت لي الطبيبة النفسية في المستشفى إنني أرفض، دون وعي، صديقتي فهجرتها إلى بيت صديق لي. شعرت أن الرقاد معها على ذات السرير أمرضني. لم يكن النوم مع زاهية نومًا، بل لعبًا لا يضرّ ولا ينفع. تعصرني بالسهولة ذاتها التي تدير لي بها ظهرها وتنقلب إلى الطرف الآخر. لم أعتد النوم جنب امرأة. كنت أسرق سباحات نوم لكنني أمضي

بقية الليل أرقًا، أحاول عبثًا أن أنسى حرارة الجسد الآخر وحركته وقربه. لم أعد أجروء بالطبع على أن أطرد امرأة من سريري. كنت، لخبلي مما فعلته في السابق، أرحب فورًا وأعاني الأمر ككفارة فعلية. حرارة جسد الآخرين أثناء الليل تزعجني بوجه خاص، فهي تفرز حرارة لا مجدية ومخرجة، وكأنها دعوة دائمة لا تعرف كيف تجاوبها. جسد الأخرى جنبك سؤال معلق مربك لا تستطيع تجاهله ولا نسيانه، إذ كيف يمكن لجسد أن يتحرك ويتقلب كما اعتاد، ولصقه هذا الجسد الموجود هنا ليتلقى حركته وتقلبه. أما الأصعب فهو اليقظة المبالغية بعد نوم اضطرابي، هذه وحدها تبدو عقابًا ولا تتمتع عندها أن تلوم نفسك على ما سلف في ليلك. بل تلوم نفسك على الأمر كله وعلى رغبتك نفسها. تستيقظ وكأن النوم ليس سوى تذكر صامت استفحل فقمتم منه، وتتقلب فيه دون راحة فيبدو أكثر تعبًا من اليقظة.

لم ألبث أن اعتدت مع ندى. بات الحب كالأكل، بسيطًا وعاديًا ولا يحتاج إلى حفلة التكفير الليلية. بتنا ننام غالبًا قبيل منتصف الليل. وقت مبكر، ولكنه مناسب لمن لا يريد أن يجعل من الحب تعبًا. نستيقظ في الثامنة أو التاسعة والنهار يملأ المكان فأستغرب أن يحصل هذا لي وأنا الذي أبكر عادة إلى اليقظة ويوقظني قلق يظل يعمل في رقادي، إلى أن يقدر عليّ. شعرت لأول مرة من زمن بحلاوة النوم، بالرقاد دون وسواس يعسّ على السكت. الرقاد بدون حياة إطلاقًا ومن أي نوع، واليقظة من سحيق النوم شبعان مكتفيًا.

وجدنا حقيبة اليد مفتوحة واختفى السوتيان والكيلوت عن الكرسي .
وجدنا الكولان فقط ذابلاً على الأرض وقد أزيح غالباً عن الكرسي، والخزانة
نصف مفتوحة كأنَّ أحدًا نظر فيها بسرعة وأدار رأسه. حين رأت ندى
الحقيبة لم تتعب في تفقّدها. نظرت بذعر إلى مكانها حيث شعرت بنظرة
الرجل الذي لا بدَّ أنه حدّق في جسدها الذي نسيته عاريًا. كانت هذه السرقة
المحيّرة. قامت إلى الكولان فلبسته على جسدها العاري. وقفت هكذا أمام
المرأة وعادت إلى السرير وهي تضحك. وأخذتني إليها فورًا.

حين نزلنا وجدنا الأرض مبللة والمطر الذي شربته لا يزال متجمّعًا في نُقع
تلمع باللون الرصاصي للنهار الشتوي أو يسحّ من غصون الشجر ورفارف
المحلّات. لم أتوقع أن يكون الطقس مصفرًا ودامعًا هكذا. فاجأني الطقس
كأنني نسييت العالم في غرفة صغيرة غير محكمة الإقفال محاطة باللصوص
والقوّادين. لم تقلقني نظرة الغريب السارق الذي دخل أثناء نومنا. رقدنا
معًا مكشوفين ليلتها ولم نُحكم إرخاء الستارة فبقيت فيها فتحة ظاهرة.
لم أكن أبالي لو وقف رجل خلف الشباك، كنا ندعو العالم إلى أن يتلصّص
علينا. فكّرت لو أن رجلًا يختفي خلف الستارة أو أنني أنا خلف الستارة
أتلصّص. قلت هذا لندى وأنا أتمهّل في ولوجها قالت «مجنون» ونسييت
الموضوع فورًا. حين نزلنا كانت الأرض مبلّلة والشارع خاليًا. فكرت أن
المدينة تبدو كلدّة منتهية، كفراش ورفاش منيّ ناشف فوق الأغطية.

لم تنم فاطمة ليلة علمت باختفاء الكهربيجي. أسرَّ أخوها إليها الخبر.
- ما حدا داري إلا أنا وأنت.

روى:

- صادق كان مستنَّه بيوت السيَّاد مع اتنين من الحمرا. أسعد ومرشد
بتعرفيهم. طبَّو الاسرائيلية مسكوهن. صادق كان بالحمام بآخر البستان
حسَّ وهرب بين الليمون.

لم يكن الأستاذ قلقاً.

- ما في خوف عليه بيدبّر حالو. مرّة حس فيهن دخل راسو بين إجريه
وإديّه، ومرقوا ما حسوا أنو فيه جنس مخلوق.

- وينو صادق؟

- صادق غريب أمرو. ما لحق يرتاح حتى رجع للوادي. ما بيّن من
يومين.

لم يسعدّها أن الكهربيجي صار نجم غلاف. في البداية تكلموا عن
المهندس السري للمقاومة ثم سرّبوا الاسم والصورة. لم يعلم أنهم يبيعون
صوره ملصقات ولو رآها لما عرف من أين أتوا له بهذه القبضة المرفوعة
بالكلاشينكوف. لم يقرأ بالتأكيد الحديث الذي نسبوه إليه في «المساء»
والأحاديث الأخرى التي تفرّعت منه.

جاءوه بصحفيين طرحا عليه أسئلة أجاب الأستاذ عنها. حرّك هو فمه ببضع جمل فقط. لم يسأله عن شيء يعرفه وظهر كلام الأستاذ الطنّان منسوباً إليه. كانوا يروون عنه حكايات يعرف بعضها ولا يعرف بعضها الآخر. قال إنهم يروون عنه قصصاً لا يدّعيها إلاّ كذاب. قال إن أحداً لا يعرف ماذا تفعل الحمير إذا حُشيت أفقيتها فلفلاً حارقاً. حين فاجأوه في مغارة الشيخ بمصوّر تلفزيون لم يعرف لماذا كان عليه أن يرتدي قبعة وثياباً عسكرية حملوها إليه. ولماذا ينقلونه كاللعبة من مكان إلى آخر، ويقتونه وقتاً مرفوع اليد والرأس في العراء.

كانت فاطمة تقابله في مغارة الشيخ. تطلّ في مُلاءة سوداء ومنديل أسود على الوجه وتراه يكاد يضحك من منظرها. ترفع منديلها فيبدو وجهها الصبوح أقلّ تناسباً مع الملاءة المتهدّلة. يستلم الرسالة ويتقدم إلى باب المغارة حيث الضوء أوفر وقلماً يجيب كتابة «قوليلو أي، قوليلو لأ، بيومين بوديلو خبر».

في المرّة الأولى سلّمته الرسالة قبل أن ترفع منديلها ووقف ليقرأ الرسالة قبل أن ينتبه أنها رفعتة. وحين رآها لم ينتبه. كانت الرسالة لا تزال في رأسه. حين لحظها أخيراً بعد فوات الأوان سألها مطرّاً:

- كيف الأستاذ؟

- بيسلّم عليك.

قال:

- بندر سها.

بصوت أكثر انخفاصًا، ردّت منديلها وخرجت غاضبة من نفسها.
لم تصدّق حين قالت لأخيها «أنا بروح» وهو يسألها عن واحدة تلعب
دور المراسلة بينهم وبين الكهريبي. ومع أنها لم تجد من أخيها استغرابًا،
استمرت، بصوت فاقد النبر، تقول إنها لا تستطيع أن تعتمد على غيرها.
قالت إنه بالتأكيد لا يرى أحدًا. لا يلحظ حتى نظرات العبادة في عيون
أولئك الذين تحمّلوا ساعة من السير معصوبي العيون في طرق ملتوية ليصلوا
إليه. لم يلاحظ حتى حين سلكت طريقًا أطول لتصل دون مُلأَة. نظر دون
أن يتغير شيء في وجهه وقبل أن يعود إلى انفصاله استوقفته:

- بتعرفني؟

كاد يقول نعم، لكنه استدرك فسكت وبدا حرجه. تابعت:

- ليش أنت شايف حدا؟

فلم يُجر أيضًا جوابًا. أشفقت من الاستمرار على هذا النحو فقالت:

- هيك أحسن.

بابتسامة ردّته من حيرته. جلست على الأرض وطلبت منه:

- أقعد.

فقعد وأخذت تحكي له عن الضيعة، أخبارها بل أسرارها. بخل الحاجة سليمة صاحبة جلّ الشيخ يحيى. ملاحقة أبو علي حنين، الأرمل من شهر، لبدرية بنت صاحب الدكان، وما شاع عمّا بين مطلّقة سليم نصر الله وابن أخي زوجها السابق «يمكن من هيك طلقها». أخبرته عن عرس زينات نصر الله وخطبة علي زين الدين.

- فتشوا عن البنت ما لقوها. حملوا اللوكسات وداروا ما لقوا شي. بالآخر سكنة بنت حسن علي سمعت صوتها بالخربة لقتها نائمة عالجار. وهلّق بتقول إنّها مش دارية شي.

أخبرته عن حيدر داخ عميل الإسرائيليين الذي زار الضيعة بعد مقتل حسين عوض ووسامته سبت الصبايا. أخبرته عن خلافات قادة التنظيم ولم تنس أخاها. أخبرته عن الشبان الذين لاقوها. وجيه جعفر المعلم الذي كان كلما التقته التكتّل لسانه، وسلمان فارس الذي تجده وراءها كلما خطت، حتى طرده جهارًا.

لم يسبق لها أن تكلمت هكذا. تكلمت بافتراء ونميمة، بخفة ليست من صفاتها. هل أرادت أن تبدو له، فقط له، خفيفة طائشة ومتوفرة أم كانت تريد أن يراها وبأي صورة. تريد أن تردّه قبل أن تأخذه البريّة كما أخذ أمّه ذاك الصوت المجهول الذي يزورها. تردّه قبل أن ينتهي في العراء مجنون قنابل.

اختفى. تركت أختها يحكي وذهبت وأغلقت عليها. لم ترد أن تبكي لكنها بكت بغزارة ولم تبك عن قهر. كانت غيمة وأمطرت وصحت بعد ذلك. «لأقل لنفسي إنني أريده». وجدت اللحظة التي تقول لنفسها ذلك دون حرج. كانت سعيدة بهذا فعلاً، يمكنها أن تنام الآن فقد ارتاحت من هذا الأمر. تريد هذا الغائب الذي لا تعرف حتى إذا كان رجلاً، والذي لا تستطيع أحياناً تفرقه عن شجرة، بل لا تعرف في الأساس إذا كانت تريده حقاً رجلاً.

اختفى. ابتسمت لنفسها، ومتى حضر ومتى كان هنا؟ أليس هكذا يظهر لها مهدي أخوها الأصغر الذي توفي في انفجار المعسكر، زائغ العينين يجرّ طوله بلا صوت أو تجرّه وكأنه يعربش عليه وتحسّ أن له ملمس الفطر، ناعم واسفنجي، كأنه يستمر فقط كنبته. الكهربجي هو الوحيد الذي تعرف الآن ملمسه بين الرجال.

وصلت إلى المغارة لاهثة بعد أن انسكبت عليها غيمة مستعجلة. خلعت الملاءة المبلّلة وجلست قربه. قالت له إنه لا يسأل عن أمّه أبداً. لم يجب. فلما لكزته بإصبعها قال إن التنظيم لا ينساها. قالت إن لها حاجات أخرى، حاجات، كرّر بعدها هو الذي لا يعرف لنفسه حاجة. تحتاج إلى العطف قالت. لم يجب. أرخى يديه بين ساقيه وأطرق برأسه. حملت نفسها إليه. أحاطت كتفيه بذراعيها وجلست جنبه. شعرت فجأة برأسه على كتفها.

سألته هل صحيح أنها حبسته في البيت حتى العاشرة. أجاب لدهشتها أنها لم تحبسه فحسب، لكنها ألبسته فستاناً، وكانت تحصل له شعره كل يوم وتأخذه معها إلى المقبرة حيث تحرق بخوراً وتتمتع وتعود من غير الطريق الذي ذهبت منه. طريق طويل يمرّ تحت الضيعة. قال إنها كانت في الشتاء تنزل به إلى النهر، حيث تقف مكشوفة الشعر، تسقيه من ماء تصلي عليه وتلقي في حمولة النهر رجوتها للمهديّ المنتظر. قال إنها لم تضربه أبداً. لكنها لا تنام الليل خوفاً وتوقظه مراراً من نومه.

اقتربت منه أكثر. لاحظت متعجبة أن لا حسّ له كأنه لا يتنفس. لحدّه على كتفها ملمس بارد واسفنجي كأنه ملمس فطر. هل كان عليها أن تقترب منه أكثر. تساءلت: اختفى، أرسلوه ليختفي. سمعت في رأسها صوت أخيها وهو يروي عن الكهربجي، قالت غاضبة: أرسلوه ليختفي.

- تطلع فيي. شوف.

قالت له. وحين تأكدت من أنه رفع نظره ثبتته بعينيها. بيدها حلّت مندليها على مهل وشالته عن رأسها فتدقّ شعرها الأسود المحبوس تحته. نزعت الدبابيس وأطلقت خصلها، وحين تحرّر شعرها نشرته أمام عينيه يميناً وشمالاً. أحسّت هي نفسها أنها تكاد تطير من شعرها وذراعها. بقي ينظر إليها وقد تلوّن وجهه.

- قَرَّب .. هَات إيدك.

أخذت كَفَّه في يدها وتحسّست عروقه. كفّ طويل متّزن الراحة ممشوط بأصابع طويلة جدًّا، رفعتَه إلى وجهها ومرّرتَه ببطء على خدّها. كان جافًّا باردًا حتى أنها شعرت به يحثكّ تقريبًا ببشرتها. رفعت يدها إلى وجهه وملّست على طول خدّه. كانت قادرة على أن تفعل أي شيء الآن، سوى أنها خائفة من أن يرخي نظره أو ينسى في لحظة أن يدها على وجهه، لكنه لم يحوّل عينيه. رفع يده ومسّ بها بسرعة يدها. مرّ على شعرها وناصيتها قليلًا، ثم كأنها تعب، توقفت يده وزاغت عيناه.

لم تمر دقائق حتى بات للديب العميق صوت مسموع. أما الرصاص الذي زخ دفعة واحدة فتجاوب من كل الأماكن. اقتربت أصوات القذائف بسرعة الريح إلى أن شعرنا بها تنفجر بيننا. نظرت ندى إلى النوافذ ودعت الصغيرة إلى أن تقف بعيدًا عنها. كنا في قاعة الطابق الثالث الكبيرة، وشعرنا بالمبنى يمتلئ تجوًّا وسيرًا على السلاّم وضجة مصاعد ولغطًا. هبط عمال الطوابق العليا إلى الأدنى وصعد عمال المطبعة وتجمعوا وسط القاعة اتقاء للنوافذ، لكنهم كذبوا خوفهم وتبعثروا في القاعة ووقف ثلاثة منهم جنب النافذة يشيرون منها. بقيت ندى على كرسيّها أمام مكتبي الحديدي، لصق ابنتها التي ألزمتها بكرسي آخر، وقد بدأ قلقها عليها يهدأ. لا تخاف ندى على نفسها، ككل الذين يشعرون أن عقابهم في الحياة لم ينته بعد.

نفذ أشخاص إلى الجريدة عبر الأحياء بعد أن فاجأتهم القذائف على الطريق، ووصل آخرون من مناطق أبعد. علمنا أنها حرب بين الطلائع والأفواج. حاول مسلّحو الطلائع أن ينزعوا الأعلام الوطنية من على المباني الحكومية، بعد أن خطب زعيمهم الغريب بأنها ليست لنا. لم يرق هذا مسلّحي الأفواج فمن يشيل علماً ويحط علماً هو السلطة، وهم ليسوا أشباحاً هنا. هكذا بدأت حرب العلمين كما سمّاها الأهالي في معارضة ساخرة لحرب العلمين المعروفة.

سرعان ما انتهوا إلى أرضية المبنى الضيقة. جازف بعضهم بالوقوف أمام الباب. بدت ندى محتارة بابتها. عدنا أنا وندى إلى قاعة الطابق الثالث. اختفوا من جديد داخل المبنى. وقلّ تجوالهم وحركتهم إلى أدنى درجة. كانت القذائف لا تزال على وتيرتها من ثلاث ساعات لكننا كدنا ننساها. تعدّوا المبنى، ووقف البعض في الساحة الصغيرة. نفذت من طريق داخلية لأشتري خبزاً ولحماً مشوياً. أكلنا في القاعة الخالية. اتصلت القذائف إلى المساء بدون لحظة هدوء.

بدا وكأنها حرب أصوات أيضاً ومباراة دويّ حاصرنا من كل مكان كزئير لا ندرى مصدره، وإن أبقانا فرائس متربّصة طول الوقت، ثم وردت أخبار تسمّي مواضع الاشتباك، التي لم تزد عن نقاط محدودة في منطقة التماس. كل هذه القوة التي لم تتعب منذ اثنتي عشرة ساعة تنصب على بناية التعاونية وعطفة رضا وزاروب الإجاصة. لم تُبدِ الطفلة خوفاً كبيراً،

بقيت هادئة قرب أمّها ولم تهرب من قبلاقي، بل استراحت بلا ممانعة على ركبتني، هي التي تحتمل في العادة بصعوبة لمس شعرها.

- فطبيعة.

قالت ندى. أضافت:

- عتّمت.

بالفعل كان المساء سرقنا. انقضى العصر بسرعة. كانت النوافذ لا تزال مضيئة، لكنّ النور الذي يدخل منها لا يكاد يتعداها. نور لا مُجْد وناعم فيما العتمة كغبار والظل الأسمر يغدو خمرًا. استراحت الصغيرة على كرسي في الزاوية ونعست. لم تتعب يد ندى حتى وجدت يدي، وييدي المظلمة تحسست عنقها وذقنها. ذهبنا جميعًا إلى الفندق المقابل، وانتظرت دوري حتى حصلت على مفتاحين. فكرت أنّ من الأنسب أن ننام في غرفتين مستقلتين. أسرّنا جميعًا وأخذنا نختفي في الغرف ولم يبق معنا حين وصلنا إلى غرفة ندى سوى عبد الله الذي وجد معه شيئًا يشربه بعد الظهر، وموريس الذي ظل طيلة النهار محبوبًا في غرفة الهاتف. غرفتي هي الأخيرة في الممر. لا تبتعد أكثر من غرفتين عن غرفة ندى. وجدتها واسعة أكثر مما ينبغي لحجرة في فندق كهذا يؤجّر بالساعات. إنها في الأصل صالون، أما السرير فمتسع إلا أنه مزروع القشرة وغطاؤه بالّ والسجادة برشاء قليلًا، فيما بدا كونسيل جميل وكرسي أخضر لا يثيران الرثاء. انتظرت أن تلحقني ندى وكنت

دارياً أنها لن تأتي، لكن القذائف باتت أعلى دويّاً في الليل، ولا تستطيع هذه الحيطان أن تحميها من صوت، وليس أمامي سوى الأحلام السهلة. أستطيع أن أتلهى بانتظارها أو بانتظار النوم. لم تأت ندى، كما تمنيت على كل حال. وحين أطل الفجر كنت صرت مهروساً من الداخل، قريباً من النوم بدون أن أتخطى حافّته، لا يسعني أن أفعل شيئاً حتى ولا الصحو بعينين كبيرتين، لا يسعني أن أكون شيئاً، سوى نعاس يرتطم بأصوات كبيرة سهلة، ولا أقدر أن أتدخل في هذه الفوضى.

لم يتوقف القصف أيضاً في الصباح لكنه بات أهون. صنعوا قهوة في الطابق الأول وداروا بالإبريق على الجميع. نفذ إلى المبنى عبر الأحياء نساء ورجال من الضاحية حملوا معهم طعاماً منزلياً مُدَّت أطباقه المختلفة على مائدة عند الظهر. ورّع الشاي في أكواب كبيرة مع قطع كيك وبسكويت. تركتُ ندى تحادث زوجة عبد الله درويش الشابة الصغيرة، ووجدتها بعد قليل منهمكة مع أخريات. حظيتُ بحبة ملبّس فحملتها إلى الصغيرة التي وجدتُ يديها وجيوبها مليئة بالبونبون.

لم يهدأ الدوي ولا لحظة. كانت له تقريباً وتيرة النبض، وفي النهاية بتنا نسمعه في رؤوسنا أكثر من آذاننا. عرفنا بالتفصيل أخبار المعارك. خمس مرّات استولوا على مبنى التعاونية وخمس مرّات تركوه. كانوا يتقدمون خطوات ويتراجعون مثلها. وفي النهاية لم يتقدم أحد ولم يتأخر أحد. كانوا يحترمون حدودهم وحدود غيرهم بأقوى نار ممكنة، ويعيدون بالمدافع

رسمها. تكاثف القصف عند الفجر وزخَّ الرصاص مجددًا على كل السطوح والمفارق. كان هذا أشبه باحتفال. تجمّعنا مجددًا في الطابق الأرضي وأرضية المبنى. عاد المصورون وقالوا إن المعركة على وشك أن تنتهي. لكنها لم تنته. كثيرون تركوا المبنى عند المساء ووصلوا عبر طرق جانبية إلى بيوتهم. والباقيون عادوا إلى الفندق.

قالت ندى أن لا حاجة إلى غرفتين. وجدت ذلك بذخًا في غير موضعه. استلمت مفتاحًا واحدًا، وتأخرتُ عن اللحاق بها في الغرفة. حين وصلتُ كانت الطفلة نامت في السرير. والدتها تمددت على السرير المحاذي. أعطتني ندى يدها، والتقت كفّانا وصعدت بساعدي إلى صدرها ووجهها.

انحازت إلى فِصّار نصفها على السرير وحملت نفسها إلى سريري. تركتني بعد قليل وحملت حرامًا فرشته بين الحّمّام والمغسلة. بقيت ممددًا انتظر إشارتها، وأراقب حركتها بين الحّمّام والغرفة. دعّنتني إلى الحّمّام فذهبت برغبة هامدة. عرّت وسطها ووصلت بسرعة، أما أنا فوصلت بيولوجيًا لكن رغبتني لم ترتو. عدت إلى سريري. نامت بسرعة وبقيت أنا صاحيًا، إلى أن ساد فجأة صمت كامل، تركني مع سريري ورغبتني غير المنتهية، فغفوت مع أحلام فقيرة وجرّاء إلى الفجر.

لم يختفِ الكهربي. وجد نفسه بين الجنود الإسرائيليين. كان خطأ بعد السياج حين أطبقت الشاحنات على البستان. مسألة ثوان فقط. رمى نفسه خلف شجرة وسمع من هنا هديرًا توقف خلفه، كان يعرف أن وقتًا سيمر قبل أن يطمئن الجنود إلى دخول البستان. سمع بالفعل ضجتهم وهم ينزلون من الشاحنات ويتجمعون حول البستان بنار كثيفة. هذا هو فارق الوقت الذي عليه أن يغتنمه. بدأ يزحف بسرعة إلى أعلى الكثيب، وحين وصل كاد يتدحرج إلى أسفله. كان أمامه خندق منخفض فلم يتردد، ورمى نفسه فيه. سقط كتفه على شيء صلب ونفذ إلى جلده شيء، رفع قامته قليلًا واجتاز الخندق ركضًا وسقط زاحفًا من الناحية الأخرى. كانت الطريق أمامه لكنه لم يجازف لبلوغها. لا شك أن شاحنة متمرزة هناك. سلك شمالًا أرضًا يابسة محصبةً إلى السياج، ومن هناك نفذ إلى البستان المجاور الذي كان لحسن الحظ محاطًا بسروات عالية ومسنّة. اختفى قليلًا هنا لكنه لم يأمن أن يحاصروا هذا البستان أيضًا. تدحرج إلى أسفله وهناك اختبأ وسط أشجار الموز القصيرة وتابع زحفه. وجد نفسه أمام مصطبة إسمنتية وكرسيين منهارين وكوخ من حجر إسمنتي عار بسقف من ألواح التوتياء. كانت المرأة على المصطبة.

قامت وانحنت عليه وحاولت رفعه. كانت قوية لكنها لم تستطع زحزحته بسهولة. حاول أن ينهض، لكنه شعر بإعياء، وبدا له النهوض صعبًا جدًا. رفع مع ذلك ثقله الباهظ ورفعته هي بقوة من كتفه وجرت به عنف إلى داخل الكوخ. كان ضعيفًا للغاية ونعسان جدًا فأطبق عينيه.

عاجلت حذاءه الثقيل . وسّعت رباطه وجذبت ولم تستطع نزعهُ إلا بعد مرّات، فانبعثت رائحة قوية ملأت المكان كأنها كانت محبوسة ومضغوطة في الحذاء . فكّت الحزام وأزّار البنطلون الذي كان مقطّعا مغطى بالوحل الذي نفذ من شقوقه ومزقه مع دم حارّ مخلوط بتراب وقش وحصى صغيرة وفُتات زجاج . صعب عليها نزع البنطلون فأسندته إلى وسادة وبدأت تسحب على مهل . أنّ وهي تنزع البنطلون من الجراح التي التصق بها . كانت هنا جراح على طول ساقه وطعنة تقريبا في ساق الرجل اليمنى وبقايا من كل شيء لاصقة بالدم وفسيفساء من الخدوش تغطي كل جسده . نزعَت الكيلوت ورأت العضو مخدّشا أيضا . رفعته بوسادة ثانية ونزعَت قميصه . كان اللحم مطحونا في الكتف ، وحول العنق جرح بدا معه شبه مذبوح . ملأت قماشة بالزيت وبدأت تمسح الجروح . استيقظ على الألم فرمقته بسرعة وعادت إلى شغلها . فرغت ، فجاءت بغطاء وفرشته عليه . شم رائحة الصابون والنظافة منه . ذهبت إلى ركن في الحجرة حيث بوتوغاز بعين واحدة فوضعت فوقه تنكة ملأتها بماء وأعشاب وصبرت عليها إلى أن غلت ورفعتها وتركتها جانبا . جلست بعيدا عنه في الزاوية الأكثر إظلاما من الحجرة . بدت ثيابها الداكنة سوداء في الظل الكثيف . عيناها فقط تلمعان بقوة . خرجت وعادت بعد قليل حاملة أوراق خُبيرة خضراء . لم تنظر إليه . قالت وهي تتوجّه إلى الركن : «بعدهم» . كان يسمع رشقات كثيفة متقطعة . إنهم يمشطون ويتقدّمون . حملت التنكة وبدأت تغمس في مغليها قماشة تمسح جروحها وتحتّم الجرح بأوراق الخُبيرة . عادت إلى زاويتها

المظلمة. ومن هناك قالت، وكأنها تحدث نفسها، إن الجروح ستشفى لكن جرح الكتف وحده لا تدري ماذا تفعل به. وكأنها لم تحتمل هذه الفكرة، فقامت وجلبت سيكارة من علبة تضعها فوق النملية. أعطت الكهربجي واحدة وأشعلتها له وهو الذي لا يدخن في العادة، لكن حياة البراري جعلته لا يمتنع عن شيء. أخذ السيكارة وجعل يرفعها إلى فمه بأصابعه الطويلة وينفث في السقف. حل الليل مسرعًا. خرجت وعادت لتقول إن بروجوكتوراتهم قلبت الدنيا. نهارًا سكت الرصاص تقريبًا. أغلقت الباب والشباك، وفي الظلمة الغامرة أضاءت اللمبة. شالت من النملية مكدوسًا ومربى ولبنًا ووضعتها على طليّة قربه. نهض من رقدته وقعد بصعوبة وألم شديد لكنها رجته أن يرفع رأسه على وسادة ثانية، وجعلت تطعمه بيدها. تركها تطعمه. وفيما كانت تحمل إليه لقمة بعد لقمة، حدثته عن زوجها الذي تركها إلى ليبيا من عامين بلا خبر، وأهله الذين يلومونها على غيبته. لم تتذمر. قالتها وكأنها تروي أمرًا بات بعيدًا، ثم سكنت. وقفت بلا اكتراث تخلع ثوبها. بقيت في قميص قطني سميك وسروال واسع يصل إلى الركبتين. لبست جلبابًا أزرق من قماش المناشف وحملت فراشًا ووسادة إلى جنبه. أطفأت المصباح وسرعان ما انتظمت أنفاسها.

دق الباب بقوة وسمعتة مريم يحیی والدتها. وضعت مندليها على عجل، وبقيت من شعرها خُصلة فالتة. وجدت الحاجة التي شعرت

بالتأكيد بغيته تدعوه للجلوس. أطالت النظر إليه وغصّت فجأة بالبكاء. رآته يحيطها بذراعيه وهي تقبله في كتفه. كان في عنقه أثر جرح مقشر ما زال متورّداً وعلى بشرته الإسفنجية بُقع داكنة. رآته يبتسم لها فاندفعت إليه ثانية وقبلته في كتفه. تشاغلت الحاجة التي وعت فجأة وتركتها. لم يكن الأستاذ طبعاً في بيته فالساعة هي الحادية عشرة ليلاً. وقت غير مأمون، يعرف الكهربي ذلك بالتأكيد ومع ذلك أتى لرؤيتها. اغتبطت من هذه الفكرة. عليها أن تقوده إلى بيت آخر، لكنها استمهلت نفسها قليلاً. أغلقت عليه وعادت لتجده نائماً تقريباً على الكنب، ولما شعر بها اعتدل في جلسته ونفض رأسه وجلس ينظر إليها. أحضرت له قهوة وطعاماً فنقر من الطعام وشرب القهوة وصحاً تماماً ولم يتوقف عن النظر إليها. مديده فجأة وحلّ مندilha. ترك خصلها تتدفق. غلغل يده في شعرها ورفعها إلى خدّها. مرّ بها على وجهها ثم جذبها إليه وقبلها. كانت قُبلة فجة ذكّرتها بطعم التين الذي لم ينضج والبطاطا النيئة. بالكاد لامست شفّته شفّتها، وأحسّت بشفّته العليا شبه متحرّجة على فمها، لكنها ظلت تنظر إليه بسعادة فائقة. أخذته من ذراعه إليها وجذّبه إلى غرفة الأستاذ المنزوية، وهناك، هي المرأة التي لم يمسّها رجل تقريباً، علّمته كيف يقبل وكيف يداعب صدرًا وكيف يتأمل امرأة تطلق رعشتها الأخيرة. وقت قصير نووي. رفعت بعد ذلك مندilha إلى رأسها، وبعينين حمراوين تقريباً أمسكت يده. اعتلقا قليلاً أمام الباب، ثم قادته في الظلمة إلى أحديوت الجيران.

قالت إن الطبيب اندهش من فتوة جسدها. قال إنها تحتاج إلى رجل فجسدها يذبل إن لم يتلق حاجته من الأستروجين. لم أعرف ماذا أخبرته حتى قال لها ذلك. حاولت فقط أن أتحمّل فكرة أن يعرّيها الطبيب ويتحقّق بيده من فتوة جسدها. وأن أتجاهل الأستروجين الذي يعدها به. هكذا تُرتّب أمورها مع نفسها ومعِي. تروي لي جزءاً وتُلقي على عاتقي الجزء الذي لم تروه. تُشعرني أنها لا تزال مرغوبة لا لتستثيرني فحسب، بل لأنني أكثر شخص معرفةً بأنها مرغوبة. بقيت وقتاً أرى يد الطبيب تعرّيها وتحتسّس جسدها، كانت هذه يدي أيضاً. لم أفكر في ذلك، كبتُ في نفسي أي فكرة، لكنني بقيت أرى اليدين والعينين مسلّطتين على جسدها العاري. كان هذا يؤلم لا في الفكر ولكن في الرغبة. شعرت برغبتِي مهانة مكسورة كأنها تخدم رغبة أخرى أو تقلدها.

كنا انقطعنا عن بيروت. رفضونا في الفندق. في واحد من أطوار عودة الدولة التي تبدأ عرض سلطتها في الشوارع وداخل البارات والفنادق. ندرنزوها إلى بيروت، وفي آخر نزلاتها بقيت ثلاثة أيام عند أخ لها، ولم نجد مكاناً. قضينا يومين في قاعة الجريدة وفي الشوارع والمقاهي جازّين رغبتنا الصغيرة الممنوعة من مكان لآخر. طلبتُ من سمير أن يترك لي مفتاحه ولما وصلنا متأخرين لم نجد شيئاً تحت الممسحة. لم نبداً أكثرنا ونزلنا سبعة طوابق مجدداً إلى الطريق. دوران أربعة أيام أمرضنا. بدا التجوال بهذه الرغبة المعلّقة محبباً جداً. كنت بالتأكيد في وضع مُزِرٍ ولم تتدمر كي لا ألوم نفسي.

اقترحت ونحن عائدان في سيارتها أن نمضي الليل في بيتي في صيدا
فزوجتي تقضي الصيف عند أهلها. كنت يائساً من أن تطلب مني هذا
وربما فعلته من أجلي.

ركنت سيارتها في أسفل الطلعة خلف إحدى البنايات وطلبت مني أن
أسبقها. لحقتني وهي تلهث، ولم ألحظ إلى الآن كم هي مريضة. كان جبينها
يغلي ووجهها فاتراً، كأنها مرضت جداً في صعودها إلى البيت. تجنّبت
سريري الزوجي واستلقت نصف علية على سرير في الغرفة الثانية. أرادت
أن تنتهي بسرعة فخلعت ملابسها وضمّنتني دون أن تتحرك تقريباً. شدّت
الغطاء عليها وطلبت مني أن أترك السرير لها. وحين استيقظت باكراً،
كعادتي، لم أجدها. كانت هذه نهاية الأيام الأربعة.

فوجئت بطعان على مدخل البيت في صور. أدخلته ولم أعرف كيف
أجلسه. بدا لي الأثاث حُطاماً في هذا المنزل العائلي المهجور، ولا يناسب
رجلا يهتم بقعدته كثيراً. أراح، وما كاد، طرف مؤخرته على الكنبه الغارقة.
لم يبدي مُحرجاً، فمن الصعب أن نشعر بحرج من لا نعرف لهم تعبيراً خاصاً.
ظل صوته مرتفعاً يضغط على بعض الحروف كأنها يعطيها قوة ليست فيه.
قال لي إن ندى سافرت إلى بيروت وعادت مريضة.

- من يومين محرورة بالفرشة. مش عارف شو صار لها.

حسبت أنه سيمضي على هذا المنوال، لكنه فجأة، ودون أن تتغير
لهجته، سألتني:

- كنت معها في بيروت؟

قال هذا وكأنّه يدسّ جملة اعتراضية عادية. سمعت صوتي ينفي له ذلك.

- ما رحت بعد على بيروت بقيت هون والتلاتا كنت بصيدا.

هذه الجملة وحدها غيرت الجو. استراح على الكنبه وانخفض صوته.

- من وقت، صابنتني عنّة (شدد على عنّة) الحكماء قالوا إنها نفسية وبتروح.

كان يستنجد بي تقريباً. لم يذكر ندى. لكنه يريدني بالطبع أن أسعى له معها. كنت الآن أملاً وحيداً لرجل عاش 20 عاماً هكذا، ولم يجرؤ على أن يستدعي صديقاً واحداً إلى برج عزلته.

لم أغادر صور من ثلاثة أشهر، منذ جعل الإسرائيليون الطريق إلى بيروت عذاباً يقتضي بقاء أيام بطولها في الانتظار. ناهيك عما يجره مرور موقوف سابق مثلي على المخابرات. هجرتُ بيتي في ضاحية صيدا أيضاً. منذ عاد يوسف حدّاد الخجول، سفّاح القوّات اللبنانية، عثروا مجدداً على قتيل في جرف قريب، ونجا صديق على بعد خطوتين من بيتي من محاولة خطف. كنت الآن في منزلي العائلي وسط الحطام الكثير الذي تحوّل إليه أثاث راكمناه طيلة ربع قرن وتركناه يتداعى وحده. أنام في أي مكان

وأحياناً مرتدياً حذائي على الكنبه المجوّرة أو فوق السرير الذي يتجمع الشرف نفسه في وسطه من أعوام. أعيش بين الحطام شاعراً بأنني أيضاً قطعة منه، لا أفعل شيئاً لأرفع الغبار أو أشيل الكتب والصحف القديمة والملابس من أرض الغرفة وأمرّ عليها لأصل إلى سريري. أظل غالباً في ثيابي الكاملة. لا أعنى بشيء من مظهري سوى حَمّامي الذي أجد له كل يوم مياهاً غزيرة أقف ساكناً تحتها وسط رائحة البواليع.

كنت هكذا من ثلاثة أشهر. أجد مياهاً كثيرةً ووقتاً كثيراً، أصرف بعضه في قراءة كتب جدي القديمة والكتابة للجريدة ولا أفعل، بعد ذلك، سوى أن أراها، أذهب إليها تقريباً على الوقت. أرى طعاناً في قعدته وخط سيره الوحيد. الزوّار يأتون بكثرة وهم مدرّبون على أن لا يروني وأن لا يروا طعاناً. أجلس متضايقاً من أنني لا أستطيع أن أغيب جسمانياً أيضاً. بتنا لا نتكلم معاً كثيراً، وإذا اختلنا عجلنا إلى ما نريد، خوف أن يُقرع الباب. لا تفسح لي أن أقبلها كثيراً. تأخذني إلى داخلها فوراً ونتجمع غالباً بثنائنا وقوفاً أو على الكنبه مرتين متتاليتين. ونسرع إلى فتح الأبواب.

صار الناس أكثر لحاجة بعد أن أُجبروا على أن يتجنبوا الطرقات العامة وانحبسوا في قراهم وأحيائهم بلا خروج، وغالباً بلا عمل. باتت المواعيد والأوقات وحتى الأبواب والجدران غير محترمة. بات الحي يغلي بالناس بعد أن أضيف إليه العائدون من بيروت. صار الناس وبخاصة النساء

ينتقلون جماعات من بيت إلى بيت أو يتوقفون أسراباً في عرض الشارع، والصبية يتقاذفون الكرة وسطه، والرجال يتسكعون أمام الدكاكين. كان الحيّ كله في الشارع. والحيطان لا تكفي لتجعل للمنازل حرمة.

لذا كان احتفال المدينة بأرتين كبيراً. كان غريباً، بل غريب المدينة الوحيد يومها. كان أرمنياً ثرياً بصورة غامضة، يتكلم بلكنة وعربية محطمة. جاء إلى صور واشترك مع ليلى في تجارة. كل ما فيه، لهجته، ثيابه، أجنبي صارخ. قالت لي ندى إنه الآن مقصد الجميع. الفتيات حوله في المتجر والبيت، الصغيرات والكبيرات فُتنَّ به وأجملهنَّ توافيه إلى شقّته، والحديث دائماً عنه. ليلى نفسها متعلقة به. لم يعنِ لي أرمني يتكلم عربية محطمة شيئاً. لكنني صادفته عند محاسن في السهرة مع كثيرين وكثيرات جلسوا على طاريح في الشرفة الواسعة واتكأوا على مساند ووسائد. كان يتكلم دون تحفّظ شاعراً بموقعه. بدا لي عديم المخيلة، عادياً، يتكلم كلاماً كبضاعته ميسوراً للجميع، لكنهم يصغون إليه ويضحكون، حتى ندى التي لا تحتمل أن لا يراها واحد ملحوظ إلى هذا الحد. كان جريئاً بدون أي موهبة. يقول ما نخشى دائماً أن يكون محض بلاهة. قال لندی إنه سيتظاهر بأنه يسير في نومه إلى غرفتها لو استضافته عندها. ضحكت وضحكوا له لكن هذا القول بدا لي سخيفاً، وخصوصاً أنه بعربية محطّمة. تضايقتُ من ضحكها.

مع ذلك عشنا بلا غيوم وبلا مفاجآت. كنت الآن قرينها. ففي تلازمنا وحتى مجامعتنا الأسبوعية بالثياب روزنامة زوجية. يكفينا الآن أي شيء.

الغريب أن ذلك أراحني. أحببت هذه الرتبة، كانت الآن لي بدون شروط ولا حاجة إلى أن أتعب كلَّ مرّة كي أستعيدها. لتكن لي بأي طريقة. متململة أو ضجرة أو ساهية، لتكن لي.

لم يلاحظ أحد شيئاً حين تعمّدت أن تدخل عليهما في أولى ساعات الصباح، بثياب النوم التي لم تكن شفّافة لكنها زاهية وغير فضفاضة، وبلا غطاء وافٍ على الرأس. كانت لا تزال مستيقظة حين شعرت بهما يدخلان البيت. أضاء الصالون وسمعت أخاها يدعو الكهربي. لم تنظر. تناولت غطاء لم تُحكمه على رأسها فانكشف طرف من عُزّتها. ظهرت حافية على باب الغرفة وسألتهما إذا كانا يريدان شيئاً. لم تنتظر جواباً. ذهبت إلى المطبخ وغلت الشاي وحمّلت صينية الطعام إلى الصالون وجلست معهما دون دعوة. لم تردّ حين قال لها أخوها مشفقاً:

- فوتي نامي.

وقالت للكهربي:

- صحّتك جايي. خير.

اضطرم الكهربي فضحكت ضحكة فيها شيء من لعب، ولم تتركهما حتى حين انغمسا في نقاش عسكري.

كلّما سألت الأستاذ أين يمضي سهرته وليلته، كانت تتعمّد أن تردّ:

- إذا الكهربجي هونيك بروح.

ولم يلاحظ الأستاذ ذلك. لم يلاحظ أحد حتى وهي تتعمّد أن تعاتب الكهربجي وتسأله إذا كان هناك من سبب آخر لطول بقاءه في الصعيّة.

- فيه شي ما بنعرفو؟

لم يسأل أحد الكهربجي هذا السؤال ولا يخطر له أن للكهربجي سبباً آخر. لم يعد الكهربجي مضطراً إلى الاختفاء في البراري كالسابق. يكفيه الاحتياط الآن. مضت أيام المغارة. هو الآن يختفي في القرى. لا يُمضي ليلتين في بيت واحد ولا في قرية واحدة. كان دائماً مصحوباً ولا تأمل منه أن يحتال للقائها. مثل الكهربجي لا تخطر له فكرة كهذه.

انتظرت إلى أن قام أخوها. كانت جنبه. مالت عليه وقالت له بصوت خافت:

- لاقيني الظهر ع المغارة.

حين أدركت أنه لم يستوعب كلامها كرّرت بصوت مسموع:

- لاقيني الظهر ع المغارة.

عند الأذان فتحت الباب وخرجت دون أن تكلم أحداً. لم تجده على باب المغارة. كان على حجر في الداخل، حيث يتلبد الظل وتبدو قامته موصولة بالحجر، كأنها هي الأخرى من حجر مظلم. هكذا أحبت زاوية ذقنه ولمعة عينيه في الظل. كان هكذا أصلب. رآته مستغرقاً في النظر إلى حجره ويديه. لم ينتبه إلا حين صارت قريبة جداً منه. لم يتحرك حين رآها. جمع نفسه قليلاً وحاد ليفسح لها. جلست جنبه ولم تنظر إلى أي شيء. أخذت تتأمل يديها. كانت مثله تنظر إلى نفسها. شعرت أن ليس من قوة يمكنها الآن أن تحرك لسانها، حتى فكرة الكلام استعصت عليها. خافت أيضاً من أن يتكلم، كأنها كل شيء مربوط بكلمة. جلست واستراحت. لم تعد في حاجة إلى أن تفعل شيئاً، إلى أن تفكر أو تحلم. وصلت ولا تطلب سوى الراحة. نسيته تقريباً ثم انتبه فوجدته يحدّق في يديها. رفعت يدها إلى وجهه وأحسّت أن بشرته ساخنة. أحسّت أكثر أن وجهها يضطرم، بل شعرت بأن الزغب يقف على خديها. كان هذا مثيراً إلى حد كبير. فجأة هوى شيء في داخلها، وتدفّق رقرق غمرها في طراوة الظل والسكينة. وجدت يده في صدرها تماماً في الفتحة. رمت سترتها. أخرجت نهديها وجذبتة إليها. شرد حيوان إلى الداخل. وقفت عنزة في مدخل المغارة، رأتها بطرف عينها، وأنست بها. كان فوقها. وعجزت عن أي شيء، لكن كل شيء صُنع دون حركة من أحد.

الإسرائيليون لا يقتربون من الوادي ويغادرون في الليل. بدأ الشبان يتسللون إلى منازلهم ليلاً، ولما تأكدوا من خلوّ القرية قلّت حيطتهم فكثّر ظهورهم في دروبها. كانوا كُثْراً، شبان التنظيم ومعهم شبان الأحزاب، وتبعهم مع الوقت كثيرون. يعمر بهم الوادي نهاراً وتعمر بهم الضيعة ليلاً. عادت معهم حياة الليل. بدأوا يضيئون الحسينية وما لبث ميكروفونها أن ارتفع ثانية بمجالس العزاء وخطب الإمام الغائب والقرآن والأناشيد. نشيد التنظيم عند كل نصف ساعة تقريباً، وأعلام التنظيم على مدخل الحسينية وداخلها.

عاد بعض الشبان إلى إحياء سهراتهم في الحسينية وتبعهم بعض الأهالي، ولم يمر وقت حتى انتظم هذا اللقاء وبات جاهزاً للخطب والأشعار، فعاد المنبر وتوالى عليه أساتذة الضيعة وشعراؤها القدامى ونُجباء ثانوياتها. دخل الأستاذ ذات مساء فقام له الناس وظلّوا يصيحون الله أكبر إلى أن بُحّت أصواتهم، وقصد إلى المبنى فجلس بين علمين للتنظيم وتحت صور العلماء والشهداء. خطب ساعة وأكثر، والناس يكبرون بعد كل عبارة ولا ينجح في إسكاتهم، وتختلط عبارته بتكبيرهم فلم يُسمع كثير من خطابه، لكن القرية كلّها تدفقت إلى الحسينية، بعد أن علا دَوِّي التكبيرات وزاد الأمر فوضى واختلاطاً. كان عيداً حقيقياً لم ينقض إلا عند الفجر. الكهربجي نفسه حملوه في ليلة إلى الحسينية، وظلّوا يكبرون إلى أن انشقت حناجرهم، وهو واقف وسطهم لا يتكلم، ثم قال بفم ضعيف:

- شكرًا لله.

وخرج وسط التكبير والتهليل.

لم يعد مجيء الأستاذ سرًّا. وليلة حضوره يتناقل الناس الخبر، من أذن لفهم، فيصل والقرية كلّها على الباب وفي مقدّمها الشيخ الذي انصلحت صلته بالتنظيم، فله ابنان في الوادي كبيرهما في الحزب الشيوعي والصغير في التنظيم.

عندما سيق اثنان كانا في جماعة حيدر داينخ إلى الوادي وعادا في الصباح ممزّقي الثياب ممرّغين بالوحل وقيل إنهم أركعوهما وأطعموهما وحلًّا. وعندما جرّ المختار من عند الحلاق والمنشفة على صدره ووجهه مملوء صابونًا وضرب أمام الجميع في الساحة فهم أن التنظيم عاد يحكم. غادر المختار إلى صور ولم يُنَجّه ذلك، فاغتيل وهو يلاعب مختارًا آخر دق طاولة في المقهى. وتاب من لم يتب من عصابة حسين عوض والتحق بالتنظيم، ولم يستغرب أحد حين رأوا مجددًا حواجز التنظيم في القرية وحرسها في المساء.

كانت هذه تقريبًا الأشهر الأكثر فراغًا التي أمضيتها في حياتي. وليست حياتي وحدها الفارغة بل الحياة كلّها والمدينة أيضًا. ضاقت نفسي، فالنزول الأسبوعي إلى بيروت كان ينقلني من دور إلى دور ومن حياة إلى حياة. منذ

أن باتت لي حياة واحدة ودور واحد. لم تعد هناك أسابيع بل شهور فقط. وحين انتهت إلى أن شهوراً ستة مضت على هذه الحال شعرت أن ذلك تم في غفلة مني، وأن الحياة كلها تتم في غفلة مني. وأنا بمجرّد احتمال ذلك واعتياده أتحوّل إلى مجرّد موجود، إلى مُدمن مثابر لهذا الوجود العادي. لم أشعر بضيق في الحقيقة، بل بأمان، بلا مسؤولية مغرية كالنعاس، بوجود قليل وبدون أي مطلب. كان هذا أمراً مريحاً ولكنه -بدون أن أحسّ- وجود مُضنّ. كنت أشيخ، بل أصل إلى هذه الشيخوخة التي هي وقت الجميع، ما إن يدمنوا أنفسهم. كنت ساهياً وأكاد أقول مرتاحاً. لكن ندى، ولو لم تقل، شعرت أكثر مني بالاختناق.

لم تقل. لكننا صرنا نلتقي في صيدا. ووجدت هي كالعادة حُجّة لتنزل أسبوعياً إلى صيدا وتوافيني هناك إلى صلاة شاي. أمضينا في اللقاء الأول أربع ساعات متصلة، وكان مضنياً بالنسبة إليّ، أنا الذي يشعر أن في الجلوس على كرسيّ نوعاً من صلب حقيقي. كان مضنياً أن نجلس كل هذا الوقت برغبتنا المعلقة، ونفعل دائماً شيئاً آخر. كأننا نسعى عبثاً إلى تبديدها. في الأسبوع الثاني التقينا أيضاً ولساعات طويلة. في الأسبوع الثالث.. في الرابع، حين تأخرت قُرابة الساعة، حمدت لها في سرّي غيابها، وغادرت الصلاة ولم أعد إلى البيت إلا بعد أن ضيّعت ساعتين في المدينة. قالت لي زوجتي إن ندى سألت عني مرّتين وكانت -كما وصفتها- عصبية ومستعجلة.

لا أعرف كيف خطر لي أن أسأل محمد مصباح أن يعيرني مفتاح مكتب

جريدة «المساء» التي يرأسها من صيدا. وافق ببساطة الناس الذين لا يحبون أن يخيّبوا أحداً. قال إن زميله الذي ينزل من جزين لن يأتي اليوم بالتأكيد فقد جاء أمس.

لم تتردد ندى في الصعود معي إلى الطابق الثالث في البناية التي تمتلئ نهاراً بأصحاب الأعمال والمراجعين والأطباء والحلاقين وصبيان المقاهي الذين يحملون صوانيهم إلى المكاتب. فتحنا المكتب وصرنا فوراً في غرفة واسعة مفتوحة على أخرى أضيق منها وكلاهما مستطيل تام. الجدران بيضاء ضاربة إلى الرمادي، وفي الوسط ثلاث طاوولات متلاصقة بثلاث آلات دكتيلو. في الغرفة الثانية كنبه وكراسي جلد ومكتب. كنا وراء حائط، لكنني لم أشعر أننا في الداخل وبقيت أحسّ أن حركة المماشي والمبنى موجودة في الغرفة. لم يبدُ على ندى أنها شعرت مثلي. دخلت الغرفة الثانية وبدأت فوراً بخلع ملابسها على المكتب. كان واضحاً أنها تستعجل أن تبدأ لتنتهي بسرعة. اقتربت منها ما إن باتت بالسوتيان والكيلوت وحدهما واحتضنتها كعادي من ظهرها. لم تُدر لي وجهها وأنا أيضاً فهمت أن مدانا ضيق. سقطت على الكنبه وسقطت فوقها.

لحظة وتحرك مفتاح في القفل، وحين لم يفتح الباب المغلق بالترباس من الداخل، تبعت ذلك طريقة وطرقتان، وفجأة بدأ الطرق العالي ينهمر كالطرر وسمعنا من وراء الباب صياحاً:

- افتحوا شو عم تعملو هون؟

انكمشنا حين زاد الصباح والطرق. ندى التي بقي لها رشدها كالعادة أشارت لي أن أكلّمه، وبدأت ترتدي ثيابها. قلت للرجل من وراء الباب:

- رح نفتح استنى شوي.

فهمدت ضجّته. لكنه حين استأخرنا عاد إلى الطرق فصحت مجددًا:

- رح نفتح.

فتحتُ وجزدان ندى ما زال على المكتبة، وما زالت هي تسوّي تنورتها وتزرّر أعلى بلوزتها. دخل رجل طويل وحين رأى ندى فقد لسانه:

- شرموطة - تعريص.

كانت ندى في هذه اللحظة أمسكت جزدانها. خرجنا بسرعة. وحين صرنا في نهاية الدرج، انعطفت ندى ولم ألقها.

باتت الميدان نوعًا من قرية محرّرة بل قيادة للتحرير. جلا الإسرائيلون عنها ليلاً ونهارًا وتركوها للتنظيم. صعد إليها صيادلة وأطباء وأساتذة وفتيان من كل مكان ليشاركوا في المقاومة، وكانوا دائمًا مع الأستاذ في الحسينية أو مركز التنظيم مشغولين بأمور صحية ومالية وعسكرية. لم يعد الأستاذ متخفيًا ولا الكهربجي. قلّ احتياط الأول إلى درجة الصفر.

فهو دائماً تحت الأعين. في السيارة والحسنية ومركز التنظيم، ولا تصعب معرفة مواعيده، فيما بقي الكهربجي أكثر احتياطاً، فهو يتجنب أن ينام أو يحضر في أماكن وأوقات معلومة، لكنّ هذه لم تعد سرّاً حين لم يعد أحد يبالي بسرّ.

باتت الضيعة قلعة الجنوب. مجدّ شعر كل واحد من أهلها أنه حق شخصي له. كانوا حُماة المنطقة. وبدا للجمع الكبير الساهر حتى الصباح في الحسنية أنه يسهر على المنطقة كلّها. الحركة الدائمة والاجتماع الدائم في الحسنية والمركز والخطابة ليل نهار هي مظاهر القيام بهذا العبء الضخم. نسي الجميع أنفسهم في هذه الحركة. كانت القرية تقريباً لا تنام.

لم أجرؤ على زيارة ندى في اليومين التاليين ولم أقدر أن أتركها وحدها يوماً ثالثاً. زرتها، رأيتني فلم تكلمني ولم أكلّمها. كان لها وجه امرأة لم تنم من أسبوع، لكنه أيضاً سميك قاس كقناع صلب، كأنه تحت ثقل لا مرئي. كان وجه عائد من موت ما، لم تنظر إليّ، بدا وكأننا لا نستطيع أن نوجد بعد معاً في العالم نفسه.

وجدت فرصة لأسافر إلى بيروت في طائرة هليكوبتر تابعة للأمم المتحدة تنقل الصحفيين إلى مباحثات الناقورة. أخبرتها دون أن يبدو عليها أنها تستمع.

نظرت من الهليكوبتر إلى الأرض التي امتدّت تحت الطائرة وكأنني لن أعود إليها. شعرت أنني تقريباً كاللحد. مجرّد وهم معذب. مجرّد غير موجود ومعذب أيضاً ولا يملك وجوداً كافياً ليخرج من عذابه، مجرّد معذب لأنه غير موجود ولا يستطيع أن يعثر على وجوده. كان هذا تقريباً إحساس ميّت.

في بيروت عدتُ إلى أناس ومقاه فارقتها من سنة. لم أكن مستعدّاً، لكنّ بهجة أن أعود ثانية إليها كانت موجودة تقريباً بدوني. لم تكن التعاسة كافية لمنعها من أن تصدّها. عدت مرة ثانية إلى مقعدي قرب الجدار في مقهى الأكسبرس، حيث التقيت إيناس التي قلت لها من خمس سنوات إنني جاهز ولم تكن يومها جاهزة. منذ رأيتني حزمت أمرها. في السيارة قبلتها. ظهرتُ في مقابلة تلفزيونية. دعيتُ إلى سهرات. وسُئلتُ عن مطوّلة كتبتها عن الاعتقال الإسرائيلي وسُمعت دون فهم لكن بحفاوة تليق بالموضوع. كنت محاطاً ليلي ونهاري، وليس لي قلب للمغادرة بسرعة، فبقيتُ أسبوعين إضافيين، وخرجت بسهولة من اللحد. كنت ثانية حرّاً وقادراً على أن أكلم ندى كرجل حرّ. لم أنتهِ هنا.

جاءني صوتها من الطرف الآخر:

- ليش تأخرت هلقد؟ مت!

كان هذا منتظرًا. منذ تحرّرتُ علمت أنه دورها. أعددت حتى جوابي. أسعدني تليفونها، لكنه أيضًا خيبة. سأعود إليها. حققتُ شيئًا لكنني سأعود إليها. لم أتمسك كفاية بفرصتي.

ترك الإسرائيليون خلفهم أعلامهم وتحصيناتهم ومخافهم، فباتت هذه آثارًا يتفقدونها المتحمسون الذي يزورون أيضًا الحسينية والساحة والزوارب، حيث صبّت النساء زيتًا حارًا على المحتلين، يرافقهم بالطبع مقاتل يرشدهم إلى الأماكن ويروي لهم أخبار المعارك والعمليات، وينتهون في مركز التنظيم حيث يستقبلهم الأستاذ بمسبحة طويلة وعباءة ودرس في المقاومة.

كان هؤلاء يصلون في باصات. بعضهم في ثياب عسكرية احتفاءً بالمناسبة، وبعضهم بالجينز، وبينهم من يجب أن ينزل إلى الوادي، حيث يختفي المقاومون، ويجد دائمًا من يتطوّع لمرافقته وإرشاده.

بعد الصحفيين والمراسلين الأجانب الذي تضخّم عددهم، جاء مصوّرو التلفزيون الذين أثارت كاميراتهم الدهشة. وتعمّد الكبار والصغار أن يمرّوا أمامها ليروا أنفسهم في المساء نفسه على الشاشة. فقد غدت الميدان غالبًا في النشرة اليومية، وغدا الأستاذ معلقًا يوميًا وشخصية معتادة للمتفرّجين. كان لهذا صدى هائل، ما إن تحقّقوا منه حتى سمحوا للمصوّرين بتصوير المعارك والمواقع، فظهر المقاتلون وهم يتوغّلون في الوعر أو يقومون بتدريباتهم،

بل ظهوروا إبان معارك حيّة. لا ضرورة إلى القول إن بعض ذلك كان تمثيلاً. ظهر الأستاذ على الشاشة محاطاً بمقاتلين رافعين الكلاشينكوفات وقذائف الآربي جي، وهو ينزع العلم الإسرائيلي ويرفع محله العلم اللبناني وعلم التنظيم. كان هذا مؤثراً بحيث أعيد المشهد نفسه على كل من رواي الميدان الست.

لم يستهو التصوير الكهربجي وفُضِّل أن يستتر عن الصحفيين والمصورين، فبدا هكذا غامضاً وخيفاً. كان مختفياً في ليل الألغام السري، لكنه ظهر مع ذلك غير مرّة وفي أوقات محسوبة لصحافيين ومصورين، وكان على هؤلاء أن يتوغّلوا على الأقدام في الوعر ليلاً ويمضوا ساعات، يتداوهم مسلّحون من واحد إلى واحد، حتى يصلوا أخيراً إلى مغارة مظلمة يجدون فيها الكهربجي وينتزعون منه عبارات قليلة تتحوّل صباحاً إلى مانشيتات للصحف.

مريم أيضاً ظهرت في الصحف والتلفزيون وبدأت جميلة طليقة وبسيطة. أحبّ المتفرّجون ابتسامتها ولغتها فأعاد التلفزيون مقابلتها ثلاث مرّات، ولاحقها المراسلون الأجانب، لكنّ الأستاذ طلب منها أن تلزم بيتها وقال للصحافيين إن هذا أسلم لمقام المرأة. أطاعت مريم غير مسرورة، وغير مهتمة أيضاً.

لا أعرف بماذا أَسَمِّي ذلك أهو التسليم أم الأمان؟ أزورها فأرى دائماً أناساً تراني وتنساني أحياناً بينهم. تحدّثني ثم تتركني لشأني، فأجلس غير مهتم، حتى بطعان المختلي بنفسه وسط الجميع. أبقى ساعتين وأخرج حين لا يبقى لي محلّ. أذهب إلى المقهى، وربما التقيت هناك طعان. كانت دائماً مشغولة بزوّارها الموجودين كل لحظة وفي كل مكان، لكنها أيضاً مكتفية بي. لم تعد تذكر رجلاً آخر، أي رجل. حين تنجح في صرف آخر زائرة تُغلق الباب وتأتي إليّ، ويبقى سمعها متوجّساً لأقلّ حركة وراء الباب. تنال لذتها على الواقف وفي ثيابها وبسرعة غير معتادة ثم تعمل على تسوية ثيابها وفتح الأبواب. لم تعد غاضبة على الدوام ولا مهتمة بأن تبدو غاضبة. بل تتقبّل بصبر تدمّري وأحياناً غضبي، أما أنا الذي كنت أريدها هكذا مستسلمة، فلم أنتبه أنها ببساطة لم تعد مبالية.

انفجرت السيارة في أطراف الميدان. دوى الانفجار في أرجاء المنطقة وسمع جلياً من صور. تناثرت بقايا لحم في كل مكان وعلى مدى واسع. وصل فُتات من الأستاذ والكهربجي إلى وسط الساحة. كان معهما حارس، فتى في السادسة عشرة من بيروت. اختفى تماماً. إبراهيم عطوي، الذي تأخر كثيراً حتى ساروا بدونه، نجا.

وصلني الخبر وأنا في بيتي في صيدا. قضيت الليل بطوله وأنا أفكر في عزيز. حين التقيت ندى لم أجدها سعيدة، ربما شعرت مثلي أن عزيز بات

هكذا أبعد وفقدنا آثارًا أخرى له. لأسبوعين لم نختل ببعضنا. بدا هذا عفواً لكنني، لست متأكداً أنها لم تتجبنني، فالبيت مملوء دائماً، وليس ممكناً في هذا الجمع وتلك الضجة التأكد من شيء.

مريم لم تفعل شيئاً كثيراً على القبر وأثناء الجنازة. رفضت أن ترقص واحترقت دمعته. لم تكن بحاجة إلى أن تُخرج ذلك كله بالرقص ولا الصخب، فقد شعرت من اللحظة الأولى أنها انتظرته دائماً، وأحياناً استعجلته لترتاح منه باكراً، ولن تخرج منه أبداً. حين عادت إلى بيتها تجنبت قدر الإمكان لقاء المعزين. لزمت غرفتها إلى أن جاءت والدتها تستحثها للقاء معزية آتية من بعيد. حين جاءت امرأة الرئيس لتسلم عليها لم تنطق بكلمة، وبعد أن انصرف المعزون لزمت غرفتها أيضاً. أحياناً كانت تقود وحيدة. وفي يوم التقطها حاجر إسرائيلي، لكن الإسرائيليين أخلوها بعد يومين وعادت ولم تغادر بعدها. أخذت تسمن في بيتها، وخلال عام واحد غدت ثقيلة، ضُعفي ما كانت عليه. بعد عامين أو ثلاثة تزوجت رجل دين أرمل واختفت أخبارها.

رمت في وجهها الجريدة فلم تتحرك. كنت ضجرت من هؤلاء الذين يملأون بيتها. مضى أسبوعان ونحن نتحایل لنلتقي ولا نستطيع. لم تقل شيئاً. جلست على الكنبه المقابلة ومضى وقت وهي ساهية عني، وأنا واقف، ثم قالت بصوت رتيب:

- خلص انتھينا.

ودخلت إلى غرفتها وأغلقت.

أمسكوا إبراهيم عطوي. اعتبروا أنه لم يتأخر عن سيارة الأستاذ إلا لأنه يعلم. لم يكن له عذر واضح. قال فقط إنه سها. تذكروا أنه جُبْن دائماً، مرة عند قتل عزيز، اصفرّ وجهه وتركهم يفعلون. وبعد دخول الإسرائيليين لم يكن مرة في المستوى. لولا تفضيل الكهربجي له لما جاز أن يبقى معهم.

استدعوا أباه. تركوه شهرين في السجن، وأفلتوه بعد أن توسّط الشيخ والأقارب ورئيس التنظيم نفسه.. عاد مهدوداً ولزم بيته ولم ينطق بكلمة عمّا لقيه.

استدعوا أخوته واحداً واحداً. محمود أولاً ثم علي ونزار وخرجوا جميعهم خائفين. نزار وحده قال إنهم عذبوه، لكنهم دسّوا له من يحذّره فلم يعد إلى ذلك.

صرخت من الطريق:

- فھمنا، ولو ع القليلي طلّ.

كانت مضت عشرة أيام لم أقصد بيتها. ضحكت وهي تراني أمتقع ولا

أجد جملة كاملة. حين زرتها بعد يومين وجدتها صلبة كالجدار. وما زلتُ أنا ثابتاً. لكنّ هذا كالعادة لم يدم طويلاً. وقعتُ في نهار واحد بلا حراك، وطاش تقديري. كتبت رسالة توّسل كبيرة أعرف أنها ستزيدها عناداً. بقيت عند كلمتها «انتهينا». قلت إن هذا لن ينفع، ستبقى عند كلمتها سنة كاملة، تكفي جرة المرّة الماضية، لست مستعداً بعد. كنت أعزل بالكامل وفضّلت أن أبتعد.

مرّت عليّ في صيدا. قالت إنها هجرت بيتها ولن تعود هذه المرّة. صحبتني إلى مقهى على الشاطئ. جلسنا وحدثنا على طاولة في وسط الطابق الثاني. تناولت قهوتها أولاً وبعدها أخبرتني أنها لا تريد أن تخسر عمرها هكذا. أولادها يكفيها ما فعلت لهم، وتستحق أن تجد رجلاً تحبه وتزوجه. وجدت سلوى وقبلها زاهرة زوجاً أفتى وأوجه. بقليل من الحظ يمكن ذلك. كان غريباً أن تقصدي أني أنا لتخبرني بمشروعها الغريب. وعندما سألتها لماذا ليس أنا قالت إن مشاغلي تكفيني، ولن تتحمل بعد متاعب أحد.

حين لم تجد طعمان مهتماً، طلبت مني أن أرتّب عودتها. هذه المرّة طلبت حقيبة عزيز. لم تكن هنا. كانت تصطدم بهاض ليس أكثر من حقيبة، بمستقبل ليس سوى خطة حمقاء. فتحتُ الحقيبة قبل أن أسلمها إياها. قرأتُ مذكرات مكتوبة بتمويه أدبي طنان. كتب عن زيارة جمال سالم لندي أن «الرماح اندقت في قلبه». أما أنا فسمّاني. كتب أنه وجد «المسكين

عالقًا في ورطة حب». حزنْتُ. كنت في لحظة مسكين عزيز ومسكين ندى ومسكين نفسي بالتأكيد. ثمة سخف في كل ذلك، الصداقة والحب، وربما أشياء كثيرة أخرى، كلّها الآن حرق.

أنجذتني سفرة إلى الاتحاد السوفياتي. بضع حَبّات من التريبتزول أيضًا منحتني سلوانًا حزينًا، ولدى عودتي، تذكّرًا حزينًا. هل كان تذكّرًا، اجترار حياة أخرى؟ كل ما أعيشه أحسّ أنه مرّ في حياة ثانية، لحظة لحظة وتفصيلًا تفصيلًا. لا أتذكر لكن أعيش، وأرى كمن يتذكر. المهمّ أنني احتملت ذلك. في هذا ربحت جولتي. كان الدور عليها الآن.

وجدتها بالفعل ذات مساء على بابي مع أخيها وحضرة الملازم. كانوا في الطريق إلى حفلة، واقترحت أن ينتظروا عندي. هذه هي البداية ولن تتعب. زيارة أخرى بحجة غير أكيدة، وأخيرًا جاءت وحدها وقالت إنها تحتاج إليّ لاستشارة. في المقهى البحري نفسه قالت إن ضابطًا يريد أن يتزوّجها لكنها تخشى بوادٍ رجل يبقى حتى هذا العمر بدون زواج. لم أُجب. قالت إنها تريدنا صديقين. قلت لها إن اثنين غير متناسين مثلنا لا يتصادقان، وحده الحبّ يمكن أن يرمي أحدهما على الآخر. جواب لم يسرّها. قالت إنها لا تستطيع أن تهين نفسها بحبّ أيّ كان. سألتني إذا كنت أقبل أن أنام معها إذا احتاجت إلى رجل. أمسكت يدي بقوة وكأنها تريد أن تسمع مني غير الجواب الذي أقوله. سألتني هل وجدت امرأة أخرى. وحين أجبتها أحببت

أن تعرف متى . تريد أن تتأكد أنني لم ألتقيها قبل انفصالنا . كانت أصابعها لا تستقر على الطاولة . لا تعرف ندى أن تبدو مضطربة أكثر . لكنّها صرّحت بأنها لم تحبّ قسوتي، وبدأ واضحاً أنها تتألم على طريقتها .

جلا الإسرائيليون وباتت السلطة للتنظيم . ظهر إبراهيم عطوي على التلفزيون نحيلاً حتى العظم ومخنوق اللون . قال إن الإسرائيليين كلّفوه بتفجير السيارة . تعب وهو يشرح ذلك . وجدوا بعد ثلاثة أشهر جثته على الشاطئ مشوّهة وموثوقة القدمين واليدين . لم يعرف أحداً لماذا فعلوا ذلك . كان يمكن إعدامه علناً بالتهمة التي أقرّ بها على نفسه . لكنّ أحداً لم يحتجّ ، فهو ميّت عند الجميع منذ اللحظة التي اعترف فيها على الشاشة . تناقل البعض أنه أرقّ من أن يُمسك متفجّرة . أمّه وحدها وقفت وسط المقبرة وقالت :

- هذا كذب ، الذين قتلوه أدرى بمن وضعها .

أرسلت مع صديقة بيلوفري . لم أنتبه أن شهراً مضى على عيد ميلادي . عدنا إلى لقاءات المقاهي . في المقهى سال لسانها : أعرف فقط أنني أحبّك . حين حان الوقت واختلينا سكبتُ من اللحظة الأولى ولم أعرف أن أستعيد قدرتي . ما حكته . قلت إن عزيز تركها شبه عذراء . في الصباح لم أستطع

أيضًا. عدت إلى محادثتي. لم تسألني عن صاحبتني. أنا سألتها إذا كانت المشكلة هنا. قالت ببساطة إنها تفضّل لي أن أبقى مع الأخرى.

لم أستطع، وربّما لم أرد، أن أمنع هذا الملّال من أن يجعل انتظار ثمانية أشهر حُرقة. التقينا مرات لكننا لم نختل بعدها أبدًا.

عندما انتبهت أنني في الطابق السابع ولا يحميني سوى حاجز الشرفة الواطئ عندها فقط شعرت برُهاب الأعالي. هل كان عندي دون أن أعلم أم أنني قابل لكل رُهاب. أحببت أن يكون لي مكان خاص. صغير كهذا البيت الذي هو، بغرفتيه الصغيرتين وحمامه ومطبخه وصالونه وشرفته، متكامل كفكرة هندسية. لم يكن لي مكان خاص إلا خارج بيتي. بيت أهلي بغرفته العريضة لا يحوي أغراضًا كثيرة مضى أوانها وحسب، بل ذوقًا كاملاً مضى أوانه. أما الزواج السيئ فيبدأ بكره البيت وتركه للفوضى. لذا وصلت سريعًا إلى أن أضيع عن مكتبتي وأشياي. كان يكفيني أن أخرج من مدينتي وبلدي لأرى كل مدينة أخرى غريبة وسحرية. هكذا وقفت على الشرفة، بعيدًا قليلًا عن حاجزها، لا أصدّق الكنيسة القديمة تحتها ولا الشجرة الملأى بالعصافير ولا قناطر السوق والتفافاته اللولبية. لم أصدّق أيضًا السوبر ماركت في الطابق السفلي من البناية حيث مكتبي المطل على الجبل. وكلما ابتعدت في المدينة غرقت في مفاتن جديدة.

لياسول مدينة ذات شوارع طويلة جدًا كالحبال وهي أحيانًا ليست سوى شريط ضحل، إنشاءات على شارع وحيد. بيوتها تتباعد. لأن كلاً منها يقيم وحده فيما تبدو المدينة في وسطها شبه خالية. لذلك كان اللبنانيون يشعرون ببطئها ورتابتها. أما أنا الذي لا أكره البطء فوجدتها فاتنة واعتبرت أن اللبنانيين يكرهونها لأنهم يخافون المسافات ولا يحبّون الإصغاء إلى البعيد، والنظر إلى المدى.

أضيع دومًا ولا أبالي بأن أتعرف طريق العودة. أترك قدميّ تضيعان أيضًا على طريق العودة، كل خطوة تؤخرني قليلًا، وحين أعود إلى البيت المعلق أشعر بخفة وبفراغ معقم ونظيف يحيط بي. أملاً رأسي من أي شيء، من الفراغ والمسافات والأصوات والحدائق. وفي الليل أتمتع بأعطيتي وفي الصباح أقرأ حتى أخور جوعًا. كان ذلك يكفي ليجعلني كل لحظة مخطوفًا ومكتفيًا، لكن في الليل، في عمق نومي، لا أرى سوى ندى. أقضي معها ليلي. لا تخطر لي في النهار لكنني أعيش معها في الليل. هذه القسمة من البدء فتنتني. ووجدتها ذات صلة بالمكان المطل من شرفتين على الجبل والبحر. كنت أعيش على شرفتين واحدة ليل والثانية للنهار.

قُتل صادق العسال على حاجز فيجي لقوّات الطوارئ. تندّرنا دائمًا على الجنود الفيجيين. هم أكثر من نصف جيش الجزيرة وتؤجّرهم للتخلّص من نفقتهم، وليتدربوا على حساب قوّات الطوارئ. تندّرنا دائمًا على فطريّتهم.

صدّقنا أنهم يجامعون بعضهم بعضاً، نصفهم مع النصف الآخر. وباختصار لم يكن للفيجييين أي حصانة. لهذا غالباً ما رفض صادق العسّال أن يسلم سلاحه للحاجز ولم يمثل لأمر الضابط الفيجي بأن ينزل من السيارة، وحين أصّر الضابط خرج ويده كلاشنكوفه وأخذ أمام الضابط يربط أجندته حول وسطه والضابط يزعق بالإنكليزية، وسادق العسّال يجاوبه أعلى بالعربية ويلوّح بالكلاشينكوف. جعله الحنق يخطر جيئة وذهاباً ويصوّب سلاحه ويده على الزناد. لم يصدّق بالتأكيد حين اخترقت رصاصة كتفه واستقرت الثانية في قلبه.

توفي صادق العسّال. قُتل آخر الجناة. لم يعد هنا أثر لمقتل عزيز. اختفوا جميعاً. شعرت أن عزيز مات في هذه اللحظة فعلاً. فكّرت أن الأفضل أن ننقله من مدفنه في بيته، حيث بقي مزروعاً هناك منتظراً معانداً، إلى تربة القرية ليستريح.

